الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في:

الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية

بعنوان:

الأدب الأندلسي وحوار الأديان
- ابن حزم أنموذجا -

إعداد الطالب:

سيدي محمد بن كعبة

إشراف:

أ.د.بومدين كروم

لجنة المناقشة:

. أ.د محـــمد بن عـمر	أستاذ التعليـم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
. أ.د بومـــدين كـــروم	أستاذ التعلـيم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
. أ.دة خناثة بن هـاشم	أستاذة التعليم العالي	جامعة الجزائر	عضوا
. د.ة آمـنة بن منصور	أستاذة محاضـــرة (أ)	المركز الجامعي بعين تموشنت	عضوا
. أ.د محـــمد بـــاقي	أستاذ التعليم العـالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
. د. نور الدين قدوسي	أستاذ محـــاضر (أ)	جامعة تلمسان	عضوا

السنة الجامعية: 1438-1439هـ/2017-2018م.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء:

إلى من أعزّني الله بعزّهما

والديّ الكريمين....مدّ الله في عمريهما

وحفظهما بتمام الحفظ والسلامة.

إلى فرلة عيني وبسمة أملي ابنتي فاطمة الزهراء

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى كل من تربطني بهم رابطة ودّ وصلة رحم

أهدي هذا العمل المتواضع.

شكر وامتنان:

بســـم الله، الحمد لله العلي العظيم صاحب الفضل والمنة، والصلاة والسلام على رسول الله ـ مبلغ الرسالة وعالي الهمة وبعد :

امتثالا لأمر رسولنا الكريم ﷺ ((من صنع إليكم معروفا فكافئوه)) ؛ أقدم خالص شكري لأستاذي المشرف أ. د. بومدين كروم ، الذي غمرني بفيض علمه، وكريم نصحه، وبذله لوقته وجهده، ومتابعته الدقيقة لكل كلمة من كلمات هذا البحث، حتى خرج بهذه الصورة، فله منّي خالص الشكر ، ومن الله جزيل الثواب.

كما أشكر أعضاء اللجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث، وعلى ما سيغمرونني به من خالص التوجيه والنصح، وكريم العفو والصفح، وأسأل الله أن ينفعني بعلمهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على نبيه وصحبه إلى يوم الدّين.

مقدمة

مـــــقـــدمـــة

الحمد لله قبلة الكلام، سبحانه القائل في محكم البيان: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[1]؛ والصلاة والسلام على رسول الله باب السلام، المبعوث رحمة لكل الأنام، حيث طبّق وصيّة الرّحمن، بدعوة الناس كافة بالحكمة والموعظة والإحسان، ورضي الله تعالى عن آله وصحابته نجوم الهدى وبدور التمام، وبعد:

فإن من السّنن التي أودعها الله ﷻ في هذا الكون، اختلاف ألسنة النّاس، وتبايُن عقولهم في الفهم والإدراك؛ مما أسهم في انبلاج حضارات مختلفة، وتمايزها تمايزا قائما على التنوع في المعتقدات واللغات والثقافات. ولتدبير هذا التنوع وضع الشرع الإسلامي الحكيم قواعد وأصولا، تسمح بتدبير هذه الاختلافات بالتي هي أحسن، فتجلى الحوار كأرقى منهج يستطيع أن يجنب النّاس ويلات التقاتل والتناحر، ذلك أنه يقوم على مبدأ الإقناع بالحجة والدليل.

عاش في أرض الأندلس أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث، لمدة ثمانية قرون جنبا إلى جنب فكانت مثالا بارزا ونموذجا واضحا للتسامح خلال تاريخها الإسلامي على العموم، ذلك أن لغة الحوار كانت هي الغالبة في أغلب الأحيان على لغة السنان، فالمسلمون التزموا بضمان حرّية أهل الكتاب وأبقوا على أموالهم وممتلكاتهم ولم يمسوا بكنائسهم؛ وكتاب عبد العزيز بن موسى بن نصير نموذج من نماذج هذا الالتزام؛ فازدهرت الحضارة الأندلسية وتفرّدت في فكرها، وتميزت في مظاهر عيشها صغيرها وكبيرها، ذلك أن الأندلسيين تحملوا على اختلاف أصولهم وعقائدهم، مسؤوليات تدبير الحكم، وتلاقوا في مجالس العلم معلمين ومتعلمين، يحدوهم حبّ العلم ونشره، لينوّروا عقول ذوي المعتقد ويهدونهم السّبيل كلًا في نحلته، فصنفوا بالعربية واللاتينية والعبرية؛ وهذا ما حفزنا لولوج عالم هذا المجتمع ، لمعرفة كيف

[1]. سورة النحل: 125.

استطاع أن يحقق التعايش بين مختلف شرائحه، على أننا اقتصرنا في هذا البحث على جزئية واحدة نراها مهمة جدا، هي مسألة الحوار بين الأديان السّماوية، ذلك أن لاشيء حقاً يفرق الأمم شيعاً وفرقاً متنافرة مثل المعتقدات الدينية، وما ساهم في دفعنا للخوض في غمار هذا البحث هو النشاط الكثيف في الآونة الأخيرة الداعي إلى ضرورة الحوار بين الأديان لتجنب ما أنذر به بعض مفكري الغرب (صراع الحضارات)، وكأنها بدعة ابتدعها الغرب لأول مرّة في التاريخ، حاول من خلالها وفي إطار استفادته من العولمة، أن يبيّن للعالم أنه صاحب الفكرة، وأن له قصب السبق في ذلك، غير أن التاريخ يثبت عكس ذلك، فقد وُجد الحوار بين الأديان منذ القدم، وقصص الأنبياء مع أقوامهم أكبر شاهد على ذلك، كما أن الإسلام أقرّ بل وأمر بذلك ، قال ﷻ:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[1]، وبالتالي لا غضاضة أن نجد هذا النوع من الحوار قد جسّده المسلمون على أرض الأندلس وغيرها من البلاد. على أن دراستنا ليس غرضها جمع هذا النوع من الأدب ، ولو أردنا ما استطعنا ذلك، نظرا لاتساع وانتشار هذا الفن على مدى ثمانية قرون، كما أنه ليس من أهدافنا فقط إبراز أن المسلمين في الأندلس جسدوا الحوار كقيمة حضارية بين جميع المتساكنين على اختلاف مللهم ونحلهم، بل أن هدفنا هو محاولة الاستفادة من هذا التراث الحضاري، وتجاوز المطبّات التي وقع فيها الأسلاف.

ومن هذا المنطلق قرّرنا أن نقلّب صفحات التاريخ الأندلسي باحثين عن جذور الحوار بين الأديان السماوية، محاولين الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

هل وُجد حقيقة حوار بين الأديان السماوية في الأندلس؟

[1]. سورة آل عمران: 64.

هل كان هدف المشاركين في الحوار هو التعرّف إلى الآخر؟

هل سار هذا النوع من الحوار وفق القواعد العلمية والمنهجية؟

ما طبيعة العلاقة التي سادت بين أتباع الأديان في الأندلس؟

هل استطاع هذا النوع من الحوار أن يحقق التجانس بين الملل المختلفة في هذا الصقع؟

هل استفاد منه الأدب العربي في الأندلس؟ وكيف انعكس عليه؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، قسمنا البحث من حيث خطته إلى مدخل وخمسة فصول وخاتمة؛ فأما المدخل فخصصناه لتعريفات الحوار والمرادفات المقاربة له كالجدال والمناظرة، ثم عرّفنا الدّين، لِنصِلَ إلى تعريف حوار الأديان ؛ مستعرضين بعدها الأهداف من وراء هذا اللون من الحوار.

ألمحنا في الفصل الأول إلى نشأة الحوار بين الأديان وكيف تطوّر عبر المراحل التاريخية المختلفة ؛ ثمّ اعتنينا بسرد تاريخ العلاقة بين الديانات السّماوية في الأندلس قبل الفتح الإسلامي وبعد الفتح الإسلامي.

تناولنا في الفصل الثاني أهم المعالم وضوعات التي أخذت حيّزا مهما من أدب حوار الأديان في الأندلس، فتحدثنا عن الحوار العقدي (الربوبية والألوهية) والحوار في قضايا الرسل.

أما الفصل الثالث، فتناولنا فيه الحوار الذي دار حول قضايا الكتب السماوية دون أن نغفل قضايا العلاقة بين الملل الثلاث وحرّية التعبير والمعتقد في كل دين سماوي، مستمدين كلّ ذلك مما خلّفته النصوص الأدبية والدينية.

وأما الفصل الرابع فأضأنا فيه الجانب الفني لهذا النوع من الأدب، فبحثنا في حجاجية الدليل، وحجاجية الأسلوب ، ثمّ أسلوب الحدّة والعنف، لنعرّج بعدها على جانب التهكم والسخرية ، وأنهيناه بدراسة الجانب البلاغي.

وأما الفصل الخامس فجعلناه فصلا تطبيقيا ، اخترنا نصًا لابن حزم ردّ فيه على ابن النغريلة اليهودي، حاولنا من خلاله أن نستقصي مدى تجسّد قواعد حوار الأديان في الأندلس من خلال هذه الرسالة.

ثم أنهينا البحث بخاتمة أجملنا فيها ما توصلنا إليه من نتائج.

ومما لا شكّ فيه أن أيّ بحث علمي لا بدّ وأن يكون حلقة في سلسلة متصلة، فبعد البحث والاطلاع على ما كتب حول هذا الموضوع في الأندلس، وجدنا أنفسنا اعتمدنا على بعض مؤلفات الأندلسيين في هذا الموضوع من أبرزها: " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام" للإمام القرطبي وكتاب "بين الإسلام والمسيحية" لأبي عبيدة الخزرجي بتحقيق محمد شامة وهو المعنون كذلك بـ"مقامع الصلبان" المحقق من قبل عبد المجيد الشرفي؛ ومن مؤلفات الأندلسيين كذلك "تحفة الأريب في الرّد على أهل الصليب" لأنسلم تورميدا الشهير بعبد الله الترجمان الأندلسي، وكتب ابن حزم الأندلسي منها " الرّد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى" الذي اخترناه ليكون متن الدراسة التطبيقية لهذا البحث، دون أن نغفل غرّة كتبه في هذا الميدان كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، كما أنّي استعنت بمؤلف لموريسكي تناول فيه حوار الأديان هو كتاب "رحلة أفوقاي" أو "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" والمعنون في بعض الطبعات بـ "ناصر الدّين على القوم الكافرين" لأحمد بن قاسم الحجري الموريسكي الملقب بأفوقاي.

كما استعنا بعدّة دراسات وبحوث حديثة ومعاصرة، لعلّ أبرزها: "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم ـ الخزرجي)" لخالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي، وكتاب "الأديان بين الواقع والحلم ـ الحوار الإسلامي المسيحي تاريخه، واقعه، معوقاته وآفاقه" ـ لمسعود حايفي، وكتاب "الحوار الإسلامي المسيحي الفرص والتحديات" ليوسف الحسن، و"الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ ـ التاريخ، الموضوعات، الأهداف ـ"

لبسام داوود عجك، وكتاب "الحوار الإسلامي المسيحي نحو مشروع للنضال المشترك" لمحمد مهدي شمس الدين، و"خطاب المناظرة في الأدب الأندلسي من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري" لمحمد أبحير، وكتاب "المناظرة في الأندلس" لآمنة بن منصور و"دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين)" لمحمد عبد الله عنان، و"الصراع العقائدي في الأندلس خلال ثمانية قرون بين المسلمين والنصارى ـ دراسة عقدية ـ" لخالد بن ناصر بن سعيد آل حسين العبدلي الغامدي ، إضافة إلى استعانتنا ببعض المقالات العلمية، منها: "أعمال ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح" نشرها مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات وغيرها كثير؛ دون أن نغفل المداخلة القيّمة التي قدمها د. بومدين كروم حول "ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية" ونشرها المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر.

كما أنّنا لم ندخر جهدا في الالتزام بالقواعد المتعارف عليها بين أهل العلم من ترتيب الأفكار، ونسبة الأقوال إلى أهلها، سالك ين في سبيل الإجابة عن الإشكاليات المطروحة مناهج بحسب المقام، نظرا لاختلاف طبيعة البحث، فلما رُم نا الوقوف على تاريخ الديانات السماوية في الأندلس وجدت نفسي ملزما من الناحية العلمية بالاستعانة بالمنهج التاريخي، وعندما وظّفت النصوص الحاوية لأدب حوار الأديان لجأت إلى المنهج الوصفي في دراستها، باعتباره منهجا يقوم على أساس رصد ظاهرة محددة بهدف فهم مضمونها واستخراج خصائصها ووصف طبيعتها، كما استعنت بالمنهج المقارن لأنه يتيح إبراز محال الوفاق أو الخلاف بين الأطراف في الموضوع المحدّد؛ على أنّي لم أجد حرجا في الانتصار للعقيدة الإسلامية.

ما تجدر الإشارة إليه أن الدارسين ألفوا الإشارة لصعوبات البحث، لكنني لا أرى ضرورة للحديث عن ذلك، على اعتبار أن البحث إنما يستمد مشروعيته من الصعوبات التي تكتنفه.

وإنّني لأشعر بسعادة غامرة وأنا أضع اللمسات الأخيرة لهذا البحث، كما أشعر بالامتنان تجاه كل من كان له فضل المساعدة في إنجازه عن قرب أو عن بعد، وأخص بالذكر أستاذي المشرف أ.د. بومدين كروم.

ولا أرجو في الأخير إلاّ أن أكون قد وُفقت في هذا البحث المتواضع، ولو بإضافة عمل بسيط في صرح المكتبة الأندلسية.

وأحمد الله سبحانه على ما أمدّني من عون وتوفيق، وأستغفره لما قد صدر منّي من زلل أو سوء تقدير.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

ندرومة في: 17 صفر 1439هـ/ 2017/10/06م

سيدي محمد بن كعبة

مدخل إلى حوار الأديان
في الأندلس

1/ تعريف الحوار:

أ/ لـغة: أصله من الحَوْر، وهو الرجوع عن الشيء إلى الشيء. قال ابن منظور: « الحَوْر: هو الرجوع عن الشيء إلى الشيء .. والمحاورة: المجاوبة، والتحاور التجاوب، والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة »[1].

وقيل هو مراجعة الكلام وتداوله؛ والمحاورة: المجادلة، والتحاور: التجاوب، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، ومنه قولهم: لم يُحِر جوابا أي: لم يرد ولم يرجع الجواب؛ فمرجع الحوار للتخاطب والكلام المتبادل بين اثنين فأكثر.« والمحاورة والمِحورة والمِحورة الجواب، وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم»[2]. وقال الراغب الأصفهاني: "المحاورة والحوار: المرادّة في الكلام، ومنه التحاور"[3].

وهذه المعاني اللغوية وردت في سياق بعض الآيات القرآنية، منها قوله ﷻ:﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝﴾ [4]. قال القرطبي: «أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثمّ يعاقب... فالحور في كلام العرب: الرجوع»[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ

---

[1] . لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير . محمد أحمد حسب الله . هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، مادة (ح و ر): 1042.

[2] . القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، الهيئة المصرية للكتاب، 1398هـ/1978م، ج: 02، مادة (ح و ر) : 15.

[3] . مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1426 هـ . 2006 م :262.

[4] . سورة الانشقاق:14

[5] . الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبيّ، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2006م، لبنان: 22/ 163.

تُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

قال القرطبي: « أي يراجعه في الكلام ويجاوبه، والمحاورة: المجاوبة. والتحاور التجاوب»[2].

وقوله تعالى:﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [3]، ورد في تفسير الجلالين معنى تحاوركما:«تراجعكما »[4]، أي في الكلام. كما ورد هذا المعنى أيضاً في أحاديث نبوية كثيرة؛ من ذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم– كان يستعيذ بقوله: ((اللَّهُم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعدَ الكَوْر))[5]. قال القرطبي: « يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة»[6]. وقال ﷺ: ((مَن دَعَا رَجُلًا بِالكُفرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللهِ. وَلَيسَ كَذَلِكَ، إِلَّا حَارَ عَلَيهِ)) قال النووي: « رجع عليه»[7].

يتبين مما سبق أن الحوار لغة هو مراجعة الكلام وتداوله، وهو ما يكون عادة بين شخصين أو بالأحرى بين طرفين أو أكثر.

---

[1]. سورة الكهف: 34.

[2]. الجامع لأحكام القرآن: 10/ 403.

[3]. سورة المجادلة: 1

[4]. القرآن الكريم وبهامشه تفسير الإمامين الجليلين: جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، د.ت، د.ط: 543.

[5]. رواه مسلم في صحيحه :105/4. ورواه النسائي في سننه:272/8.

[6]. الجامع لأحكام القرآن: 19/ 273.

[7]. شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحي بن شرف النووي، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1393هـ.: 2/ 50.

ب/ اصطلاحا: لم تبتعد تعريفات أهل الاصطلاح للحوار عن المعاني اللغوية السابقة، فقد أكدتها وأضافت إليها بعض المعاني والقيم الأخلاقية التي ينبغي توفرها في الحوار.

ومن هذه التعريفات تعريف صالح بن حميد، الذي اعتبر الحوار: « مناقشة بين طرفين أو أطراف، يُقصد بها تصحيح كلامٍ، وإظهار حجَّةٍ، وإثبات حقٍ، ودفع شبهةٍ، وردُّ الفاسد من القول والرأي »[1].

وعرّفه بسام داود عجك بأنه: « محادثة بين شخصين أو فريقين ، حول موضوع محدّد ، لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة ، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيداً عن الخصومة أو التعصب، بطريقة تعتمد على العلم والعقل ، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر»[2].

وهكذا فالمحاورة هي تجاذب الكلام بين المختلفين، وما أضافه العلماء في تعريفه من شروط إنما هي ضوابط أخلاقية يفترض توفرها في الحوار ليكون مثمراً ومجدياً.

والحوار في اصطلاح بعض الباحثين هو: « نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة؛ فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر؛ ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب، وهو ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه ، ..... »[3].

يتبيّن مما سبق أن الحوار اصطلاحا هو تبادل المعلومات والأفكار والآراء سواء أكان تبادلاً رسمياً أم غير رسمي، مكتوباً أم شفوياً. وينعقد الحوار بمجرد التعرّف إلى وجهات نظر الآخرين

---

[1]. الحوار وآدابه، صالح بن حميد، دار المنارة، ط 1، د. ت: 2.

[2]. الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ . التاريخ . الموضوعات . الأهداف، بسام دوود عجك، دار قتيبة، ط 1، 1998: 20.

[3]. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 1998م: 6 / 7 .

وتأملها وتقويمها والتعليق عليها. ومن هذا الفهم يمكن أن يطلق الحوار على تلاقح الثقافات وما يحصل جراء ذلك من تلاقي المتحاورين وتصويب بعضهم بعضا وتأثير بعضهم في بعض. فإذا أضيف الحوار إلى الأديان أصبح دالا على كل ما يدور من الكلام والحديث والجدال والمناقشة بين أتباع الأديان المختلفة، وهذا يدل على أن معناه عام، تتعدد أشكاله وصوره وأنواعه، بحسب نوعية الكلام والمناقشة. ومن المصطلحات التي تقاربه في المعنى مصطلح الجدال، والمناظرة.

2/ تعريف الجدال:

أ/ لغة : قال ابن منظور: «الجدل: شدّة الفتلِ. والجدَل: اللَّدَدُ في الخصومة والقدرة عليها .. ويقال: جادلت الرّجل فجدلته جدلاً، أي: غلبته. ورجل جدِل،إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي: خاصمه مجادلة وجدالاً »[1].

وقد ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين موضعا كلها جاءت بالمعنى المذموم إلاّ في أربعة مواضع، من ذلك قوله تعالى :﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾[2].

ب/ اصطلاحا: قال ابن منظور: « الجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة»[3]؛ وعرّفه الشريف الجرجاني بأنه: « القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات،

---

[1]. لسان العرب، مادة جدل: 571.

[2]. سورة هود: 73.

[3]. لسان العرب، مادة (ج د ل): 571.

والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان ». وهو: « دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة»[1].

وأما الجويني فرأى أن الجدال: « إظهار المتنازعَيْن مقتضى نظرَهما على التدافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة»[2].

وورد تعريفه في المعجم الوسيط: « طريقة في المناقشة والاستدلال، ... وهو عند مناطقة المسلمين: «قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات»[3].

وقد ورد إطلاق (الجدل) في نصوص القرآن والسنة على نوعين متباينين:

الأول: الجدل المذموم، وهو الذي يدور في طلب المغالبة لا الحق، أو الذي فيه نوع من الخصومة واللدد، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[4] ، ومثله قول الله تعالى في ذم جدال الكافرين: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾[5] ، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا

[1]. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، 1985: 78.

[2]. الكافية في الجدل، للجويني، تح: فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة،1979: 21/19.

[3]. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة دار الشروق الدولية، ط 4، مصر، 1425هـ/2004م، مادة (ج د ل): 111.

[4]. سورة الزخرف: 58

[5]. سورة غافر: 4

[6]. سورة غافر: 5

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾[1] ، قال ابن منظور: «قالوا: معناه لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاه، فيخرجه إلى ما لا ينبغي» [2]. وفي الحديث: ((ما ضَلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل))[3].

والمراد بذلك كله الجدل على الباطل وطلب المغالبة به، لا الجدل بحثاً عن الحق وفي طلبه، فإن ذلك اللون من ألوان الجدل محمود.

والثانـي: الجدل المحمود، وهو الذي يكون في طلب الحق بالأسلوب الحسن بعيداً عن الخصومة، ومنه قوله عزّ وجل: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[4]. وهو بهذا المعنى مرادف للحوار، قال تعالى واصفاً حديث المرأة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالحوار والجدال، فقـال: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾[5]. وهكذا فالجدال قد يكون صورة من صور الحوار، وقد أمر بها الله ورسوله؛ وتجنباً لما قد يكتنفه من اللّدد في الخصومة فإنهما أمرا بالمجادلة بالتي هي أحسن، بعيداً عن ضروب الجدل المذموم الذي يفضي إلى الشقاق.

---

[1]. سورة البقرة: 197

[2]. لسان العرب، مادة (ج د ل): 571.

[3]. رواه الترمذي ح (3253)، وابن ماجه ح (48)، وأحمد ح (21660)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ح (2593).

[4]. سورة النحل: 125

[5]. سورة المجادلة: 1

3/ تعريف المناظرة:

أ/ **لغة**: المناظرة من مادة نظر، قال ابن فارس: «النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه فيقال: نظرت إلى الشيء أنظر إليه، إذا عاينته ....ويقولون: نظرته، انتظرته» [1] ؛ وقال الزمخشري: « نظرت إليه ونظرته.... وهو ينظر حوله: يكثر النظر. وهو نظيره بمعنى مناظره أي مقابله ومماثله» [2]. وقال الزبيدي: « والمناظر المِثْلُ والشَّبيه في كل شيء، يقال: فلان نظيرك أي: مثلك، لأنه إذا نظر إليهما النّاظر رآهما سواء، (كالنِّظْر، بالكسر)، ... مثل النِّد والنَّديد» [3]. ويفهم من كلام ابن فارس أن المناظرة تعني التأمل والانتظار والمعاينة، وهي عند الزمخشري بمعنى المقابلة والمماثلة، وعند الزبيدي بمعنى النّدّية؛ والخلاصة أن المناظرة في اللغة تعني التأمل والتقابل والمماثلة والنّدّية.

ب/ اصطلاحا: إن أبرز سمة للتعاريف الاصطلاحية الخاصة بالمناظرة هي سمة التنوع، فقد عرّف الشريف الجرجاني المناظرة قائلا: « النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب» [4]. وقال محمد الأمين الشنقيطي في تعريفها: « المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق» [5].

---

[1] . معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر،ج 5، مادة (ن ظ ر): 444.

[2] . أساس البلاغة، الزمخشري، تح: عبد الرحيم محمود، عرف به أمين الخولي، ط 1، 1372هـ/ 1953م: 462.

[3] . تاج العروس من جواهر القاموس،للسيّد مرتضى الحسينى الزّبيدي، دار التراث العربي، تح: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1965، ج 14 مادة (ن ظ ر): 249.

[4] . التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1985: 111.

[5] . آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تح: سعود بن عبد العزيز العريفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مكتبة العلم، جدة، ق2: 139.

فالمناظرة تفيد النظر والتفكر في الأمور والبحث عن الحق عن طريق المحاورة مع الآخرين. وحوار المناظرة يكون بين شخصين أو فريقين حول موضوع معين، بغية الوصول إلى تبيان الحق وكشف الباطل، مع توفر الرغبة الصادقة في ظهور الحق والانصياع له.

4/ تعريف الدّين:

أ/ لغة: الدِّين: الدّيانة ، اسم لجميع ما يُعبد به الله[1]، والأديان: جمع دين، والدّين في اللغة بمعنى: الطاعة والانقياد.

ب/ اصطلاحا: هو ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة. وفي الاصطلاح الإسلامي هو الاستسلام لأمر الله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وإتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ هذا الاستسلام والإتباع عقيدة وشريعة ومنهاج حياة شاملاً حيث قال الله ﷻ: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2] ، وقال أيضا: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3].

ويعرّفه الشريف الجرجاني: « الدّين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول قبول ما هو عند الرسول ﷺ .....ويقول الدّين منسوب لله عزّ وجلّ » [4] ؛ فهو على هذا الأساس طاعة وانقياد وتأسيس لمنهج الحياة على مُثُل عليا يلتزم بها الإنسان.

---

[1] . المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1325هـ/ 2004م مادة (د ي ل ع): 307.

[2] . سورة النحل: 52.

[3] . سورة آل عمران: 83

[4] . التعريفات، الشريف الجرجاني: 111.

ويقول محمد فريد وجدي في تعريفه للدّين: « هو اسم لجميع ما يعبد به الله، والملة، ومثله الدّيانة. جمع الدّين أديان وجمع الدّيانة ديانات. وفي الموسوعة العربية العالمية الدّين لغةً: الملك والحكم والتدبير؛ من دَانَهُ دِيناً أي ملكه وحكمه وساسه ودبّره وقهره وحاسبه وجازاه وكافأه من ذلك « مالك يوم الدّين »، أي يوم الحساب والجزاء. وفي الحديث: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)) ومعنى قوله: من دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة [1]، أي حكمها وضبطها. وفي الموسوعة العربية: « لفظة " دين " العربية تضم معاني مختلفة، ولكنها وثيقة الارتباط فيما بينها. فاللفظة مشتقة من فعل " دان " وأصله " دين " ومعناه أذلّ واستعبد، وحاسب. ومنه يوم " الدّين " وهو يوم " الجزاء " أو " المكافأة ".وفي اللغات الأوربية تستخدم كلمة (Religion) للتعبير عن الدّين، وهي كلمة ذات أصل لاتيني هو (Religio) بمعنى إعادة الجمع والقطف، إشارة إلى التفكر والتعبد والتأمل والعمل تبعاً لما يستخرج من تلك التأملات.

5/ مفهوم حوار الأديان:

حوار الأديان مركب إضافي، حاصل معانيهما مجتمعة لا يسعف في بيان المقصود من التركيب، ذلك لأن الحوار صفة إنسانية؛ بينما الدّين اعتقادات وأقوال وأفعال، كلها تدخل في مسمى الفعل وتحتاج إلى فاعل في اصطلاح النحاة.

ولكننا نقصد من استعمال هذا المصطلح الحوار بين أتباع الأديان؛ مع أننا سنقصر هذا المصطلح على أتباع الأديان السماوية فقط أو ما يعرف عند الناس بالديانات الإبراهيمية، الإسلام واليهودية والمسيحية.

[1]. الجامع الصحيح . سنن الترميذي . ، محمد بن عيسى السلمي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج4: 638.

ومصطلح حوار الأديان مصطلح حديث، ظهر في الفترة المعاصرة، ولكنه لا يزال يحمل معنى فضفاضا، لم يستقر على تعريف محدد؛ فعرّفه أحد الباحثين بقوله:« هو تلك اللقاءات الحوارية على مستوى الأفراد أو الجماعات، سواء أكانت حكومات أم مؤسسات أم جمعيات، والتي تتم بين طرفين، الأول منهما يدين بالإسلام والثاني يدين بدين المسيحية، من حيث التعريف بها ودراستها، ولهذا الحوار أشكال هي:

1. الحوار الفردي المباشر.

2 . الحوار عن طريق الرسائل.

3 . الحوار عن طريق اللقاءات التي تتم أمام الجماهير.

4 . الحوار عن طريق المؤتمرات والندوات» [1]. مما يؤخذ على هذا التعريف، أنه قصره على الحوار بين الإسلام والمسيحية، بينما حوار الأديان يشمل مختلف الديانات.

كما نجد تعريفا لباحث آخر يقول فيه: « الحوار الذي نعنيه في هذا البحث هو أن يتبادل المتحاورون من أهل الديانتين الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات، التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، تبين ما قد يكون بينهما من تلاق أو اختلاف، مع احتفاظ كل طرف بمعتقداته، في جوّ من الاحترام المتبادل والمعاملة بالتي هي أحسن بعيدا عن نوازع التشكيك ومقاصد التجريح، بل ما يرجى منه هو إشاعة المودة وروح المسالمة والتفاهم والوئام، والتعاون فيما يقع التوافق فيه من أعمال النفع العام للبشرية»[2].

وعليه، فحوار الأديان يعني التفاعل التعاوني الإيجابي والبنّاء بين الناس من مختلف المعتقدات على المستويين الفردي والمؤسسي، ويتميز حوار الديانات عن التوفيق بين الأديان

[1] . الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ . التاريخ . الموضوعات . الأهداف، بسام داوود عجك، دار قتيبة، ط 1، 1998: 28 .29.

[2] . الحوار الإسلامي المسيحي الفرص والتحديات، يوسف الحسن، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ط: 1، 1997: 13.

أو الدّين البديل كونه غالبا ما يعمل على تعزيز التفاهم بين الأديان المختلفة من أجل زيادة قبول وتفادي الصدامات بين أفراد المجتمع الواحد أو بين شعوب المعمورة.

6/ أهداف حوار الأديان:

إن المقصود من حوار الأديان ليس المجابهة والإفحام ، إذ أن ذلك هو من باب المناظرة ومحاولة الظهور على الخصم وتعجيزه عن الرّد. وإنما المقصود أن يحصل بعض ما يأتي:

1- معرفة أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار.

2- تعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا التي هي موضوع الحوار.

3- العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه كلياً أو جزئياً في القضايا التي هي موضوع الحوار ليتقبلها ويعمل على تبنيها بعد اقتناعه بها سواء بعد الحوار مباشرة أو تدريجياً على المدى الطويل.

4- العمل على استكشاف ما لدى الطرف الآخر من حقائق وإيجابيات والاعتراف بها وقبولها والاستفادة منها طالما ((أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها))[1].

5- العمل على استكشاف ما عند المحاور من معلومات غير صحيحة أو دقيقة ومما في وجهات نظره أو مواقفه من ثغرات وأخطاء والعمل على تداركها وإصلاحها.

[1]. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ . 1995 م ، ج 192/55 ويقال أنه حديث روي عن النبي ﷺ سمع علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ يقول:(كلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها))

6- تشييد جسر للتواصل السلمي البناء وسد الطريق أمام المواجهات والمصادمات مما يبدد الجهود.

7- أن الحوار يساعد على التوقد الذهني وهي صفة ملازمة لأجواء التحدي الفكري والحوار المتبادل.

9- إحباط حجج المتطرفين والمعتدين، فكثير من حوارات كبار علماء الإسلام مع الفرق الضالة كشفت زيف أفكارهم، وذلك ما سجلته كتب تراثية خالدة كالملل والنحل للشهرستاني، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي .

وعليه لو لجأ أتباع الأديان إلى لغة الحوار كقيمة حضارية لاستطاعوا بناء جسور التواصل الذي يسمح بنشر قيم المودّة والرحمة، وقبول الآخر، على أن تحمل هذه المحاورة في طياتها المحبة والحرص على هداية الآخرين، وعدم النظر إليهم بازدراء واحتقار وعداء؛ باعتبارهم ضحايا لظروف التربية والبيئة التي نشأوا فيها.

الفصل الأول:

لمحة إلى تاريخ العلاقة بين الديانات السماوية في الأندلس.

ظهر حوار الأديان إلى الوجود ملازما لظهور الديانات، ذلك أن نشر أيّ دين في وسط ما، لا يكون إلاّ عبر الحوارات بين أولي السبق فيها وأقوامهم، بهدف إقناعهم بالانخراط في الدّين الجديد، وترك موروثاتهم العقدية السابقة، « فلا ينكر أحد أن الإنسان ،و منذ فجر التاريخ، مرتبط بربه مخلص لدينه[1]، أياً كان هذا الدّين أو ذاك الإله ، حتى إذا عرض أو فرض عليه التغيير ثار واستنفر قواه لمحاربة هذا البديل ، فلا عجب إذًا أن تكون أولى المناظرات تلك التي اكتست طابعا دينيا بحتا»[2].

1/ حوار الأديان زمن الأمم السابقة:

فما من نبي أُرسل إلّا وجادله قومه، فأكثروا الجدال، فنبي الله إبراهيم عليه السلام ، حاجه النمرود وادعى الألوهية، قال ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[3]، « وهما انتقل الذي كفر من القدرة على المواجهـــة إلى مفاجأة الدهشة ، هذه هي الصورة الأولى، ومن المفاجأة والدهشة انتقـل إلى التحيّر ، لأنّه يبحث عن مخرج لنفسه ..و هكذا تلقى النتيجـــة وهي الهزيمة »[4].

---

[1]. آمن الإنسان البدائي بقوة خفية مؤثرة في الحياة ، و ذلك بدافع الدهشة أو الخوف – ينظر : من المنظور الإسلامي : محمد الكتاني : 16

[2]. المناظرة في الأندلس . دراسة في الأشكال والمضامين . ، إعداد: آمنة بن منصور، إشراف: بومدين كروم، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2012م، 04.

[3]. سورة البقرة : 258.

[4]. الحوار في القرآن الكريم، إعداد: معن محمود عثمان، إشراف: محمد حافظ الشريدة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005 : 52

وسيدنا موسى عليه السلام، بعثه الله رسولا إلى بني إسرائيل، ولنشر دعوته بينهم، أمره الله تعالى بمحاورة فرعون مصر وإقناعه بحجج عقلية، ثمّ بمعجزات تكون حجة عليه، فقال عز وجل: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[1]، ومع ذلك لم يؤمن فرعون ولا الذين معه، وتحدوا موسى عليه السلام، بأن يبطلوا ما فعل، قال عز وجل: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2].

وحاور موسى قومه، بعدما حادوا عن العقيدة الصحيحة لما غاب عنهم في قوله عز وجل: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾[3].

وهكذا نرى سيدنا موسى عليه السلام، نفذ أوامر ربه بدخوله في حوار عقلي دعا فيه أول الأمر فرعون إلى الاهتداء إلى الدّين الحق، وترك ما كان يدعي من أنه الربّ؛ ثمّ مع قومه والشواهد على ذلك كثيرة.

---

[1]. سورة الأعراف: 108/107/106.

[2]. سورة الأعراف: 120/119/118/117.

[3]. سورة طه: 87/86.

ولم يحد سيدنا عيسى عليه السلام عن هذا المنهج ، فقد حاور قومه بما يعجزهم ويبرهن على قدرة الله التي وسعت كل شيء؛ قال عز وجل:﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1]؛ وفي قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾[3]، وفعلا نزلت المائدة من السماء، وكانت أقوى برهان على صحة رسالة عيسى عليه السلام.

---

[1] . سورة آل عمران: 49/48.

[2] . سورة الصف: 06.

[3] . سورة المائدة: 112 . 113.

2/ نماذج من حوار الأديان زمن النبي ﷺ:

جاء الإسلام والعالم مليء بالتعصب والتعالي، فسنّ مبدأً جديدا هو التجاوز والتسامح عن طريق الحوار، وأول نموذج نعثر عليه من هذا النوع، هو حوار النبي محمد ﷺ مع ورقة بن نوفل[1]؛ ثمّ حواره ﷺ وأصحابه مع مشركي مكّة، وقد سجل القرآن في آياته الكثير من هذه الحوارات، تولى فيها الرّد على المشركين.

أ ـ **حوار النبي ﷺ مع المشركين:** لقد حاور القرآن الكريم المشركين على تنوعهم وتعدد مذاهبهم، وحاول إقناعهم عن طريق دعوتهم إلى النظر والتأمل في الكون، وفي أنفسهم، حتى يتوصلوا للحقّ، ويُسلموا لله ربّ العالمين، ولقد قصّ القرآن الكريم قصصا كثيرة لأنبياء الله مع أقوامهم. وعلّم الرسول ﷺ المسلمين من بعده كيف يتعاملون مع المعرضين والرافضين والمحاربين المعتدين، كاشفا أساليب متنوعة في التعامل مع هؤلاء والصبر على إيذائهم، وكثيرا ما كانت تلك القصص ترد في أسلوب المحاورة، حتى يتعلم الناس ممن سبقهم كيف يتخذون هذا الأسلوب وسيلة تأتي في المقام الأول، ولقد ظلت الدعوة الإسلامية ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة لا تعرف من الوسائل إلا وسيلة الحوار والصبر على أذى المشركين»[2].

وبعدما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة بدأ الحوار مع أهل الكتاب من قُطَّان المدينة المنورة، والكثير منها كان يبدأ بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ** ....﴾ لما في ذلك من تعظيم وتشريف.

---

[1]. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة البخاري، ضبط النص: محمود محمد محمود حسن نصار، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1423هـ. 2002م: 14. (طبعة كاملة)

[2]. حوار الأديان بين الواقع والحلم، الحوار الإسلامي المسيحي تاريخه، واقعه، معوقاته وآفاقه، مسعود حايفي، دار الأوائل، سورية، ط1، 2012: 41.

ب ـ حوار النبي ﷺ مع اليهـــود: قدم النبي ﷺ المدينة المنورة فوجد بها يهودا ومشركين، فلم يتجه فكره إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة أو العداء، بل قبل وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين معاهدتهم معاهدة النّد للنّد، على أن لهم دينهم وله دينه. لقد جاء في وثيقة العهد بين النبي ﷺ وبين اليهود ما يثبت إيثار المسلمين لمبدأ التعايش مع الآخر من أجل خير الجميع.

« ـ .....

ـ إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

ـ إنّ يهود بني عوف أمة من المؤمنين.

ـ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم.

ـ إنّ ليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم، وبني الأوس.....مثل ما ليهود بني عوف.

ـ إنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة:

ـ إنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ، دون الإثم.

ـ إنّه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النصر للمظلوم، وإنّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

ـ إنّ بينهم النصر على من دهم يثرب.

ـ إنّ من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة آمن، إلاّ من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برّ واتقى» [1].

ويعلق الشيخ الغزالي على هذه الوثيقة بقوله: « إنّ هذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها، على أيدي العادين ومدبري الفتن أياً كان دينهم، وقد نصت ـ بوضوح لا يقبل التأويل أو المغالطة ـ على أن حرية الدّين مكفولة.

[1]. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د.ت، د.ط: 198

فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف، بل تكاثفت العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة»[1].

ومن حواره ﷺ مع يهود المدينة أن حبراً من اليهود يقال له مالك بن الصيف جاء يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ : ((أنشدك بالذّي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟)) وكان حبراً سميناً. فغضب فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فأنزل الله:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ ﴾[2]. والشواهد على محاورة النبي ﷺ لليهود عديدة.

ج - حوار النبي ﷺ مع النصارى: خصَّ القرآن العظيم وسنّة المصطفى الكريم ﷺ النصارى بمكانة عظيمة، فقد اعتبرهم من أهل الكتاب ، وفي ذلك تمييز لهم إلى جانب اليهود عن أتباع الديانات الأخرى وبالخصوص الديانات الوثنية، وكونهم من أهل الكتاب ، « يعني أن الله خصّهم دون غيرهم برسالته، وباعتبار أن ذلك الاسم كما ذكر الرازي : من أحسن الأسماء ، وأكمل الألقاب ؛ حيث جعلهم أهلا لكتاب الله»[3].

ولا يقتصر القرآن الكريم على اعتبار النصارى من أهل الكتاب ، بل يخصهم بمكانة أحسن من مكانة اليهود على الرغم من موقفه الحاسم من عقائدهم قال ﷻ :﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ

[1] . المرجع نفسه: 198.

[2] . سورة الأنعام: 92.

[3] . التفسير الكبير، محمد فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، د.ت، ط2: ج8 /85 . 86 .

أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

ولم تقتصر سماحة النبي ﷺ مع المسلمين فقط بل شملت أهل الكتاب والمشركين أثناء الحرب، فقد أوصى بالقبط خيرًا، وثبت عنه أنه قال: « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا»[2].

ومن تتبعنا للمسار التاريخي، نجد أن المسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أقرب للنصارى من غيرهم من أتباع الديانات الأخرى؛ ولا أدل على ذلك من الواقعة العظيمة التي وقعت بين سنتي 613م و614م، حين زحفت جيوش الفرس على الروم البيزنطيين، وانتصرت انتصارا عظيما، فاعتبر المسلمون الروم أهل إيمان، وتعاطفوا معهم وفقا لهذا الاعتبار، وربطوا في تعاطف لا سابق له، بين صراعهم ضد المشركين في مكة وصراع الروم المسيحيين ضد الفرس الوثنيين، ويصف وحيد الدين خان ما كان في تلك الأجواء بقـوله: « وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية . وهي مكة المكرمة . مشكلة مماثلة: كان الفرس مجوسا من عبّاد النّار، وكان الروم مؤمنين بالمسيح وبالوحي وبالرسالة وبالله تعالى ، وكان المسلمون مع الروم نفسيا، يرجون غلبهم على الكفّار المشركين، كما كان كفّار مكّة مع الفرس، لكونهم من عبّاد المظاهر المادية، وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذي كان يدور بين الإسلام وأهل الشرك في مكّة، وبطريقة نفسية ؛ كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي ، هي نفس مآل صراعهما الداخلي، فكان انتصار الفرس على

[1]. سورة المائدة: 82.

[2]. أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك 2 / 553) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح 1374.

الروم سنة 616م فرصة انتهزها المشركون في مكة للسخرية من المسلمين ، قائلين: لقد غلب إخوانُنا إخوانَكم ، وكذلك سوف نقضي عليكم»[1].

وقد أصاب المسلمين الحزن عندما انهزم الرّوم المسيحيون، وكان المسلمون حينها في أضعف وأسوأ أحوالهم، وعندئذ؛ خفّف القرآن عليهم هذه الصدمة، مبشّراً بأنّ الرّوم سينتصرون، قال تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[2].

وقد بيّنت هذه الحادثة مدى اهتمام المسلمين وتتبّعهم لأخبار أهل الإيمان في كل مكان، فقد حزنوا لهزيمة الرّوم المسيحيين، وفرحوا عند بشارة القرآن الكريم بنصر الرّوم بعد بضع سنين قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾[3].

ومما تدل عليه هذه الحادثة أن الإسلام أعلن منذ ـ بدايته ـ عن موقفه من المسيحيين واعتبرهم أعضاء في عائلة واحدة هي عائلة الإيمان التي ينبغي على جميع أفرادها أن يقفوا صفا واحداً لصدّ الشرك والوثنية والإلحاد والفساد، ولم يبادر إلى عدائهم وإقصائهم ، ورغم كل ما كان من موقف المسلمين المتعاطف، فإن الرّوم بادروا بالاعتداء عليهم، بعد أن قام شرحبيل بن عمرو الغساني بقتل رسول المصطفى ﷺ الحارث بن عمير الأزدي، وهو يحمل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمير بُصرى، ما دفع بالمسلمين للاقتصاص لرسولهم فكانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة على حدود الشام[4].

---

[1]. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط2، 1393هـ . 1973م : 186 . 187.

[2]. سورة الروم : 1 . 5.

[3]. سورة الروم: 4.

[4]. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1414هـ / 1993م: 341.

وبعد غزوة مؤتة، وقع حدثان مهمان في تاريخ الإسلام: أما الأول فهو فتح مكة؛ وأما الثاني فهو معركة حنين، «التي كانت ردّ فعل للقبائل العربية الكبيرة، التي أجمعت الأمر على قتال المسلمين قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وقبل أن يخرجوا للقضاء على ما بقي من الوثنية العربية»[1]؛ وكان للروم قراءتهم الخاصة لهذين الحادثين، لقد أدركوا أن المعارك القادمة للمسلمين ستكون خارج إطار القبائل العربية؛ ولقد التقت رغبة السلطات السياسية الرومانية، مع رغبة الكنيسة في التخلص من هذا الدّين الجديد الذي يبسط سلطانه يوما بعد يوم، ولهذا تقرر لديهم الإعداد لضرب المسلمين في شبه الجزيرة العربية؛ لتغلق عليه أبواب الحدود فلا يخرج منها، ولما انتهت الأخبار للمسلمين فكانت غزوة تبوك[2].

بعد هذه الأحداث، وفي السنة العاشرة للهجرة، كانت دعوة الإسلام قد بلغت أوج نضجها، بعد أن كان الإسلام قد هزم بقايا الوثنية العربية ومراوغات اليهودية.

ولم تلبث أصداء دعوة التوحيد أن ترامت شرقا وغربا، ولم تكن تلك الأصداء ضعيفة أو منقطعة، ولكنها كانت أصداء قوية مستمرة [3]؛ خاصة بعدما بعث ﷺ رسالة مكتوبة إلى كسرى أنو شروان ، ورسالة أخرى إلى هرقل عظيم الروم. فجاء وفد من نصارى نجران من اليمن يريد حسم هذا الصراع العقائدي لصالح المسيحية، وغني عن البيان أن وفد نصارى نجران الذي تحرك من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى قلبها " المدينة " لمحاورة المصطفى ﷺ، لم يتحرك من فراغ؛ لقد كان وراءه رغبة قادة المسيحية وإمبراطور الرومان في تحقيق انتصار فكري حاسم لوأد دعوة الإسلام في فجر تاريخها، وفي عقر دارها. وكان وفد نجران مكوّنا من ستين عالما من علماء المسيحية، الذين سخروا حياتهم لدراسة الدّين واللاّهوت والفلسفة، وكان

[1] . فقه السيرة، محمد الغزالي: 425.

[2] . المرجع نفسه: 436 (بتصرف)

[3] . المرجع السابق: 366

وراءهم كهنوت المسيحية، وجبروت المسيحية الرومانية، وكانت وراءهم كل فلسفات اليونان، ولم يكن نبي الإسلام مجرّد عربي أمّيّ، لقد كان نبياً رسولاً، هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان بين يديه الكريمتين القرآن العظيم، آخر صور وحي السماء[1].

لقد كلّف الإمبراطور كبير أحبار النصارى في نجران أن يتوجه على رأس وفد من أعلم القساوسة والرهبان للقاء سيّد الثقلين محمد ﷺ، لا سيّما أنهم يجيدون العربية، لمحاولة التغلّب على هذا النبي العربي في حوار يقضي على دعوته، فلا يقر لها قرار، لو قدّر لكبير الأحبار من نصارى نجران أن ينتصر في مثل هذا الحوار[2].

كان حوار النبي ﷺ مع وفد نجران سببا في نزول الآيات الثمانين من صدر سورة آل عمران، وعدد آيات القرآن التي نزلت بشأن هذا الحدث الهام لم يحدث له نظير لأيّ سبب آخر من أسباب التنزيل، ممّا يدل على بالغ أهميته وخطورته[3].

ويعلق محمد حسين هيكل على أحداث هذه المحاورة بقوله: «أيّ مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذي شهدته يثرب، تلتقي فيه الأديان الثلاثة التي تتجاذب حتّى اليوم مصاير العالم، وتلتقي فيه لأسمى فكرة، وأجلّ غاية، لم يكن مؤتمرا اقتصاديا، ولا كان مرماه أيّ غرض من هذه الأغراض المادية التي ينطح عالمنا اليوم عبثا صخرتها، وإنّما كان مرماه غاية روحية، تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب المال وذوي الملك والسلطان، ويقف فيه محمد ﷺ لغاية روحية إنسانية بحتة، يملي عليه الله في سبيلها الصبغة التي يلقي بها إلى اليهود والنصارى وإلى النّاس كافة»[4].

من كل ما سبق، يتبين لنا أن الإسلام كدين خاتم وناسخ لجميع الرسالات السماوية، جعل الحوار وسيلة للتواصل مع أهل الكتاب، ولا أدلّ على ذلك من أن النبي ﷺ لم يرفض

---

[1]. حوار الأديان بين الواقع والحلم:74.

[2]. المناظرة الأولى: أول لقاء يجمع بين النصارى والمسلمين علي الجوهرين علي الجوهري، مكتبة التراث الإسلامي، ط 1، 1993: 139.

[3]. حوار الأديان بين الواقع والحلم:75.

[4]. حياة محمد ﷺ، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، 1991: 199.

محاورة نصارى نجران على الرغم من علمه بدوافع مجيء هؤلاء إلى المدينة؛ كما أكرم وفادتهم على كثرتهم، حتّى يقال إنه:« ... وقف (النبي ﷺ) يخدمهم، ويقدم لهم الطعام»[1].

احترم الرسول ﷺ رغبة أعضاء وفد نجران في أن يصلوا بمسجده الصلاة التي تواضعوا عليها متجهين فيها إلى قبلة غير قبلة المسلمين...، وقال لأصحابه: « دعوهم » احتراما لمعتقداتهم....

وهكذا، وقبل أن يفضي الرسول ﷺ إلى ربّه، بيّن للمسلمين الطريق الذي يجب أن ينهجوه في تعاملهم مع أهل الكتاب، امتثالا لقوله ﷻ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[2].

وهكذا تعامل النبي ﷺ مع سائر الملوك والحكام، كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس عظيم القبط، وهرقل عظيم الروم، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة، وإلى ضغاطر أسقف الروم بدمشق .....

3 . نماذج من حوار الأديان بعد زمن النبي ﷺ:

انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واتسع نطاق الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، فاتحة البلاد، ومنقذة العباد، تدخل القلوب، وتفتح العقول، بروعة أحكامها، وعدل سيرتها، وصدق أتباعها.

ثمّ بدأ النّاس يدخلون في دين الله أفواجا؛ وكان للإرشادات القرآنية والنبوية الأثر الأكبر في الواقع العملي، وبخاصة فيما يتعلق بحسن المعاملة، وطيب المعاشرة لأهل الكتاب. ونظرا لأن الفتوحات الإسلامية قد دخلت كثيراً من البلدان التي كان سكانها من أهل الكتاب، إمّا يهودا أو مسيحيين، فقد أدى وجودها للاحتكاك الواسع بين المسلمين وأهل الكتاب، ما

[1] . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشآر، دار المعارف، القاهرة، 1995م: 91.

[2] . سورة آل عمران: 64.

أفرز جدلا عقائديا؛ لم يؤثر على طبيعة العلاقة الاجتماعية بينهما، حيث كان الحوار ممارسة يومية، يعيشها المسلمون واليهود والمسيحيون على السواء؛ والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم، عن أبيه قال: « سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمدا بالحقّ. قالت: أنا عجوز كبيرة وأموت على قريب؛ فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا قوله تعالى:﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾[1].

وروي عن سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه في معركة اليرموك «خرج جَرَجَة [2] أحد الأمراء الكبار من صفّ الروم، واستدعى خالد بن الوليد، فأتاه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجة: يا خالد، أخبرني فاصدقني، ولا تكذبني، فإن الحرّ لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه، فلا تسلّه على أحد إلاّ هزمتهم؟

قال: لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال خالد: إنّ الله بعث فينا نبيا، فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعا، ثمّ إن بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذّبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثمّ إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه؛ فقال لي: أنت سيف من سيوف الله على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين. فقال جرجة: يا خالد، إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عزّ وجلّ؟ قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية، ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها. قال نؤذنه بحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم، ويدخل في هذا الأمر؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. قال

[1]. سورة البقرة: 256.

[2]. جرجة: محركة، اسم مقدم عسكر الروم يوم اليرموك. انظر القاموس المحيط 181/1

جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم، وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة، وبايعنا نبينا وهو حيّ بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات؛ وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيّة، كان أفضل منّا. فقال جرجة: بالله، لقد صدقتني، ولم تخادعني؟ قال: تالله، لقد صدقتك، وإن الله وليّ ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جرجة الترس، ومال مع خالد، وقال علمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاطه، فشنّ عليه قربة من ماء، ثمّ صلى ركعتين وركب خالد، وركب جرجة معه»[1].

وقد خلّد التاريخ نماذج عديدة للحوار العقلاني بين المسلمين وأهل الكتاب في عهد الخلفاء الراشدين، ولا أدلّ على ذلك من العهدة العمرية التي تمّت بين عمر بن الخطاب وأهل إيلياء (القدس).

واستمر هذا النوع من الحوار في عهد الدولة الأموية، ففي إحدى المعارك وقع بعض المسلمين أسرى عند الروم، فجيء بهم إلى أمير رومي له معرفة وعلم بالعربية، وكان فيهم شيخ كبير دمشقي، اسمه واصل، فابتدأ الأمير الحوار بقوله: « الحمد لله الذّي كان قبل أن يكون سيء من خلقه، وخلق سبع سموات طباقا، بلا عون كان معه من خلقه، ودحى سبع أرضين بلا عون كان معه من خلقه، فعجب لكم يا معشر العرب حين تقولون: إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون. فقال الشيخ المسلم . بعد أن طلب الأمان إن هو تكلم، فأعطيه . : أما ما وصفت من صفة الله عزّ وجلّ فقد أحسنت الصفة، ولم يبلغ علمك ولم يستحكم عليه رأيك أكثر من هذا، والله عزّ وجلّ أعظم وأكبر مما وصفت، ولا يصف الواصفون صفته؛ وأما ما ذكرت من هذين الرجلين، فقد أسأت الصفة، ألم يكونا يأكلان الطعام، ويشربان الشراب، ويبولان، ويتغوطان، وينامان، ويستيقظان،

[1]. البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي،تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط 1، مصر، 1418هـ/ 1998مج 09 : 562.

ويفرحان، ويحزنان؟ قال الأمير: بلى. قال الشيخ: فلم فرّقت بينهما؟ قال الأمير: لأن عيسى كان له روحان اثنان؛ فروح يبرئ بها الأكمه والأبرص، وروح يعلم بها الغيب، ويعلم ما في قعر البحار، وما يتحات من ورق الشجر. فقال الشيخ المسلم: روحان اثنان في جسد واحد في جسد واحد؟ قال الأمير: نعم. فقال الشيخ المسلم: فهل كانت القوية تعرف موضع الضعيفة منها، أم لا؟ فقال الأمير: قاتلك الله، ماذا تريد أن تقول، إن قلتُ: إنها تعلم؟ وماذا تريد أن تقول، إن قلتُ إنها لا تعلم؟ قال الشيخ المسلم: إن قلتَ: إنّها تعلم؛ فما لهذه القوية لا تطرد عنه الآفات؟ وإن قلتَ إنها لا تعلم؛ قلتُ: كيف تعلم الغيوب، ولا تعلم روحا في محل واحد، وجسد واحد؟ فسكت الأمير.فقال الشيخ المسلم: بالله، هل عبدتم الصليب مثالا لعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ إنه صلب؟ قال الأمير: نعم. قال الشيخ المسلم: فبرضى منه أم بسخط؟ قال الأمير: هذه أخت تلك، ماذا تريد أن تقول: إن قلتُ: برضى منه؟ قال الشيخ المسلم: إن قلتَ برضى منه قلتُ: فما أنتم إلا قوم أعطوا ما سألوا وأرادوا. وإن قلتَ: بسخط، قلتُ: فلمَ تعبدون ما لا يمنع عن نفسه؟»[1].

أما في عهد الدولة العباسية فنعثر على نماذج لا حصر لها للحوار بين أتباع الديانات السماوية؛ من ذلك ما وقع في مجلس الخليفة المأمون، الذي عُرف عنه ثقافته العميقة، ودرايته بالفلسفة، وعلم الكلام، ويبدو أنه درس المسيحية، وتعمق فيها، وألمّ بمسائلها الكبرى، فكان أحيانا يستدعي بعض القسيسين من حرّان وأنطاكية، ويجمع بينهم علماء المسلمين، في حوارات عامة وخاصة، تدور موضوعاتها حول شخصية المسيح، وبعض القضايا الإسلامية والمسيحية.

ومن هذه الحوارات الحوار التالي، الذي جرى بحضور عدد كبير من العلماء والفقهاء وأهل الملل وأصحاب المعتقدات، جاء فيه: « قال الجاثليق[2]: كيف أحاج رجلا يحتج عليّ بكتاب

[1] . محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: محي الدين بن عربي 99/1 وما بعدها.

[2] . الجاثليق: مقدم الأساقفة عند بعض الطوائف المسيحية الشرقية وجمعه: جثالقة. المعجم الوسيط(170/1)

أنا منكره، ونبي لا أؤمن به؟ فقال له الرضا[1]: يا نصراني، فإن احتججتُ عليكَ بإنجيلكَ أتقر به؟قال الجاثليق:وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل؟ نعم، والله أقرّ به على رغم أنفي. فقال الرضا: سل عما بدا لك؟ وافهم الجواب. قال الجاثليق: ما تقول في نبوة عيسى وكتابه؟ وهل تنكر منهما شيئا؟ قال الرضا: أنا مقر بنبوة عيسى وكتابه، وما بشّر به أمته، وأقرت به (الحواريون). وكافر بنبوة كل عيسى لم يقر بنبوة محمد ﷺ وبكتابه، ولم يبشر به أمته. قال الجاثليق: أليس إنّما تقطع الأحكام بشاهدي عدل؟ قال: بلى. قال: فأقم شاهدين من غير أهل ملتك على نبوة محمد ﷺ ممن لا تنكره النصرانية، وسلنا مثل ذلك من غير أهل ملتنا. فذكر له الرضا اسم (يوحنا الديلمي) من أصحاب المسيح ـ عليه السلام ـ فقال الجاثليق: بخ بخ، ذكرت أحب النّاس إلى المسيح. قال الرضا: فأقسمت عليك هل نطق الإنجيل أن يوحنا، قال: إن المسيح أخبرني بدين محمد العربي، وبشّرني به، أنه يكون من بعده، فبشّرت به الحواريين فآمنوا به؟ قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المسيح، وبشّر بنبوة رجل، ولم يلخص متى يكون ذلك، ولم يسمّ لنا القوم فنعرفهم. ثمّ قرأ له الرضا من الإنجيل المقاطع التي ذكر فيها النبي ﷺ واستحلفه قائلاً: ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى بن مريم، فإن كذّبت موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ومتى أنكرت هذا الذكر وجب عليك القتل، لأنه تكون قد كفرت بربك ونبيك وكتابك. فأقرّ بذلك الجاثليق، ويبدو أن الاستدلال كان بالإنجيل الذي كان على عصر الرضا ثمّ حُرّف من بعده»[2].

ثمّ قال الرضا في موضع آخر:« يا نصراني والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد ﷺ وما ننقم من عيساكم شيئا إلاّ ضعفه، وقلة صيامه وصلاته. فقال الجاثليق: أفسدت ـ والله ـ علمك، وضعّفت أمرك، وما كنت ظنّنت إلاّ أنك اعلم أهل الإسلام. قال الرضا: وكيف ذلك؟ قال الجاثليق: من قولك: عن عيسى كان ضعيفا، قليل الصيام، قليل الصلاة، وما

[1] . توفي علي الرضا (203هـ/ 818م)، تاريخ الرسل والملوك (146/5)، (نقلا عن الحوار الإسلامي المسيحي لبسام داوود عجك: 186).

[2] . بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط 2، 1983، 10/ 301 (نقلا عن الحوار الإسلامي المسيحي لبسام داوود عجك: 186).

أفطر عيسى يوما قط، ولا نام بليل قط، وما زال صائم الدهر، قائم الليل. قال الرضا: فلمن كان يصوم ويصلي؟؟؟ فسكت الجاثليق»[1].

ثمّ قال الرضا: يا نصراني، أسألك عن مسألة. قال سل. قال الرضا: ما أنكرت أن عيسى كان يحي الموتى بإذن الله تعالى؟ قال الجاثليق: أنكرت ذلك من قبل، أن من أحي الموتى، أبرأ الأكمه والأبرص، فهو ربّ مستحق لأن يُعبد. قال الرضا: فإن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى، مشى على الماء، وأحي الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص؛ فلم تتخذه أمته ربا، ولم يعبده أحد من دون الله عزّ وجلّ. وأتى له بالأدلة من التوراة، فسكت الجاثليق»[2].

وامتد هذا النوع من الحوار على مختلف الحقب التاريخية، مشرقا ومغربا، وكتب التاريخ تحوي آلاف الشواهد على ذلك؛ ولكن درجة بروزه وتأثيره على المجتمع المسلم كانت تختلف باختلاف الظروف، السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها ...

[1]. بحار الأنوار 303/10 (نقلا عن الحوار الإسلامي المسيحي لبسام داوود عجك: 187)

[2]. بحار الأنوار 303/10 (نقلا عن الحوار الإسلامي المسيحي لبسام داوود عجك: 187)

4/ تاريخ العلاقة بين الديانات السماوية في الأندلس قبل الفتح الإسلامي:

اتفقت المصادر التاريخية على أن اليهود كانوا أول الوافدين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية من أتباع الديانات الإبراهيمية، لكنها اختلفت في تحديد طريقة وصولهم إليها وزمانه. فأوّل وصول يهودي إلى تلك البلاد تحدثت عنه المصادر الإسلامية، يعودُ إلى عهد الملك الأسباني إشبان، الذي تقول إنه شارك مع نبوخذ نصر[1] في دخول القدس سنة (586 ق.م)، ثم عاد إلى بلاده يحملُ معه مئة ألف أسير يهودي[2].

أما بعض المصادر اليهودية المؤرخة للعائلات الشهيرة في الأندلس فتقول: « إن أجدادهم جاءوا إليها أسرى مع إشبان في زمن التدمير الأول للهيكل، مثل عائلة المؤرخ اليهودي إبراهيم بن داود[3] في أليسانة[4]، والعائلات التي تنسب نفسها إلى النبي داود عليه السلام في إشبيلية مثل عائلة أبرابانيل.

---

[1]. نبوخذ نصر أو بختنصر أو بخترشاه: معناه نابو حامي الحدود، ونابو هو إله التجارة عند البابليين وهو ابن الإله مردوخ . هو أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، يعتبر نبوخذنصر أحد أقوى الملوك الذين حكموا بابل وبلاد ما بين النهرين، حيث جعل من الإمبراطورية الكلدانية البابلية أقوى الإمبراطوريات في عهده بعد أن خاض عدة حروب ضد الآشوريين والمصريين، كما أنه قام بإسقاط مدينة أورشليم (القدس) مرتين، الأولى في سنة 597 ق م، والثانية في سنة 587 ق م، إذ قام بسبي سكان أورشليم وأنهى حكم سلالة داود، .

[2]. المسالك والممالك (القسم الخاص بالأندلس وأوروبا)، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، تح: عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1968م: 109-111.

[3]. إبراهيم بن داود: هو المؤرخ اليهودي الوحيد الذي برز في الأندلس، وقد عاش من سنة (504-576هـ=1110-1180م)، وكتابه الوحيد الذي ألفه، واحتوى على جانب تاريخي كان بعنوان: (هكبالا) بمعنى "التصوف"، ولم يتناول فيه تاريخ الأندلس، بل ركز على تاريخ كتابة التلمود.

[4]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، خالد يونس عبد العزيز الخالدي، إشراف: خليل إبراهيم الكبيسي، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ جامعة بغداد، نوقشت عام 1999م، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، غزة، فلسطين، 1432هـ . 2011م: 29.

ويقول يهود غرناطة: «إن وجودهم فيها يرجع إلى زمن نبوخذ نصر وإشبان، وأنهم هم الذين سموها بهذا الاسم الذي يعني بالأسبانية القديمة "رُمانة"»[1].

أما التهجير اليهودي الثاني إلى تلك البلاد، فقد حدث في العهد الروماني، حين توجه القائد الروماني تيتوس فيسبسيان (TITUS VAS PASIAN) سنة 70م إلى القدس، لإخماد تمرد قام به اليهود هناك، وتمكن من قمع المتمردين، وإحراق رموزهم [2]، وأسر نحو ثلاثين ألفاً منهم، نقلهم بواسطة اثنتي عشرة سفينة إلى موانئ المغرب[3]، وكان للأندلس نصيب منهم، إذ ذكر مؤرخو مدينة ماردة أن يهودها استقبلوا إخوانهم الذين رُحِّلوا عن القدس بعد دمار الهيكل الثاني [4]، وقيل إن هؤلاء المرحلين كانوا من أبناء العائلات المهمة من سبطي بنيامين ويهوذا اللذين ينتسبان إلى داود عليه السلام[5].

أما التهجير اليهودي الثالث إلى أسبانيا، فقد قام به الإمبراطور الروماني هدريان (HDRIAN) سنة 136م، بعد أن قضى على تمرد اليهود في فلسطين، الذي قاده باركوكاب

---

[1]. المرجع السابق: 29.

[2]. تاريخ العالم، أوروسيوس الترجمة العربية القديمة، تقديم وتحقيق: عبد الرحمن البدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1982م: 179.

[3]. اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، مسعود الكواتي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009م: 18.

وذكر أيضاً أن عدد الأسرى اليهود كان ثلاث مئة ألف أسير. ينظر: م.ن:50. ويرى بعض المؤرخين أن رقم ثلاث مئة ألف، رقم مبالغ فيه جداً، فلا يُتصوّر أن يأسر تيتوس كل هذا العدد، لأنه سيسبب إرهاقاً لخزينة الدولة التي ستتكفل على الأقل بإطعامهم جميعاً. وما يدل على المبالغة، أن الرقم الآخر الذي ذكر لعدد الأسرى، كان عُشر الرقم الأول. والحقيقة أن الروايات التاريخية كثير اً ما تبالغ في تقدير الأرقام، وتكون بعيدة عن الدقة.

[4]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 37

[5]. المرجع نفسه: 37.

(BARCHOCHAB)، وقد نقل هدريان إلى الأندلس نحو خمسين ألف [1] عائلة يهودية من أجل استعبادهم [2]، ويقال إن هذا الإمبراطور من مواطني أسبانيا، وكان يكره اليهود كرهاً شديداً [3].

ومن خلال استقراء التاريخ، يبدو أنَّ العلاقات النصرانية اليهودية في أسبانيا حتى القرن الثالث الميلادي، كانت أفضل مما هي عليه في مناطق أخرى، أو أن النصارى هناك كانوا أضعف من مواجهة

اليهود والتصادم معهم، ولذلك لوحظت هجرة يهودية من شمال أفريقيا إلى أسبانيا خلال تلك المدَّة[4].

فمن أقدم الوثائق التي حفظها التاريخ، تلك الوثيقة التي تتحدث عن موقف نصارى الأندلس من يهودها، والتي حملت تلك القوانين الأربعة الصادرة عن مجلس إلبيرة ، الذي عُقِدَ من سنة (303–304م)، أي قبل أن يعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانيةَ ويجعلها الديانة الرسمية في البلاد، وقبل أن يحدث التحالف بين الكنيسة والسلطة الحاكمة.

ويتكون هذا المجلس من تسعة عشر أُسقفاً، وأربعة وعشرين رجل دين آخر (PRESBYTERS)، يتم اختيار الأساقفة من قرطبة وإشبيلية وطليطلة وطركونة والمدن

---

[1]. ويرى كذلك بعض المؤرخين أن هذا العدد مبالغ فيه أيضاً، لأن عدد أفراد خمسين ألف عائلة قد يزيد على ربع مليون نسمة، ولو ترك هؤلاء وحدهم يتكاثرون إلى زمن الفتح الإسلامي لأسبانيا لوصل عددهم إلى بضعة ملايين، إذ يكون قد مضى على استقرارهم هناك نحو ستة قرون، وهذا ما يتنافى مع المعلومات المتوفرة عن الوجود اليهودي في المدن الأسبانية زمن الفتح الإسلامي، والتي تعبر عنها مساحة أحيائهم.

[2]. الأندلس الذاهبة، دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، ضياء باشا، تعريب: عبد الرحمن إرشيدات، مراجعة وتحقيق: صلاح إرشيدات، عمان، 1989م، ج2 :406.

[3]. الأدب العبري القديم والوسيط، جلال أُلفت محمد، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس، 1978م: 129.

[4]. فجر الأندلس « دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية» حسين مؤنس، القاهرة، ط1، 1959م:521.

الأخرى التي يقطن فيها اليهود، وقد صدر عن هذا المجلس العديد من القوانين ضدَّ الوثنية في أسبانيا، وحول تنظيم الكنيسة والتبشير بالنصرانية[1]. أما القوانين الخاصة باليهود فهي:

القانون 16 ونصه: «لا يجوزُ تزويج الفتيات الكاثوليكيات لا لليهود ولا للكفرة، وذلك لضرورة عدم قيام أية علاقات بين المؤمن والكافر، وإنَّ الآباء الذين يخالفون هذا القانون سيتم طردهم من الكنيسة لمدَّة خمسة أعوام.

والقانون 49 ونصه: يجب تذكير مالكي الأراضي بعدم السماح لليهود بمباركة المحاصيل التي رزقهم الله بها، وذلك من أجل أن لا يقوم اليهود بإضعاف تأثير بركات الرهبنة النصرانية، وكل من يتجرأ على انتهاك هذا الحظر سوف يطرد من الكنيسة كلياً.

والقانون 50 ونصه: إذا قام أيُّ امرئ، سواء أكان من رجال الكنيسة، أم من بقية المؤمنين بتناول الطعام مع اليهود، فسوف يُحرم من رعايتنا الكنسية، إلى أن يقوم بالتكفير عن ذنبه، عسى أن يكون ذلك درساً له.

والقانون 78 ونصه: إذا اقترف مؤمنٌ متزَوجٌ إثم الزنا مع فتاةٍ يهوديةٍ أو وثنيةٍ، فسوف يتعرَّض إلى الطردِ من رعايتنا الكنسيَّة»[2].

وعند التأمُّلِ في هذه القوانين يتبيّنُ مدى العلاقة التي كانت تربط بين اليهود في أسبانيا وبقية السكان قبل اعتناقهم النصرانية، فقد تمكنوا من الهيمنة على عقول الكثير من المزارعين، مستغلِّين بساطتهم، وخواءهم الروحي، وخوفهم من الكوارث التي قد تصيب حقولهم، وأقنعوهم بقدرتهم على مباركة محاصيلهم وزيادتها، وربّما كانوا يتقاضون على عملهم هذا أجراً، والظاهر أنه قد ساعدهم على ذلك شعور السكان الوثنيين أمامهم بالنقص، إذ يفاخرون

[1]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 51

[2]. المرجع نفسه: 51، (نقلا من كتاب THE HISTORY OF THE JEWS OF SPAIN AND PORTUGAL LINDO,E.H., NEW YORK, 1970, P.11.).

كعادتهم، بأنهم أصحاب كتاب سماوي، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه [1]، وقد استمرَّت هذه العادة بعد دخول كثيرٍ من السكان في النصرانية، حيث أصبحت عادة متوارثة ليس من السَّهل تركها، وقد أقلقت رجال الدّين، لأنَّها تُقلّلُ الثقة بهم، وبدينهم، فأصدروا قانوناً يحرّمها، ويتوعَّدُ من يقترفها.

كما يتبين وجود علاقات اجتماعية بين يهود الأندلس وسكانها النصارى، حتى مطلع القرن الرابع الميلادي[2]، إذ كان بعض اليهود يتزوجون من نصرانيات، ويشاركون النصارى على موائد الطعام ويخالطونهم. ويدلُّ التشددُّ في العقوبات التي وضعها رجال الدين على تأصُّل وقِدَم هذه الممارسات، بحيث إنه لا يكفي النَّهي وحده لوقفها، ولابدَّ من وضع عقوبة زاجرة. ولعل سبب تأصُّلها، أنها سائدة في أسبانيا قبل دخول السكان في النصرانية.

عاش اليهود في أسبانيا، تحت سيادة ملوك القوط الأريوسيين (منذ دخولها سنة 409م، إلى أن تحول الملك ريكاردو إلى الكاثوليكية سنة 587م) لأكثر من قرن ونصف من الزمان، وتدلُّ المعلومات القليلة المتوفّرة عنهم في تلك المدَّة على تمتُّعِهم بمرحلة من التسامح والرخاء، مقارنة بأوضاعهم تحت حكم القوط الكاثوليك الذّي أعقب هذه المرحلة.

كان تحوّل الملك القوطي ريكارد و إلى الكاثوليكية سنة 587م[3]، حدثاً مؤَّثراً في تاريخِ أسبانيا، وانقلاباً مفاجئاً في حياة سكانها. إذ أجبر ريكارد و القوط على تغيير مذهبهم

---

1. ذكر معتقدهم هذا الذي يشاركهم فيه النصارى في قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)﴾ سورة المائدة: 18.

2. الموسوعة العبرية، م26: 381.

3. دولة القوط الغربيين، إبراهيم علي طرخان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م: 151.(يرى البعض أنَّ سبب تحوّله إلى الكاثوليكية هو اقتناعه بها، بينما يرى آخرون أن السبب هو اقتناعه بأنَّ اعتناقها وفرضها على جميع السكان هو أقصر طريقٍ لتوحيد البلاد).

الأريوسي إلى المذهب الكاثوليكي بعد نحو ثلاثة قرون من اعتناقه، وصار لرجال الدّين الكاثوليك ومجالسهم الكنسية سلطة تفوق في كثيرٍ من الأحيان سلطة الملك نفسه[1].

وصار تشدُّد الملك القوطي مع اليهود، من أهم أسبابِ حصوله على رضا ودعمِ رجال الكنيسة، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الملكِ قبل مبايعته ، أن يقسم أمامهم، بأنَّه سيُنَفِّذُ جميع القوانين السابقةِ الخاصَّة باليهود، وأنَّه سيواصِلُ التضييقَ عليهم[2].

ثم خلفهم سايزبوت (SISEBUT) سنة 612م، وبدأ عهده بتذكيرِ رجال الدّين وكبارٍ الموظَّفين بضرورة تطبيق قوانين ريكارد و الخاصَّة باليهود، ثمَّ أصدرَ مرسوماً خاصاً بعد شهورٍ قليلةٍ من ولايته، جاء فيه: « إنَّ الكفر اليهوديَّ الملعون، ينبغي ألاَّ يكون له تأثير على النَّصرانيةِ، لذلك نؤكّد على أنَّه ابتداءً من سنةِ حكمنا السعيدة الأولى، لن يُسمح لأي يهودي، باستخدامِ أو التسلط على أي نصراني، سواء أكان هذا النَّصْرانيُّ حُرَّاً أم عبداً، مستأجراً أم خاضعاً لرئاستهم، وأنَّ جميع النَّصارى الذين استُخدموا كعبيدٍ أو كخدمٍ لليهود، ينبغي نقلهم إلى سادةٍ نصارى أو تحريرهم، وسيعدم كلَّ يهوديّ قام بتهويدِ عبده النَّصراني، وتصادر أملاكه، وإذا رغب أحد أطفال الملعون في اعتناق العقيدة المقدَّسة، فسوف يُوَرّث عدداً من العبيد الذين يصادرون من والديه، كحصة له، وعموماً إذا تحول اليهودي إلى العقيدة المقدسة فسوف ترفع عنه كل القيود»[3].

---

[1]. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 1999م، ج11: 223.

[2]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 59(نقلا من كتاب: ELIYAHU ASHTOR, THE JEWS OF MOSLEM SPAIN (PHILADELPHIA, 1979, VOL.1, P.12;

[3]. المرجع السابق: 63 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS FROM THE ROMANEMPIRE TO THE, EARLY MEDIEVAL PERIOD, : (DUBNOV,SEMON,MARKOVICH ,(NEW YORK,1973)., VOL.2, P.509-510 .

ويذكر العذري سايزبوت، لكنه يسّميه ششغوط، ويتحدَّث عن تنصيره القسري لليهود، وعن العالم إيزيدور الإشبيلي الذي يسميه إشيذر العالم، حيث يقول:« وهو الذي ضمَّ اليهود إلى دين النصارى قسراً. وكان بصيراً بالكلام، عارفاً بالكتاب، وكان عصره عصر علوم، وأهله أهل تهمُّم، وفي أيامه كان إشيذر [إيزيدور] العالم بعلم الكتاب»[1].

لقد أصرَّ سايزبوت على تطبيق قوانينه الصَّارِمة، على الرَّغمِ من احتجاجاتِ القِدِّيس إيزيدور الإشبيلي[2].

وفي ختام مرسومه لم ينس سايزبوت أن يطلب من خلفائه في المستقبل أن يحذوا حذوه في القتال ضد الكفر، وحذر كل من ينتهك المرسوم بأن مصيره سيكون إلى الجحيم[3].

انتخب خنتيلا (KHINTILA) 636– 640م حسب قانون الانتخاب الذي شرعه مجلس طليطلة الرابع ؛ وبدأ الملك الجديد عهده بالتركيز على اضطهادِ الذين يظهرون النصرانية ويبطنون اليهودية، ودعا إلى عقد مجلس طليطلة الكنسي السادس، فالتأم سنة 638م وألقى خنتيلا خطاباً أمام المجتمعين، وعد فيه باستئصال الخيانةٍ والتحيُّز لليهود الذين يَدّعون النصرانية، وأعرب عن أمله بأن لا يبقى أيّ شخصٍ غير كاثوليكي في مملكته في الوقت المناسب، وقد أثار هذا الحرص على النصرانية والتشدُّد مع اليهود إعجاب رجال الدين في المجلس، ومنحوه لقب "الملك المسيحي"[4].

---

[1]. ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك. أحمد بن عمر بن أنس العذري، تح: عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م: 98.

[2]. فجر الأندلس، حسين مؤنس، دار العصر الحديث، دار المناهل، ط1، 2002م:521.

[3]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 63 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, , DUBNOV, VOL.2: , P.509-510).

[4]. المرجع السابق: 65 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2: , P.515.).

وأصدر المجتمعون في مجلس طليطلة السادس بخصوص اليهود القانون رقم 03، الذّي يؤكد على اعتماد القوانين الكنسية السابقة، وضرورة تطبيقها، ويضيف: « لقد قررنا بعد المشاورة، أنه في المستقبل يتوجب على كل من يحصل على السيادة الملكية وقبل ارتقائه العرش أن يقسم على عدم السماح لليهود بانتهاك حرمة هذا الدين المقدس، وأن لا يقبل إغواءهم تحت أي ظرف، فيحابيهم ويسكت عن خيانتهم، إه ـمالاً منه أو طمعاً »[1].

وأمام هذه التشريعات القاسية هجر عدد من اليهود أسبانيا، بينما تظاهر معظمهم بقبول النصرانية، وحاولوا أن يحصلوا على ثقةِ الملك ورجال الدين، فكتبوا إليهم تعُهداً رسمّياً، وعدوا فيه أن يكونوا نصارى طيبين، وأعلنوا أنَّهم يؤمنون بالله الواحد في الثالوث المقدَّس، وأنه بالرغم من ضلالهم مجدَّدَاً، إلا أنَّهم أدركوا الآن أن المسيح هو المخلِّص الذي بشَّرَت به التوراة، وبشَّرَ به الأنبياء، وبعد أن حرروا أنفسهم من شبكةِ الشيطان، فإنَّهم مستعدُّون مستقبلاً لطاعةِ قوانين وتعاليم الكنيسة، وبعد أن تنكروا لعاداتِ وخرافاتِ اليهود، مثل طقوس التطهير الروحي، فإنَّهم قد نفروا من الكنيست (الكنيس اليهودي) وعاشوا وارتبطوا مع النصارى، ماعدا في ما وجدوه مسيئاً لهم من خلال النفور الطبيعي، وليس التحيز الديني، ووعدوا بأن لا تكون لهم علاقات اجتماعية، أو تزاوجٍ مع اليهود، وأنهم مستعدون لتسليم المجلس جميع المؤلفات اليهودية، ومستعدون أيضاً لتسليم كل من ينتهك ما تعهدوا به في كتابهم، إلى المسئولين أو الأساقفة[2].

خلف خنداشفينتو (KHINDASVINTO) ولده ريثيسفنتو (RECESVINTO) (652–672م) حيث أوصى له والده بالعرش سنة 649م، مخالفاً تعليمات المجلس الكنسي

[1]. المرجع السابق: 65 (نقلا من كتاب THE JEWS OF SPAI, LINDO N, P.19.).

[2]. المرجع نفسه: 66 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.515.)

الرابع لطليطلة بأن ينتخب الملك انتخاباً، وقد أدَّى ذلك إلى غضب النبلاء، وقيام بعض الثورات والاضطرابات في عهده[1].

وقد واصل ريثيسفنتو اضطهاد اليهود والمنصرين المنافقين خلال عهده الطويل، وقد عبرَّ عن سياسته تجاههم في خطابه الذي ألقاه أمام أعضاء المجلس الكنسي الثامن في طليطلة، المنعقد في ديسمبر سنة 653م، والذي قال فيه: «إنَّي أرغبُ في إخباركم عن حياة وعادات اليهود، لأني أدرى بالبلاد التي أحكمها، المدَنَّسة بهذه الآفة، ففي الوقت الذي استأصل فيه الله الجبار جميع أنواع الهرطقة من بلادنا، لم تبْقَ سوى هذه الفئة التي يمكن تصحيحها إما بالثَّباتِ على تقوانا أو بالانتقام»[2].

ونتيجة لهذا الخطاب أكد المجلس الكنسي الثامن على جميع القوانين الصارمة للمجلس الكنسي الرابع ضد النصارى المزيّفين، وقدّم اليهود المنصّرون إلى الملك التماساً أعلنوا فيه عن خضوعهم إلى الكنيسة، وقد قام بكتابته أحد يهود طليطلة المنصرين حديثاً، واسمه أغوير (AGUIRRE)[3].

وفي ما يأتي النص الكامل لهذا الالتماس: « إلى سيدنا الرحيم، والمبجل الملك ريكسفينثوس، نحن الموقعون أدناه، من كل يهود طليطلة، نتقدم إليك بالتحية. نحن نذكر أنه في الأوقات السالفة، وبأمر من الملك خنتيلا، تعهدنا بصدق كتابياً، بأننا سنعتنق الدين النصراني ونطبق شعائره، ولكن آثام وضلالات آبائنا تقف حائلاً دون إيماننا المخلص بربنا يسوع المسيح [كذا]، وممارسة شعائر النصرانية، ولهذا السبب فإننا الآن وبكامل إرادتنا

---

[1]. المرجع السابق: 67 (نقلا من كتاب THE JEWS OF SPAIN,LINDO:19)

[2]. المرجع نفسه: 67 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.516.)

[3]. المرجع نفسه: 67 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.516.).

ورغبتنا، نعلن لسموّكم بأننا مسؤولون عن أنفسنا وزوجاتنا وأبنائنا، وأننا من الآن فصاعداً، لن نمارس أية عادة يهودية، ولن نرتبط بأي شكل كان مع اليهود الرافضين للهداية، ولن نتزوج من أقربائنا من الدرجة السادسة، ولن نقترف إثم الزنا مع أي امرأة من عوائلنا، وأنه من الآن فصاعداً، سنتزوج نحن وأبناؤنا وذرياتنا من الإناث والذكور من النصارى. وأننا لن نختتن، أو نقيم عيداً للفصحِ أو أيٍّ من الأعياد الأخرى، ولن نمتنع عن تناول اللحوم وفقاً للعادة اليهودية، ولن نحيي ونفعل مثلما يحيون ويفعلون، لكننا وبكل الإيمان المخلص والتقوى والرغبة، نعلن عن إيماننا بالمسيح ابن الرب الحي [كذا]، كما علمنا الرسل والمبشرون الذين نعترف بهم ونقدّسهم. وسوف نعتنق جميعاً وبإخلاص الدين النصراني المقدَّس، وسنمارس شعائره في الأعيادِ والزواجِ والطعامِ وكل العادات الأخرى دون أي تردد أو تحفّظ، أو أي سبب يحول دون تحقيق وعدنا لكم. أما عن لحم الخنزير، فإننا نتعّهدُ أنه على الرغم من عدم اعتيادنا على تناوله، فإننا ودون اعتراض أو تردد سنأكل أي شيء يمزج أو يطبخ معه، ولو تمَّ اتهام أيٍّ منا بخرق المذكور أعلاه، أو فعل أي شيء يتنافى مع الدين النصراني، سواء بالقول أو الفعل، أو التهاون في أداء ما تعهدنا به، فإننا نقسم باسم الأب والابن وروح القدس، الذين هم رب ثالوث واحد [كذا]، بأننا سنرجمُ بالحجارة، ونحرق كل من يبلغنا عنه القيام بخرق لأي مما ذكر أعلاه. وإذا ما رغب سموّكم العطوف بالإبقاء على حياته فإنه سيصبح عبداً على الفور، ولكم أن تمنحوه لمن تشاءون مع كُلّ أملاكه، وأن تفعلوا به وبأملاكه ما ترونه ملائماً، ليس فقط من منطلق السلطة التي تمتلكونها كملك للبلد، ولكن بموافقتنا بالفعل والقول، التي نقدّمها لكم عن طيب خاطرٍ، بتاريخ الثاني عشر من غُرّةِ شهر آذار في العام السادس من حكمكم سنة 655م»[1].

وصل إلى العرش بعد موت ريثيسفنتو سنة 672م وامبا (VAMBO)، الذي بدأ حكمه بالقسم الذي يتضمن فقرة تحتم عليه التضييق على اليهود، وأمر بطرد جميع اليهود غير

[1]. المرجع السابق: 69 (نقلا من الكتب التالية: THE JEWS OF SPAIN, LINDO, P.34- , 35;

ينظر:; HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL. 2, P.517 ,

المنصَّرين من البلاد، ونُفَذّ القانون بحزم، فتوجَّه الرافضون للتعميد إلى أفريقيا والبرانس وناربونه[1].

وحدث تمرُّدُ على وامبا قاده هيلدرخ حاكم مدينة نيم، وقام يهود نربونه بتقديم المساعدة للمتمردين، الذين زادت قوتهم عندما انضمَّ إليهم القائد الذي أرسله وامبا لقمعهم. لكنَّ وامبا تمكن من القضاء عليهم بعد سنةٍ من القتال، وعاقب اليهود بطردهم من نربونه[2].

تمكَّن أرفيخيو (ERVIGIO) من الوصول إلى العرش وإزاحة وامبا سنة 680م[3]، ودعا سنة 681م إلى عقد مجلس طليطلة الكنسي الثاني عشر، لكي يُبارك رجال الدين منصبه الذي اغتصبه من وامبا، فعقد المجلس برئاسة جِليانوس (JULIANUS) اليهودي المرتد، وكبير أساقفة طليطلة، وكان صديقاً حميماً للملكِ، ومحرضاً له على اليهود[4].

ولقد أظهر أرفيخيو في هذا المجلس حماساً شديداً ضدَّ اليهود، وذلك في ما يبدو من أجل كسب رضا رجال الدين، حيث وقف أمامهم خطيباً، وقال: «انهضوا، أتوسل إليكم أن تنهضوا، وفرّقوا شبكة الكافر، وصَحِّحوا عادات الآثمين، وأظهروا حماسكم ضِدَّ الخونة، والأهمُّ من ذلك، استأصلوا جذورَ الآفةِ اليهودية»[5].

---

[1]. أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، محمد عبده حتامله، عمان، الأردن، 1416هـ. 1996م: 248.

[2]. اليهود في الدولة العربية في الأندلس : 71 (نقلا من كتاب . HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV VOL.2, P.519-520.)

[3]. أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، محمد عبده حتامله: 248.

[4]. اليهود في الدولة العربية في الأندلس: 71 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.523.)

[5]. المرجع نفسه : 71 (نقلا من كتاب .IBID, VOL.2, P.520)

ورجا الملك أعضاء المجلس أن يدرسوا بجدية التشريعات الَّتي أعدَّها ضِدَّ كفر اليهود، وحذَّرهم من التَّساهُلِ مع اليهودية، حتى لا يكونوا مسؤولين أمام الله عن آثامِ هذه الأُمَّة[1].

انتهى عهد إيرفيخيو، فخلفه إجيكا (EGICA) سنة 687م[2]، وعقد المجلس الكنسي الخامس عشر في طليطلة سنة 688م، ولم يصدُرْ عنه أيُّ ذكرٍ لليهود[3].

وفي سنة 693م تمَّ عقد مجلس طليطلة الكنسي السادس عشر، وقد ناقش المجلس مدى فاعلية القوانين السابقة ضد اليهود، فتبيَّنَ له عقمها، إذ ظلَّ معظم اليهود المنصَّرين يكتمون يهوديتهم، ويمارسونها سراً، ويورثونها لأبنائهم، وقد دفع ذلك إجيكا أن يجرب مع اليهود نوعاً من الترغيب، فخفّفَ كثيراً من القيودِ عن المنصَّرين، وأعطى الذين يُظهرون صدقاً والتزاماً بالنّصرانية الكثير من الامتيازات، بينما أبقى القوانين الخاصّة باليهود، ولكن يمكن القول أنَّ إجيكا أيضاً انضمَّ إلى قافلة الفاشلين في تنصير يهود أسبانيا، إذ ظلَّ معظم اليهود على دينهم، بين مُعْلِنٍ لليَهودِية ومبطنٍ لها، ولم يستفِدْ من إغراءات إجيكا إلاّ اليهود الذين أجادوا تمثيل دور النّصراني الصادق الملتزم[4].

وظلَّ اليهود يعيشون هذا الوضع المحتمل نسبيّاً إلى أن انعقد المجلس الكنسي السابع عشر في طليطلة سنة (694م)، وأعلن إجيكا أمام أعضائه أنَّه على الرغم من أفضاله على اليهود، ووعوده الكثيرة إذا أخلصوا للنّصرانية، إلا أنّهم قابلوا ذلك بالجحود حيث قال:« علمنا مؤخّراً

---

[1]. المرجع السابق : 71 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2 .(VOL.2, P.520.

[2]. المرجع نفسه: 72 (نقلا من كتاب .THE JEWS OF SPAIN, LINDO, P.23)

[3]. المرجع نفسه: 72 (نقلا من كتاب .IBID, P.23- 25)

[4]. اليهود في الدولة العربية في الأندلس : 73 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.526.)

من شهودٍ موثوقين أن اليهود دخلوا في مفاوضات مع يهود أجانب في البلاد التي وراء البحر لغرض التقدُّم نحو الشعب النصراني»[1].

لقد كان هذا الإعلان الكارثة الكبرى التي حلت باليهود في أسبانيا، فعلى إثره أعلن المجلس في (9–11–694م) ، وبمصادقة الملك، القانون الثامن الذي يقضي باستعباد جميع يهود الأندلس، بم ن فيهم المنصَرّين المنافقين، ومصادرة جميع ممتلكاتهم، ويلزم أسيادهم النصَارى بمراقبتهم، ومنعهم من ممارسة طقوسهم، كما يقضي بانتزاع أطفالهم منهم، إذا بلغوا سن السّابعة، وتوزيعهم على عائلات نصرانية ليتنصروا في أحضانها، ويُزوّجوا عندما يكبرو ن من النَّصارى[2].

ويرى بعض المؤرخين أن القانون قد نُفذ، لأن إجيكا عاش بعد إصداره نحو سبع سنوات، وعندما توفي سنة (82هـ=701م)، وخلفه ولده غيطشة (WITIZA)، أوقف كثيراً من القيود المفروضة على اليهود، وسمح لهم بالعودة إلى أسبانيا، واستمرَّ حكمه إلى أن قتل سنة (90هـ=709م)، وتمكن لذريق (LODRIGO) من الوصول إلى العرش، وظل يصارع منافسيه على الحكم، إلى أن جاء الفتح الإسلامي سنة (92هـ=711م)، فصرعه، وصرع معه كلَّ عهود الظّلمِ والظلماتِ التي خيّمت على أسبانيا قروناً طويلة من الزّمان[3].

خضعت الأندلس للحكم القوطي ما يزيد عن ثلاثة قرون، إلا أنهم ظلّوا أشبه بالغرباء، إذ لم يتم اندماجهم في شعب شبه الجزيرة الذّي كان مصطبغا بالصبغة الرومانية، ولم يكن حكمهم يخلو من مظالم متمثلة في الضرائب الباهظة والاضطهادات الدينية للطوائف

---

[1]. المرجع السابق: 73 (نقلا من كتاب HISTORY OF THE JEWS, DUBNOV, VOL.2, P.526.).

[2]. أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، محمد عبده حتامله: 253.

[3]. المرجع السابق:253 – 254.

المسيحية المخالفة ولليهود[1]. ولهذا فإن شعب شبه الجزيرة لم يبد أي مقاومة تذكر لجنود طارق بن زياد وموسى بن نصير، بل اعتبروا الفتح الإسلامي مخلّصا لهم من حكم ملوك القوط، ولا أدل على ذلك أن عدّة آلاف من الفاتحين المسلمين استطاعوا أن يستولوا في غضون سنتين فقط على قطر هائل الاتساع مثل شبه جزيرة إيبيريا، وَهبَتهُ الطبيعة من تضاريسه الطبيعية ما يمكنه من مقاومة الغزاة مهما كانت كثرتهم.

كما يجدر أن نشير إلى أنه لم تكن بلاد الأندلس زمن القوط كلها مسيحية، بل كانت فيها طوائف أخرى من اليهود والوثنيين، وكانت أبعد ما تكون عن التسامح الديني [2]، فضلا عن فتحهم لباب الحوار بين أتباع تلك الأديان.

5/ تاريخ العلاقة بين الديانات السماوية بعد الفتح الإسلامي:

استطاع المسلمون فتح بلاد الأندلس سنة 92هـ/711م، مبشرين برسالة التوحيد التي تؤمن بجميع الأنبياء والرسل، وتعلن الإسلام خالدا وخاتما للرسالات السماوية، مرتكزة على مبدأ زرع الأخوة والتسامح بين بني البشر.

كان المجتمع الأندلسي في هذه الفترة عبارة عن خليط من أجناس مختلفة؛ العرب الذين دخلوا الأندلس فاتحين أو هاجروا إليها بعد الفتح، والأمازيغ الذين شاركوا في الفتح أو نزحوا من الشمال الإفريقي، فضلا عن سكان الأندلس الأصليين من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام، أو بقوا على أديانهم كالمسيحية واليهودية، ولم يمنع ذلك كل فئات المجتمع الأندلسي

[1] . التسامح الإسلامي، محمود علي مكي، الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات . ندوة 1 . ، ط1، 2003م : 62

[2] . مجلة العربي، الأندلس صفحات مشرقة، الطاهر أحمد مكي، سلسلة كتاب العربي: 58، الكويت، ط1، 2004: 1

من الاندماج في هذه الفترة، مما أسهم في بناء حضارة متميّزة، لا يزال العالم يلهج بذكر ما بلغته من رقيّ وتسامح وتعايش بين مختلف الأجناس.

وحين نتأمل التسامح الذي عاشه الأندلسيون، نجد أن هذه البلاد كانت مجالا رحبا لممارسته، إن لم نقل مجالا يفرض هذه الممارسة، على نحو يكاد لتفرده وتميزه أن يكون مثاليا؛ فقد «هيأت الحضارة الأندلسية منذ مراحلها الأولى، الإطار الأنسب للتفاعل الحضاري الإيجابي؛ فقد اندمج اليهود والنصارى في جوّ من الحريّة والسماحة وتكافؤ الفرص، ... يتعلمون ويتثاقفون ويسهمون في البناء دون عائق أو عقدة، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين منهم يحظون بالمكانة العلية، ويتقلدون مناصب عليا في الإدارة والسياسة»[1].

ولعل أبرز مثال على ذلك، ما وقع من زواج مختلط كان له أكبر الأثر في صهر المجتمع في بوتقة اندماجية، لا فرق فيها بين الذين أسلموا من السكان المحليين، أو من ظلّوا على عقيدتهم، بكل ما يترتب عن هذا التداخل من تواصل عبر الأعراف والعادات والتقاليد، وقبل ذلك عبر اللغة والثقافة العامة.

فالأندلس بعد أن كانت ميدانا للصراع العسكري والسياسي بين المسلمين والمسيحيين، أضحت ميدانا للتعايش بين مختلف الملل والنحل، ولعل أبرز مثال ظهر لأول الأمر تمثل في المستعربين "los mozarabes" المسيحيين الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية إبان قوة الدولة الإسلامية، ثمّ المدجنين " los mudejares " المسلمين الذين درجت حياتهم تحت السيادة المسيحية، منذ أن تغيّر ميزان القوّة في شبه الجزيرة.

وكثيرا ما اتخذ الصراع بين المسلمين والمسيحيين واليهود صيغا من الحوار بين علماء الجانبين، وهو حوار استعان كل فريق بالأدلة الفكرية الممكنة وأولها معرفة لغة الآخر، والتعمق في دراسة عقيدته ومعرفة مقومات فكره. فنجد من بين المستعربين من كانوا يجيدون العربية

[1]. ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية، بومدين كروم، أعمال ملتقى الحضارة الإسلامية في الأندلس في القرن 6هـ / 12م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 1428هـ. 2007م، ج1: 22.

نظما ونثرا، ولعلّ شكوى أسقف قرطبة ألفارو [1] خير معبّر عن مدى إقبال الإسبان على الثقافة الإسلامية؛ إذ يقول: « إنّ إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتنفيذها بل لتعلّم أسلوب عربي بليغ.

وا أسفاه إنني لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية، أو الإنجيل، بل إن الشباب المسيحي الذي يمتاز بمواهب فائقة أصبح لا يعرف علما ولا أدبا ولا لغة إلا العربية. ذلك أنه يُقبل على كتب العرب في نهم وشغف ويجمع منها مكتبات ضخمة تكلفه الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقر فيه الكتب المسيحية وينبذها »[2]. وتباكى هذا الأسقف على الشباب النصراني الذي إذا سئل عن الكتب النصرانية أجاب باحتقار أنها غير جديرة أن يصرفوا إليها انتباههم [3]. وتحسر قائلا:« يا للألم لقد أنسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنّك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»[4]. ويصدّق هذه الشهادة اتخاذ الأمير محمد بن عبد الرحمن كاتبا نصرانيا له، هو قومس بن أنتنيان وإن كان قد اعتنق الإسلام بعد ذلك[5]؛ وهو الذّي يصفه ابن حيان القرطبي بأنه: « كان قريع كل من ينتحل البلاغة في عصره»[6].

---

[1] .كاتب نصراني متعصب عاش في القرن التاسع الميلادي.

[2] . أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية: محمد صالح منصور، الناشر جامعة قاريونس، 1996م: 62.

[3] . التحول اللغوي في الأندلس عوامل الانتشار والانحسار: محمد أحمد عمايرة، مجلة الدراسات الإسلامية مجمع البحوث الإسلامية . مجمع البحوث الإسلامية . الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد ، باكستان، م26،العددان 1 و 2 ، 1412 هـ . 1991م: 213 إلى 214. (نقلا عن كتاب الجدل الديني في الأندلس: 74).

[4] . المرجع نفسه: 214.

[5] . المقتبس من أبناء الأندلس، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، تح: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1973: 138.

[6] . المصدر نفسه: 142.

أمّا معرفة المسلمين بلغة مساكنيهم من المسيحيين فهي بدورها حقيقة لا تحتاج إلى أن نأتي عليها بشواهد، غير أن الذي يهمنا في هذا المقام ليس مجرد معرفة لغة الكلام أو التعامل اليومي، وإنما تلك المعرفة التي تسمح لكل فريق بالتعمق في الإطلاع على عقيدة الآخر وإقامة حوار معه يتسم بقدر من الموضوعية وإن كان يتفاوت في الحدّة وعلوّ الصوت.

كما نعثر في كتب التاريخ على قصة لراهب نصراني من أصل ألماني يدعى بودو عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وقد ارتقى في المناصب الكنسية حتى صار كاهناً في بلاط الملك الأسباني لويس التقي، ثم تشكك في عقيدته، والتقى بعدد من التجار اليهود الذين كانوا يترددون على بلاط الملك، واقتنع بدينهم، وعندما قرر اعتناق اليهودية، احتال على الملك، وتوجه إلى الأندلس، وفي احتفال ديني لليهود في سرقسطة سنة (224هـ=838م) أعلن عن اعتناقه اليهودية، وتسمى أليعازر، وتزوج يهودية من سرقسطة. وقد أزعج ذلك الحدث النصارى في الأندلس وغيرها، وزاد من شوكة اليهود عليهم. وخاض بودو صراعاً فكرياً عنيفاً ضد النصارى، وأرسل إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط يطالبه أن يكره النصارى في بلاده على الإسلام أو اليهودية، وأن يعاقب بالموت النصارى الذين يرفضون ذلك. وفي سنة (233هـ=847م) أرسل نصارى الأندلس رسالة إلى إمبراطور فرنسا، وإلى الأساقفة في مملكته يطالبونه، أن يطالب أمير قرطبة بتسليم بودو له [1]. على أن في توجه بودو إلى الأندلس لإعلان يهوديته، وفي تجرئه على مطالبة الأمير عبد الرحمن الأوسط بتهويد النصارى، وفي المناظرات الفكرية والدينية بينهم وبين اليهود، مؤشراً على علاقة حسنة لليهود بالسلطة، وعلى حرية دينية وفكرية منحتها السلطة الإسلامية في العهد الأموي لليهود.

ومن تسامح المسلمين وقبولهم لمبدأ التعايش مع الآخر، وضع نظام قضائي للمستعربين في

[1]. اليهود في الدولة العربية في الأندلس : 178 (نقلا من كتاب THE JEWS, ASHTOR, VOL.1, P.80.).

الأندلس مستقل عن القضاء الإسلامي، رأسه يسمى " قاضي العجم " وهو الذي يتولى الفصل في المنازعات بين أهل ملته[1].

كما ظهرت بين نصارى الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط (206-238 هـ= 822-853م) حركة غريبة ؛ حيث قام عدد من الرهبان والنصارى المتحمسين بشتم الإسلام وسب الرسول –محمد ﷺ – وذلك على أبواب المساجد وفي أوقات الصلاة.

وقد تعرض من يفعل ذلك للجلد أو القتل، لكن ذلك لم يردعهم، واستمروا في ممارساتهم، فأُطلق عليهم "المنتحرون". وكان معظم نصارى الأندلس يرفضون تصرفات هؤلاء المنتحرين ويستنكرونها، وقام عدد من الأساقفة بدعوةٍ من عبد الرحمن الأوسط بعقد مؤتمر في قرطبة سنة (238هـ=852م) لمعالجة هذا الموضوع، وقرروا فيه رفض هذه الأعمال [2]. لكن هذه الأعمال تواصلت في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ=852-886م) فتعامل مع الذين يمارسونها بحزم، وتمكن من القبض على قائد الحركة إيلوغيوس (EULOGIUS) وقتله، وقد أضعف ذلك أتباعه، إلى أن قضي على حركتهم تماماً[3].

وفي أثناء معالجة النصارى المعتدلين لهذا الموضوع، ولموضوعات عقدية أخرى، عقدوا مؤتمراً آخر في قرطبة تحت قيادة سيرفاندو (SERVANDO)، رئيس طائفة النصارى في قرطبة، و هوستجيسيس (HOSTEGESIS) أسقف مالقه، وذلك سنة(249هـ= 863م) وقد حضر هذا المؤتمر عدد من علماء المسلمين واليهود[4].

---

[1]. التسامح الإسلامي: الأندلس نموذجا، محمود علي مكي، أعمال ملتقى الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، المغرب، ط1، 2003م، ندوة 1: 67.

[2]. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، دار المنارة، بيروت، ط3، 1407هـ . 1987م: 242-243 .

[3]. دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية الناصر، محمد عبد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1417هـ . 1997م: 272.

[4]. في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 180 (نقلا من الكتب: THE JEWS, ASHTOR, VOL.1, P.92.

ولاشك أن مشاركة اليهود في مؤتمر كنسي خاص بالنصارى لمعالجة موضوع يهم السلطة الإسلامية، يدل على ثقة هذه السلطة باليهود، ويؤكد على علاقتها الحسنة بهم.

ويعلق المؤرخ اليهودي آشتور على هذه المشاركة بقوله: « ودارت الدنيا، ففي المؤتمر نفسه الذّي شرّع في السابق تشريعات مضطهدة لليهود، يجلس الآن فيه في منتصف القرن التاسع الميلادي يهود، ويتخذون قرارات حول صحة التعاليم النصرانية، وما هو مطلوب لرفاهية الكنيسة»[1].

أما الطائفة اليهودية فلم يختلف وضعها عن وضع المستعربين النصارى، فقد تعربوا لغة وثقافة، واندمجوا في المجتمع الإسلامي خلال عصر الإمارة والخلافة، وأُفسح لهم مجال الترقي في المناصب، فكان منهم كتاب ووزراء وأطباء وسفراء، وكان لهم تنظيمهم الخاص الذي بسطت الدولة عليه حمايتها، فسمحت لهم بممارسة شعائرهم في بيعهم، كما كان لهم نظامهم القضائي المستقل الذي يرأسه ربانيوهم، وكان قضاتهم ينظرون فيما ينشب من نزاع بين أفراد طائفتهم. غير أن بعضهم كانوا أكثر ثقة في القضاء الإسلامي منهم في قضاتهم، فكانوا يطلبون عرض نزاعاتهم على قضاة المسلمين؛ وهناك نوازل احتفظ لنا بها الونشريسي في كتاب المعيار المعرب تقوم شواهد على ذلك.

ومن تسامح المسلمين مع أهل الكتاب، اعتماد بعض الخلفاء الأمويين في الأندلس على اليهود في تأدية أعمال ومهمات لصالح الدولة، ومن ذلك قيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300-350هـ=912-961م) بتقريب يهودي اسمه حسداي بن شبروط. وقد بدأ ابن شبروط عمله في بلاط الخليفة طبيباً في حدود سنة (329هـ=940م)، ثم وضعه

[1]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 180 (نقلا من كتاب THE JEWS, ASHTOR, VOL.1, P.91-92.)

الخليفة الناصر على رأس إدارة مالية، وهي في ما يبدو الإدارة التي تعرف الآن بالجمارك[1]، وقد اعتمد الخليفة الناصر على حسداي في عدّة مفاوضات مع ملوك النصارى بسبب حنكته التي يعبر عنها ابن حيان بقوله: «فرمى العلج رذمير بحسداي هذا، وهو واحد العصر، الذي لا يعدل به خادم مَلِك، في الأدب وسعة الحيلة، ولطف المدخل وحسن الولوج»[2].

وقد استفاد هذا اليهودي من جوّ التسامح الذي ساد الأندلس، فبلغ إنعامه على اليهود حتى من خارج الأندلس، فعندما انهارت مدرستا سورا(*) وبومبيديتا(**) اليهوديتان في العراق، انتقل المركز الثقافي والديني اليهودي إلى الأندلس، فتوالت الرسائل من رؤساء وأحبار يهود العراق إلى حسداي بن شبروط، يستغيثون به، ويتوسلون إليه بطريقة مهينة، لكي يرسل إليهم دعماً مادياً يسد حاجة المعلمين في هاتين المدرستين، إذ أصابهم الفقر والجوع بعد انقطاع المعونات التي ترسل إليهم من يهود الأندلس والعالم[3].

ولم يقصِّر حسداي في إرسال الأموال إلى أحبار العراق، فجازاه أحبار مدرسة بومبيديتا بمنحه لقب ريش كالا (RESH KALLA) أي رأس العرش، وهو لقب عظيم عندهم لا

---

[1]. اليهود في المغرب، مسعود الكواتي: 205.

[2]. المقتبس، ج 5: 466

(*) مدرسة سورا: تأسست هذه المدرسة سنة 219 ق.م في مدينة سورا، التي تقع في بابل، بالقرب من نهر الفرات، وكان أشهر أساتذتها في العصر الإسلامي هو الجاؤون سعديا (ت:331هـ=942م)، وقد ضعفت هذه المدرسة ثم أغلقت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

(**) مدرسة بومبيديتا: تأسست نحو عام (260 ق.م) في مدينة بومبيديتا الواقعة في بابل، بالقرب من نهر الفرات، وهي متخصصة في الدراسات اليهودية الدينية، واستمرت إلى العصر الإسلامي، وكان آخر رؤساء هذه المدرسة هما الجاؤون شعريرا، ومن بعده ابنه حي، وقد أغلقت المدرسة بوفاة حي (سنة 340هـ=1038م).

[3]. في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 191 (نقلا من كتاب: ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.237-239.)

يمنحونه إلا لصاحب فضل كبير وعلم غزير [1]. وفي سماح الناصر لحسداي بالاستفادة من منصبه في خدمة اليهود خارج الأندلس دليل على التسامح الذي لقيه يهود الأندلس من السلطة الإسلامية في العهد الأموي.

وقد تدفق المبرزون من المثقفين اليهود إلى مجلس حسداي، فوجدوا لديه التشجيع المادي والمعنوي، وقد أثر ذلك بمرور الوقت في الثقافة اليهودية، التي نمت وتطورت، ومهدت لظهور العصر الذي سماه اليهود العصر الذهبي للثقافة اليهودية[2].

وقد استمر جوّ التسامح مع طائفتي المسيحيين واليهود خلال عصر الطوائف، فتولى كثير من المنتمين إلى هاتين الطائفتين أعلى المناصب في بلاطات ملوك الطوائف، نذكر منهم النصراني ششنندو (sisnando) مستشار المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وأسرة بني حسداي اليهودية التي ولي أفرادها مناصب الكتابة في بلاط بني هود ملوك سرقسطة، وإسماعيل بن النغريلة وابنه يوسف وزيري باديس بن حبوس ملك غرناطة، وقد أجمعت المصادر الإسلامية على المكانة الرفيعة التي بلغها إسماعيل في عهد حبوس، وعلى أنه كان وزيراً مفوضاً متصرفاً في شؤون الدولة، وليس مجرد وزير تنفيذي، أو كاتب يحمل لقب وزير فقط، فقد قال عنه ابن عذاري: « وقد أصبح هذا اليهودي لحبوس على وزرائه، وكتابته، وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة»[3]. وقال عنه ابن خلدون:« واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب

---

[1]. في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 191 (نقلا من كتاب: ASHTOR, THE JEWS, VOL.1,. P.240.),

[2]. طبقات الأمم، أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912: 89.

[3]. البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، أبو عبد الله محمد المراكشي بن عذاري، تح: ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ج3: 264.

أبيه إسماعيل بن نغزلة»[1]؛ وتحدث ابن بسام الشنتريني عن سلطته في عهد حبوس فق ال:« قد نصبه مكانه من السلطان غيظاً للأحرار »[2]. وقال في موضع آخر: « وأما ما بلغ من المنزلة عند صاحبه وغلبته عليه فما لا شيء فوقه»[3].

أما في العهد المرابطي فيروي ابن عذاري أن مجموعة من مستعربي غرناطة ذهبت إلى بلاط الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين لتقديم شكوى حول التعسف والجور الذي تعرضت له من قبل عامل المدينة المسمى عمر بن يناله، فلما ثبت للأمير حجتهم أمر بسجنه[4]، وأنصف المستعربين على الرغم من الجوّ المشحون آنذاك بين المرابطين والنصارى.

أمّا في عهد الموحدين فاشتهر عدد من الكتاب اليهود، أمثال يوسف زبارا الأندلسي (ت: 597هـ=1200م) وهو صاحب كتاب "البهجة والسرور"[5]، ولو أنهم أكرهوا على الإسلام كما تتحدث بعض مصادرهم، لما لمعت أسماؤهم كيهود، ولما مارسوا نشاطهم الفكري فيها. كما مارس الأحبار اليهود تعليمهم الديني في زمن الموحدين، فقد ذُكر أن موسى بن ميمون قد تتلمذ في مدينة فاس عاصمة الموحدين يهوذا الكاهن[6].

---

[1]. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م، ج4: 160-161.

[2]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1399هـ. 1979م، 4ق1، م2: 766.

[3]. المصدر نفسه: ق1/ م2: 767.

[4]. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4: 77

[5]. الأثر العربي في الفكر اليهودي، إبراهيم موسى هنداوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م: 120

[6]. اليهود في الأندلس، عبد المجيد محمد بحر، الهيئة العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1970: 88-89.

وبعد قيام دولة بني الأحمر، تعامل حكامها مع اليهود وفق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة، فأعطوهم حقوقهم كاملةً، وألزموهم بكل ما عليهم من واجبات، من غير تشدد أو تفريط. ويبدو أنهم أفادوا من تجارب الحكومات الإسلامية السابقة في الأندلس، والتي تظهر أن المبالغة في التساهل معهم تضر بهم وبالمسلمين، وأن المبالغة في التشدّد معهم تحقق أيضاً النتيجة نفسها، وأن الحل هو فقط في اتباع السياسة التي رسمتها شريعة الإسلام. و هذا ما انعكس إيجابا على اليهود؛ فبلغ بعضهم مراتب عليا كالطبيب يحي بن الصائغ اليهودي، الذي عيّن طبيباً خاصاً لبني الأحمر في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

كما أنه مع تفاقم الحروب في هذه المرحلة، واضطهاد الأقليات في المناطق التي سيطر عليها النصارى صارت غرناطة المسلمة ملجأ لليهود الهاربين من جحيم الاضطهاد[1]، تلك الاضطهادات التي نتجت عن ممارسة اليهود للرِّبا بأبشع صوره، إذ صاروا يسيطرون على اقتصاديات الممالك النصرانية، ويتحكمون في شعوبها، بعد أن أغرقوها بالديون لهم[2]. ولا أدلّ على ذلك مما وقع في سنة (794هـ= 1391م) من مذابح مروعة لليهود، وتدمير لمعابدهم، وإجبارهم على التنصّر، قامت به جماهير النصارى ورجال دينهم، بدأ في إشبيلية ثم انتقل إلى جميع المدن الإسبانية، فتدفق المهاجرون اليهود إلى غرناطة والشمال الأفريقي التي يحكمها المسلمون، وقد أظهر المنصَّرُون يهوديتهم عندما صاروا تحت حكم المسلمين[3].

---

[1]. المصدر السابق:97-98.

[2]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 261.

[3]. المرجع نفسه: 262.

وممّا يبيّن تسامح المسلمين ومحافظتهم على تنفيذ أوامر الشريعة ، أن فقهاء المسلمين لما وضعوا شروط سلطنة غرناطة لقبول الاستسلام للملكين الكاثوليكيين فرديناد وإيزابيلا، سنة (897هـ=1491م) لم ينسوا في تلك الظروف الحالكة، أن يضعوا شرطاً يقضي «بأن يتمتع اليهودُ من أهل غرناطة والبيَّازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لها، بما في هذا العهد من الامتيازات، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر، تبدأ من يوم 18ديسمبر 1491م»[1].

[4]. دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1417هـ 1997م :234.

الفصل الثاني:

موضوعات حوار الأديان

في الأندلس

قضايا العقيدة.

قضايا الكتب السماوية.

الصراع بين الحق والباطل سنّة كونيّة من سنن الله التي كتبها بين العباد قال ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾[1]؛ ولكن هذا الصراع كان يتغير من وقت لآخر، فتارة يعلو صوت النبال والسنان، وتارة صوت العقل واللسان، ومن خلال استقرا ئنا لتاريخ الأندلس، نجد أنها لم تشذ عن هذه القاعدة، بل كانت أكثر مناطق الإسلام تجسيدا لهذه المبادئ، فقد كان لموقعها الجغرافي دور هام، في ال ذّب عن دين الإسلام، سواء كان ذلك بالسيف أو بالقلم على مختلف المراحل التاريخية، نظرا لوقوعها قرب الديار المسيحية، أو في عقر دارها، ما جعل الهجوم على الإسلام والمسلمين شرسا؛ الشيء الذي فتح المجال واسعا أمام نخبة من العلماء للدخول في حوار مع الآخر، ومناقشة مختلف القضايا الدينية، في محاولة للظهور على الآخر، أو على الأقل لردّ شبهاته، ولعل الوقوف عند بعضها، يقرب من اكتشاف المستوى الذّي وصل إليه هذا النوع من الحوار ؛ على أنّنا سنعالج في هذا الفصل موضوعي العقيدة والكتب السماويّة.

[1] . سورة الأحزاب: 62.

أ/ الحوار العقدي:

1/ مفهوم الحوار العقدي (اللاهوتي[1]):

الحوار العقدي نسبة إلى العقيدة، والعقيدة لفظ مولد مستحدث؛ فلغة هو من العقد وأصله الربط، وهو نقيض الحل، ثمّ استعمل في أنواع العقود من البيوعات وغيرها، ثمّ في التصميم والاعتقاد الجازم[2]؛ وقيل العقيدة الحكم الذّي لا يقبل الشّك فيه لدى معتقده، وقيل: ما عقد عليه القلب والضمير، أو هي ما تديّن به الإنسان واعتقده؛ وقيل: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل.[3]

وفي الاصطلاح: هي البديهة التي تستقر في العقل الباطن للإنسان، وتؤثر في حدسه وشعوره وتوجهه في تفكيره وسلوكه، أو هي ما يؤمن به الإنسان من حقائق الوجود، وما يعتقد بحقيقته من الأخبار والتصورات[4].

أما مفهوم الحوار العقدي فيعتبره أحد الباحثين:« شكلا من أشكال الحوار يعتمد بالأساس على الإقناع العقلي، ويستهدف لدى كل طرف ديني تغيير الديانة الأخرى من الداخل، وذلك لأجل تحقيق مكسبين؛ أحدهما: تعزيز مركز كل دين في وجه أتباعه، وتوفير

---

[1]. اللاهوت: لغة هو تستر وعلا وارتفع، وجوّز سيبويه اشتقاق الجلالة منها؛ قال الواحدي: يقولون لله لاهوت، وللإنسان ناسوت، وهي لغة عبرانية تكلمت بها العرب قديما (القاموس المحيط،الفيروز آبادي مادة عقد: 126) واصطلاحا هو طبيعة وجود الله أو الواجب أو الحرية أو خلود الإنسان، حسبما هو معتقد في الفكر الغربي.(المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997، 2/ 748).

[2]. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، الهيئة المصرية للكتاب، 1398هـ . 1978م، ج: 02 مادة ع ق د: 324.

[3]. المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية،جمهورية مصر العربية،مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 1425 هـ2004م، مادة عقد: 614.

[4]. تعريف عام بدين الإسلام، علي طنطاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 6، 1974: 37.

القناعات الكافية لديهم بأن عقيدتهم تمثل الحق المطلق. وثانيهما: اجتذاب أتباع الدّين الآخر، وحملهم بالإقناع العقلي على اعتناق الدّين الجديد، والتخلي عن صيغة إيمانهم القديمة»[1].

إذا الحوار العقدي هو ذلك الحوار الذي يمس جوهر عقيدة كل طرف، لتقوية مركز كل عقيدة ينافح عنها لزرع الطمأنينة في قلوب معتنقيها واكتساب أتباع جدد، أو للدفاع عن صحة معتقده، مستعملا حجج وبراهين عقلية منطقية للوصول إلى ذلك.

فإلى أيّ حدّ نجد هذا النوع من الحوار تجسّد في أرض الأندلس ؟ وهل كان حوارا يعتمد على الإقناع العقلي؟ أم صراعا اتخذ شكلا آخر؟ وماذا جنى الأدب العربي من هذه الحوارات؟

وللإجابة عن هذهالتساؤلات حاولنا أن نستقصي ذلك التراث الذي خلفه علماء الأندلس وأدباؤها مركزين فقط على الجانب العقدي في حوارهم مع الآخر، ومن أوائل الذين خاضوا غمار هذا المجال نجد الإمام الباجي والقديس هيو:

2/ الحوار العقدي عند القديس هيو[2] راهب فرنسا:

بعد تغيّر موازين القوّة في شبه الجزيرة الإيبيرية بين المسلمين والمسيحيين، حدث تحوّل جذري تام، فصار المسلم في وضع دفاعي محض، بينما انتقل النصراني إلى وضع هجومي شامل، تجلى ذلك عسكريا بسقوط مدينة بربشتر ثم طليطلة، وفكريا بتجرأ الراهب هيو بدعوة أحد ملوك الطوائف المقتدر بالله ملك سرقسطة إلى اعتناق النصرانية، آملا منه الارتداد عن دين الإسلام واعتناق عقيدة التثليث ، لعلّ رعيته تتبعه ويكون استردادها دون سفك دماء وإزهاق أرواح، فاستهلّ رسالته بعبارات التقدير والاعتزاز لابن هود ، قائلا: « إلى الصديق

[1]. الحوار الإسلامي المسيحي نحو مشروع للنضال المشترك، محمد مهدي شمس الدين، مؤسسة الإمام شمس الدين للحوار، 2004م: 13.

[2]. كان قائما على دير كلوني بفرنسا.

الحبيب الذّي نؤمله أن يكون خليلا .. المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف؛ من الراهب أحقر الرهبان، الراغب في الإنابة والإيمان بالمسيح يسوع ابن الله سيدنا !!! »[1]، هكذا بدأ الراهب رسالته بنبرة من التذلّل والتواضع لكسب ود ابن هود، مشيرا إلى عقيدته في بداية الرسالة (يسوع ابن الله سيدنا) ؛ ثم شرع في عرض موضوعه الأساس فقال: « رأينا أن نراسلك وندعوك لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني .. وليس يسعنا أن نتراخى عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة بجميل معونته ..ولهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلاما إلهيا ..

وإنّك قد رأيت كتابنا إليك الذّي راجعت عليه مراجعة نبيلة، على حسب نظر أهل الدنيا، ولم تكن بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية، ولذلك تراخى زماني بمراجعتك إذ توقعنا أن نتكلف تعبا لا نجتني به ثمرة»[2].

يتضح من خلال هذه الفقرة أن الرسالة كانت في الأصل مبادرة من قبل الراهب الفرنسي، ثمّ تكررت بعد ذلك، ويبدو أنّ أجوبة المقتدر بالله لم تكن مشجعة للراهب.

ولا يفوّت الراهب الفرصة لتجديد دعوته للأمير للدخول في النصرانية جازما أنّها الدّين المقدس، إذ يقول:« ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك، ويتكفل سلامتك ويهديك إلى دينه المقدس، ويسعدنا بالإيمان الصحيح به آمين»[3]. وقد أصر الراهب على الإدعاء المتمثل في " ألوهية المسيح" في قوله: « وقد كان فيما سلف . من ذنوب إبليس وتضليله للعباد، ما يلقيه العذاب الأليم، يوم القيامة من سيدنا يسوع المسيح؛ وقد ضاعت

---

[1]. رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها، تح: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986: 64.

[2]. المصدر نفسه: 49 .

[3]. المصدر نفسه: 50.

تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الأمم العظيمة» [1]، يوظف الراهب الحوار العقدي (اللاهوتي عند النصارى) لإقناع وكسب الملك بالمزايا التي توفرها النصرانية كمَحْو الذنوب والخطايا، لأن الراهب يعتقد أنّ ذنوب المسيحيين مُحيت (أوبقت) بصلب المسيح عليه السلام كما يقول. ويدافع عن الزعم القائل بـ " صلب المسيح " وتخليصه للناس قائلا: « ويقرون عندك معرفة المسيح سيدنا الذّي لا ينبغي النجاة إلّا به، فهو الإله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا. بدمه الطاهر. من هلكة إبليس» [2]. وهكذا يخاطب الراهب المقتدر بأسلـــوب الواثق من نفسه الموقن بصحة كلامه، بل العجب حين يخاطبه وكأنّه شاب ضال عن طريق الهدى، أو واحد من الذي جاءوا يطلبون الغفــران منه!

ثمّ يواصل:« وإنّ الإحاطة بكنهها ممّا يعجز دونه إدراك الإنسان، وملك الله. تعالى !. أجلّ وأعظم من أن يدركه فهم الإنسان، أو يصل إليه بعلم الكلام .....إلاّ أنّ من آيات الله القادر على كلّ شيء، أن يشرح صدور الآدميين ويدخل روح العلم في قلوبهم، ليتمكن الإيمان في نفوسهم» [3].

الراهب في هذه الفقرة حاول أن يتستر على غموض لاهوته بعجز عقل الإنسان عن فهم الكون إلا إذا أراد الله له ذلك؛ فكأنّ ما يؤمن به هو طلاسم لا يتأتى لجميع البشر فهمها، وهذا يدل على مكر الراهب، فهو متيقن من هلامية لاهوته، و لكنه يستدرج المقتدر بغلق مجال الفكر والمنطق أمام عقله، فلا وجود لأيّ دليل منطقي يوصل إلى ما يعتقده. ثم يذكّر الراهب في رسالته هذه كل الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم السلام، بل وذكر حتى الحواريين، إلا النبي محمدا ﷺ فلم يذكره إلا من باب أنه أضلّ بني إسماعيل وحكم عليهم

[1]. المصدر السابق: 50

[2]. المصدر نفسه: 50

[3]. المصدر نفسه: 52

بالجحيم ولأجل هذا فهو يدعو ابن هود أن يدرك نفسه ويصحح عقيدته ويعتبـــر مما مضى، ويضيف قائلا: « فتأمل أيها الحبيب ما يحق عليك تقديم العمل به والمسارعة إليه، واغتبط بما يدين به إخواننا في هذا القطر ... والسلام عليك من سيدنا المسيح الذي أذهب الموت وقهر الشيطان، ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبائل إبليس التي كنت فيها متورطا إلى الآن».

هكذا أبدى الراهب حرصه على مصلحة المقتدر وخوفه عليه، وقد كان يؤمّل أن يتنصّر ابن هود ومن وراءه خلق كثير من رعيته.

3/ الحوار العقدي عند الإمام الباجي :

تصدى الإمام الباجي للراهب الفرنسي، داحضا جميع مزاعمه، ناقضا كلامه، فالمسألة ليست اختلافات في بعض الأمور الفقهيـة، بل الأمر يتعلق بالعقيدة الإسلامية التي يريد هذا الراهب ضربها في عقر دار الإسلام ومن خلال أبنائه.

«استهل الباجي ردّه الموجه للراهب بشكره على ن صريحته التي هو أحوج إليها من غيره ، مشيرا إلى أن فحوى تلك الرسالة لا يرقى لأن يخاطَب به أصحاب العقول النيرة الفطنة، ولك ن يصلح لمخاطبة ضعفاء النصارى الذين تنطلي عليهم مثل تلك الأفكار المغلوطة؛ ويضيف الباجي أن كثـرة الرسائل التي أرسلها الراهب هي التي دعته إلى الرّد »[1]، على أنه لا ينتهج الأسلوب نفسه فيسب الأنبياء وينتقص منهم كما فعل هو.

قال القاضي أبو الوليد الباجي:« وقد كان ورد علينا ـ قبل هذا ـ كتابك . ، واقترن به من دعوى حامله المحال، الذّي كان يجب أن لا يخاطب به من له أقل حس بالإحساس، أو يختلج بخاطر من له أدنى فهم، من إحياء أموات وأعظم رفات.

[1]. المناظرة في الأندلس ـ الاشكال والمضامين ـ ، آمنة بن منصور: 34

فألنّا القول وأولیناه الإعراض والصفح، وجاوبناك جواب من یعتقد ـ حسب ما ظهر منك، وبلغنا من خطرات الغفلة ـ أنك أرسلتها دون تأمل، وأظهرتها دون تحصیل ولا تحقق، مع ظنّك أنه یجوز على ضعفاء المسلمین من ذلك ما یجوز على جماعتكم من تجویز المحال وتصحیح ما هو في غایة الإبطال» [1]؛ ثمّ یترفق بالراهب بكلام رقیق، وهادئ وعمیق، حتى یصل به ذا الرد...« وإنّا لنربأ بمثلك، ونرفع قدرك عما استفتحت به كتابك، من أن عیسى صلى الله علیه وسلم ـ ابن الله تعالى ـ بل هو بشر مخلوق وعبد مربوب لا یعدو عن دلائل الحدوث: من الحركة، والسكون، والزوال، والانتقال من حال إلى حال، وأكل الطعام، والموت الذي كتب على جمیع الأنام، مما لایصح على إله قدیم، ولا یمكن عند ذي رأي سلیم، ولو جوّزنا كونه ﷺ مع هذه الصفات ولأنه لیس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم وما فیه من الحیوان والجماد من دلائل الحدوث غیر ما في عیسى ﷺ»[2]. فالباجي یبطل دعوى الراهب بألوهیة عیسى عليه السلام؛ مستدلا على حدوث عیسى بأعراضه من تغیر وسكون وحركة... وأن هذا معارض لصفات الإله القدیم.. وأنه على افتراض ألوهیة عیسى مع وجود أعراض الحدوث فذاك دلیل قاطع على عدم ألوهیته وأنه عبد مخلوق.

وفي موضع آخر یرد الباجي بهتان الراهب، لما زعم أن عیسى هو الرّب، وحجته في ذلك أنه وقعت منه المعجزات التي لا یستطیع أي مخلوق آخر أن یأتي بها ، فدلّ ذلك بحسب زعمه على أنه الخالق: ...« ولو جاز أن یقال إن عیسى علیه السلام هو الخالق لما ظهر من ذلك على یده، والمنفرد بفعله، لجاز أن نقول إنّ آدم وإبراهیم ومحمدا وسائر الأنبیاء علیهم السلام، انفردوا بخلق ما ظهر على أیدیهم، وإن جمیعها من خلقهم وإنّهم لذلك آلهة معبودون، وذلك محال فلا خالق إلاّ الله ولا معبود سواه»[3].

---

[1] . المصدر السابق: 63 وما بعدها.

[2] . المصدر نفسه: 65 وما بعدها.

[3] . المصدر نفسه: 68.

أبطل الإمام الباجي أن تكون معجزات عيسى دالة ولو على شيء من الألوهية، ذلك أن أنبياء الله عليهم السلام يشاركونه في ذلك سواء من جنس تلك المعجزات أو من غيرها، ومع ذلك لم يقل أحد بألوهية هؤلاء الرسل الذين جاؤوا بمعجزات تشابه معجزات عيسى عليه السلام.

ويضيف القاضي:« وأما ملكوت ربّ العالمين، فهو المنفرد به لا ينبغي أن يشركه فيه طائع ولا عاص، ولا برّ ولا فاجر»[1].

أمّا جهل النصارى وتناقضهم في شأن الألوهية، فحيث جعلوا عيسى عليه السلام ابنا لداود من قِبَل يوسف النجار وهو ذلك الله الخالق للكون ولأبيه داود: قال القاضي:« ومن طريف ما تأتون به، وتضحكون سامعه منكم قولكم: إنّ عيسى ابن الله . تعالى الله عن ذلك . وتقولون إنّه من ولد داود عليه السلام.

وهذا ثابت في إنجيلكم ومتلو في كتابكم، وتزعمون أن جبريل إذ بشّر مريم به قال لها: إنّه يكون عند الله عظيما، ويكون الله لاسمه ناشرا ويدعى بابن الله ويورثه الله ملك أبيه داود»[2] .

« ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود، وإنّما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجا لمريم؛ فإذا كان عيسى من ولد داود، وداود عبد مخلوق، وجد بعد أن لم يكن، ومات بعد أن حيي، فكيف يكون عيسى الابن خالق داود (أبيه) وإلهه، وكيف يكون ابنا لداود المخلوق وابنا لله الخالق؟ وهل هذا إلّا جهل بمعرفة الابن من الأب، والقديم من المحدث، والخالق من المخلوق، ومن بلغ

هذا الحدّ من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع، فكيف يدعو إليه ويتكلم عليه»[3].

---

[1] . المصدر السابق: 71.

[2] . المصدر نفسه: 100.

[3] . رسالة الباجي إلى راهب فرنسا: 83 . 84.

ومن واقع النصارى قولهم أن الربّ يخاف من إبليس، فكيف يدّعون أن يكون ذلك هو الله . تعالى الله .. قال أبو الوليد في رسالته:« فكيف يخاف من هذه صفته بعض خلقه أن يفتنه؟ وكيف تحمل إبليس الأرض أو ظله، وهو يخاطب ربه ويدعي إلى عبادته، وبعد أن يثيبه على ذلك، ويملكه زينة الحياة الدنيا، وهي ملكه ومن خلقه، وربّه يخاف فتنته ويستنجد منه بالصيام؟»[1]. وقد تكلم القاضي تفصيلا على هذه الواقعة، خاصة توحيد العبادة بأمثلة من الواقع يصدقها العقل ، وبأسلوب ليّن يبتعد عن التجريح والتعريض، ولكنّه يعذر الراهب فيما ذهب إليه، ذلك أن كل ملّة وفرقة فرحة بما لديها، «وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل، والدهرية الذين يدّعون الأزل، والفلاسفة القائلون بقدم العالم، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام »[2]، ويسترسل الباجي في محاورته مبينا أن الله تعالى بعث النبيين مبشرين ومنذرين، وأنهم جميعا جاؤوا برسالة التوحيد ، ثم يعود لنقض كلام الراهب الذي ادعى أن عيسى (عليه السلام) سينقذ البشرية بدمه الطاهر فيقول: «ومن أغرب ما تأتون به قولكم أنه بذل دمه في خلاص العباد، وكيف يكون للرّب دم، والدم من الأجسام المحدثة المخلوقة ؟ ولو حررتم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت دون اللاهوت وللزمكم أن تقولوا إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله – تعالى – لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات، وهذه صفة لا تصح إلا على محدث مخلوق »[3]. فالباجي في هذه الفقرة يفحم الراهب بدليل عقلي قاطع ؛ فزعم الراهب أن عيسى بذل دمه ليؤمن الناس به، وأنه آمن به قليل أقل ممن آمن بالرسل والأنبياء غيره وعلى رأسهم نبينا عليه الصلاة والسلام، واستنكر على الراهب وصف الإله بوجود دم فيه والدم من المحدثات، ووصف حال الراهب في فساد العقيدة المبنية على المحال

[1] . المصدر السابق: 89.

[2] . المصدر نفسه: 90

[3] . المصدر نفسه: 78

بأنه إما سالك مسلك الآباء فلا يخرج عنه أو أنه يعرف فسادها لكنه يؤثر البقاء عليها ترضية لعامة أهل ملته لكيلا تنحط رتبته عندهم. هكذا بيّن الباجي مدى تناقض كلام الراهب مع الواقع والمنطق والعقــل، بل وحتّى مع شريعته هو! و قد أظهر الباجي تمكنه كمحاور يلتزم بأدب الحوار، فيرد أقوال خصمـه بالحجة المنطقية والدليل العقلي.

ثم تناول نقطة أخرى لا تقل أهمية، وهي إحياء الموتى التي اتخذها النصارى ذري عة لتأليه (عيسى عليه السلام)، وقد عمد الباجي إلى نقضها من خلال ضرب أمثلة من التاريخ، فقال: «قد ظهر على أيدي سائر الرسل – عليهم السلام – من الآيات الواضحة والمعجزات البا هرة مثلما ظهر على يدي عيسى وأكثر، فلو جاز أن يدعى لعيسى بشيء مما ظهر على يديه من إحياء الموتى .. بأنه ابن الله تعالى لجاز أن يدّعى ذلك لإبراهيم ..وموسى ..ومحمد [عليهم السلام] »[1] ؛ ثم ينتقل الباجي إلى مسألة أخرى وهي وجوب الإيمان بعيسى عليه السلام وحده، مبينا أن هذا الكلام يناقض أصول النصرانية نفسها فقال: «وقد رأينا ما في كتابك ما خالفت فيه جميع أهل ملتك، فإنه ليس في فرق النصارى من يقول إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه، بل هو الإيمان بالأب عندكم واجب والأب لم يتحد بالناسوت عندكم وإنما اتحد به الابن، فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالأب، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله، وهذا نقض لقولك إنه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو الابن »[2].

و أنهى الباجي حواره مع االراهب بإثبات نبوة محمد عليه السلام التي أنكرها الراهب فقال:« إن الله تعالى بلطفه وحكمته وعطفه ونعمته بعث محمدا (عليه الصلاة و السلام) فختم به الرسالة، وأكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين، وبعثه إلى جميع العالمين .. ابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو إسماعيل، ثم من خير بني إسماعيل وهم قريش، قطب العرب وأفصحها ألسنا وأخلصها عنصرا .. فقام منفردا فيهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن و خلع الأوثان .. ثم

[1]. المصدر السابق: 68

[2]. المصدر نفسه: 74

أكرمه الله تعالى بالمعجز الذي فضله به على جميـــع النبيين والمرسلين، وهو القر ءان الذي تحدى به الإنس و الجن أجمعين »[1].

و دعا الباجي الراهب أخيرا إلى اعتناق الإسلام متمثلا بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[2].

لقد استط اع الباجي بهذه الرسالة أن يرد ادعاءات الراهب وينقضها بما لا يفسح مجالا للاعتراض عليها، فالباجي يمتلك القدرة على محاورة غيره، ولا تنقصه في ذلك الحجج والأدلة القطعية ، فضلا عن اعتماده الأسلوب الهادئ البعيد عن الغمز واللمز وهو ما يجعله يكسب احترام الآخر ويهيئ لقبول كلامه.

فقد نقض دعاوى الراهب دون أن يعترض على لفظ رسالته ولا على صحة نقلها. كما عمل على منعها بإبطال ما استلزم من ألفاظها من تصو يرات تشبيهية وتحييزية لله ولصفاته التي رام بنسبتها للإسلام ونسف دعوى هذا الدّين بخصوص التوحيد والتنزيه اللذين يقوم عليهما. وبذلك استطاع أبو الوليد الباجي أن يحقق هدفه من محاورته للنصارى التي اضطر إليها، باعتراضه على دعاواهم ومنعها وإبطالها، فأفحمهم وانتصر عليهم، معتمدا في كل ذلك بعض قواعد المناظرة المنطقية والتداولية والأخلاقية.

4/ الحوار العقدي عند ابن حزم الأندلسي:

يعد ابن حزم الأندلسي من أوائل علماء المسلمين الذين اهتموا بنقض مفهوم الألوهية وصفات الله التي وردت في التوراة (المحرفة)؛ والتي لا تنزه الله عن التشبيه والتجسيم وغيرهما من الصفات، التي لا تليق بذات الله العلية. فقد أعمل اليهود عقولهم في ذات الله تبارك وتعالى

[1]. المصدر السابق : 90.

[2]. سورة آل عمران: 64

وأسقطوا عليه الصفات البشرية؛ فنسبوا البداء [1] إلى الله تعالى، حيث جاء في توراتهم (المحرفة) في سفر الخروج :« ...أَن الله ﷻ قال لموسى دعني أغضب عليهم وأهلكهم وأقدمك على أمة عَظيمة ؛ وأن موسى رغب إليه وقا ل له تذكر إبراهيم وإسرائيل وإسحاق عبيدك الذين خلقتهمْ بيدك وقلت لهم سأكثر ذريتكم حتّى يك ونوا كنجوم السّماء وأورثتهم جميع هذه الأرض التي وعدتهم بها ويملكونها؛ فحن السّيّد، ولم يتم ما كان أراد إنزاله من المكروه بأمته»[2].

وقد ردّ عليهم ابن حزم فقال: «في هذا الفصل عجائب:

أحدها إخباره بأن الله تعالى لم يتم ما أراد إنزاله من المكروه بهم وكيف يجوز أن يريد الله ﷻ إهلاك قوم قد تقدم وعده لهم بأمور و لم يتمها لهم بعد ، وحاش لله من أن يريد إخلاف وعده فيريد الكذب.

وثانيها نسبتهم البدآء إلى الله ﷻ وحاش لله من ذلك، والعجب من إنكار من أنكر منهم النّسخ بعد هذا ولا نكرة في النّسخ لأنّه فعل من أفعال الله أتبعه بفعل آخر من أفعاله ممّا قد سبق في علمه كونه كذلك ، وهذه صفة كل ما في العالم من أفعاله تعالى وأمّا البداء فمن صفات من يهم بالشّيء ثمّ يبدو له غيره وهذه صفة المخلوقين لا صفة من لم يزل لا يخفى عليه شيء يفعله في المستأنف.

وثالثها قوله فيها ويملكونها وهذا كذب ظاهر ، ما ملكوها إلّا مدّة ثمّ خرجوا عنها إلى الأبد والله تعالى لا يكذب ولا يخلف وعده »[3]. هذا ردّ ابن حزم من ردود كثيرة بيّن فيها سخافة

---

[1]. البداء: يطلق في لغة العرب على عدة معان: البداء في العلم هو أن يظهر له خلاف ما علم. تعالى الله عن ذلك. ؛ والبداء في الإرادة هو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم؛ والبداء في الأمر هو أن يأمر بشيء ثم يأمر بشيء آخر بخلاف ذلك، وكل ذلك مستحيل على الله تعالى والجهل والحدوث عليه محالان (انظر: الملل والنحل للشهرستاني: 118 . 119) وكذلك التعريفات للشريف الجرجاني 62/1.

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري،تح: د.محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ج258/1.

[3]. المصدر نفسه: 258

عقيدة اليهود وتعارضها مع العقل، إذ كيف يتسنى لإله أن يُقْدِم على شيء ثم يتبيّن صحة عكس ذلك الأمر؟ ثم كيف بإله لا يعلم الغيب، ومن صفات الألوهية العلم بما كان وما يكون وما لا يكون، وعليه فبنو إسرائيل لم يملكوا الأرض إلا مدة وجيزة، وبالتالي ادعاء اليهود بهذا البهتان يكون باطلا.

وتحدث ابن حزم عن عقيدة النصارى؛ فالنصارى يقولون إ نّ المسيح ابن مريم هو الله، وبالتالي فهو الربّ الخالق الرازق المدبّر؛ فذهبت اليعقوبية (الأرثوذكسية) إلى القول بالاستحالة والنقلة[1]، أي تحول الإله من حال إلى حال، وانتقاله من وجود إلى وجود، فردّ عليهم ابن حزم بقوله: «وهم فرقة نافرت العقل والحسّ منافرة وحشية تامة، لأن الاستحالة نقلة، والنقلة الاستحالة لا يوصف بهما الأول الذي لم يزل، تعالى عن ذلك علوا كبيرا»[2]. ثمّ أضاف مخاطبا إيّاهم بكلام عقلي، لردّ زعمهم أنّ الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) لم تزل كلها، قائلا: « ثمّ يقال للقائلين بأن الباري ﷻ ثلاثة أشياء: أب وابن وروح القدس، أخبرونا إذ هذه الثلاثة لم تزل كلها، وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأيّ معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى: أبا، والثاني: ابنا، والثالث: روح القدس، وأنتم تقولون: إنّ الثلاثة واحد، وأن كل واحد منهما هو الآخر، فالأب هو الابن والابن هو الأب، وهما روح القدس، وليس روح القدس سواهما، وهذا عين التخليط، وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه «سأقعد عن يمين أبي» [3]، وهذا رد عقلي من ابن حزم، لا يقبل مجادلة ولا محاججة؛ فكيف للشيء الواحد أن يكون ثلاثة أشياء في الوقت نفسه، ثم يفحمهم بدليل من إنجيلهم يبطل دعواهم في هذه المسألة. ثم

---

[1]. الاستحالة: أي التحول من حال إلى حال، والانتقال من وجود إلى وجود، وفي ميلاد المسيح إلها في صورة البشر .كما يقول النصارى . معناه أن الله تحوّل من صورة إلى صورة.

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 1/ 112.

[3]. المصدر نفسه: 112/1. والنص في إنجيل لوقا الإصحاح 69/22 ونصه: « منذ الآن يكون ابن الإنسان عن يمين قوة الله»

قال: «وأيضا فإنّ ما قالوا محال؛ لأن الباري ﷻ الذّي لم يزل لا يستحيل إلى طبيعة الإنسان المحدث، ولا يستحيل المحدث إلها لم يزل، وهذا محال بذاته لا يتشكل (يتشكك)، وكذلك الإنسان لا يجاور الإله مجاورة مكانية لأنّه محال أيضا»[1].

ومما خاض فيه ابن حزم ما عرف عندهم بالأمانة [2]، فهل الابن الذّي نزل من السماء، مخلوقا كان أو غير مخلوق قبل أن ينزل؟ يقول: «وأمانتهم التي ذكروا أنهم متفقون عليها موجبة أن الابن هو الذي نزل من السماء وتجسّد من روح القدس، وصار إنسانا، وقُتل وصُلب، فيقال لهم: هذا الابن الذي من أمانتكم إنه نزل من السماء وتجسّد إنسانا، أخبرونا قبل أن ينزل من السماء أيّ مخلوق كان أو غير مخلوق؟ أم كان لم يزل؟

فإن قالوا: كان مخلوقا فقد تركوا قولهم، لاسيّما إن قالوا : إنه ليس هو غير الأب، بل يصير الأب وروح القدس مخلوقين.

وإن قالوا: كان قبل أن ينزل غير مخلوق. قيل لهم: فقد صار مخلوقا إنسانا، وهذا محال وتناقض.

وأيضا فقد لزم من هذا أنّ الابن مخلوق، وروح القدس مخلوق، إذ صار إنسانا، ثمّ يقال لهم: أخبرونا عن هذا الابن الذي أخبرتم عنه بما لم تخبروا عن الأب، والذي يقعد عندكم عن يمين أبيه، ثمّ ينزل لفصل القضاء أَلَهُ علم وحياة أم لا علم له ولا حياة.

فإن قالوا: لا علم له ولا حياة، فارقوا إجماعهم ولزمهم ضرورة إن قالوا مع ذلك إنه غير الأب الذي له حياة وعلم، إذ ما لا علم له هو بلا شك غير الذي له علم، والذي لا حياة له هو بلا شك غير الذي له حياة. وهذا ترك منهم للنصرانية.

---

[1] . المصدر السابق: 1/ 117 . 118.

[2] . الأمانة: إجماع على معتقد نزول المسيح وقتله وصلبه.

وإن قالوا: بل له علم وحياة لزمهم أن الأزليين خمسة ؛ الأب وعلمه وحياته، والابن الذي هو علم الأب وعلمه وحياته، وهكذا يسألون أيضا عن روح القدس، ولا فرق.

وقالت اليعقوبية[1]: إنّ المسيح هو الله تعالى نفسه، وأنّ الله ـ تعالى عن عظيم كفرهم ـ مات وصلب وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبّر، والفلك بلا مدبّر، ثمّ قام ورجع كما كان، وأنّ الله تعالى عاد محدثا، وأن المحدث عاد قديما، وأنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولا به[2].

وقد ردّ ابن حزم عن كل هذه التساؤلات بما جاء في القرءان الكريم وبما يتوافق مع العقل، فقال:« ولولا أنّ الله تعالى وصف قولهم في كتابه الكريم:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[3] وإذ يقول تعالى حاكيا عنهم:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[4]، ثم يورد قولهم تعالى:﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[5]. ، ويعلق ابن حزم بقوله: لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع، السمج، السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلا يسع هذا الجنون ونعوذ بالله من الخذلان.

يتبين لنا من هذا العرض البسيط لبعض ما خاض فيه ابن حزم في محاورته للنصارى أن الرجل كان يغلب جانبه العقلي ويحسن استدراج محاوره فيحكم عليه إغلاق جميع المنافذ ، وهذا لبّ فن الحوار.

---

[1]. فرقة اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البرادعي، وتعتقد هذه الفرقة بأن الإله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس.

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل : 111/1.

[3]. سورة المائدة 17.

[4]. سورة المائدة: 73.

[5]. سورة المائدة: 116.

5/ الحوار العقدي عند القس الذي حاور أبا عبيدة الخزرجي:

ظهرت المعارك الفكرية العقدية – بجانب المعارك العسكرية- حول الإسلام والمسيحية، وكان بعض المسلمين الذين بقوا فيها تحت الحكم المسيحي يتعرضون لهجوم منظم يستهدف تعاليم الإسلام ..فكان قسيس إسباني يلقي أسئلة على بعض المسلمين الأسرى بهدف زعزعة عقيدتهم؛ فوجد أولئك المسلمون في أبي عبيدة الخزرجي [1] بغيتهم وسندهم بعد الله في الردّ على أسئلة هذا القسيس. وعند معرفة القسيس بذلك ، كتب إلى أبي عبيدة كتابا يدعوه فيه إلى اعتناق المسيحية مستفتحا رسالته بقوله: ..«من فلان إلى فلان باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد سلام عليك أيها الفتى الإسماعيلي المسلم المحمدي ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد حمد الله الذي هدانا لدينه وأيدنا بيمينه وخصّنا بابنه ومحبوبه ومدّ علينا رحمته الصليبية روح المسيح إلهنا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهن والذي فدانا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا ورفع عن أعناقنا الخطيئة التي كانت في أعناق بني آدم بسبب أكله من الشجرة التي نهى عنها فخلصنا المسيح بدمه وفدانا ومن عذاب جهنم وقانا، هرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم، إذ كان الذنب باقيا في أعناق جميعهم فكلهم تخلص منه إلاّ من كفر به وشك فيه، فإذا أردت أن يتغمدك الله برحمته وتفوز بجنته فآمن بالله وقل المسيح ابن الله الذي هو الله وبالروح القدس ثلاثة أقانيم أقنوم واحد فستنجح وترشد»[2].

نلاحظ أن القس حشد في هذه الفقرة كل ما يتعلق بالعقيدة النصرانية، فهو يصف المسيح بابن الله تعالى وفي نفس الوقت أنه إله، وقد خصّ به الأمة النصرانية بحسب زعمه على الرغم من أن المسيح عليه السلام بعث لبني إسرائيل،وقد فدى جميع المؤمنين به بدمه....

---

[1]. أحمد بن عبد الصمد بن محمد الأنصاري الخزرجي الساعدي ، فقيه أندلسي، ولد في قرطبة(عام 519هـ، 1125م)، وعاش في طليطلة، وفيها ألف الكتاب وعمره 23عاما، ثم انتقل إلى مدينة فاس وتوفي بها (سنة 582هـ، 1187م) .

[2]. مقامع الصلبان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تح: عبد المجيد الشرفي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية: 30 . 31.

ولكون القس صاحب باع طويل وإطلاع عميق على شريعة الإسلام ، فقد حاو ل أن يعزز حجته لإقناع الفتى (الخزرجي) بما جاء في أعظم حجة وأقدس شيء عند المسلمين إنه القرآن الكريم، محاولا تشكيكه في عقيدته، فقال: «ألم تسمع ما في الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه روح الله وكلمته وأنه كان ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1] وأين أوجه في الدنيا والآخرة من المسيح ابن الله»[2].

وواصل القس تقوية حجته مستعينا في ذلك بما جاء في القرآن الكريم، بقوله: «وفي الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه يحي الموتى وكفى بذلك دليلا على أنه هو الله»[3].

فالقس رأى أن عيسى عليه السلام هو الله بدليل القرآن الكريم لأنه يحي الموتى ، وهذه خلّة لا تكون إلاّ للإله، والقرآن الكريم الذي هو عمدة المسلمين شهد أن عيسى عليه السلام أحيا الموتى، وبالنتيجة أنه هو الإله، ولننظر إلى الإمام الخزرجي وطريقة تعامله مع ما يدعيه القس.

6/ الحوار العقدي عند الإمام الخزرجي مع القس النصراني:

لما وصلت الرسالة إلى الإمام الخزرجي، وهو الفتى اليافع، زجر موصلها، وامتنع عن مراجعة القسيس، لكونه يومئذ بين ظهرانيهم، وفي كنه ديانتهم، فألحوا عليه في الجواب. وفي خلال ذلك حان موعد سفره عنهم فكتب هذا الجواب، المسمى: مقامع الصلبان ورواتع روضات الإيمان وتركه عندهم ومضى.

ابتدأ الخزرجي رسالته بالتوحيد واختتمها بالتوحيد، فقال في أولها: «من فلان إلى فلان، بسم الله الرحمن الرحيم إله فرد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد، ثمّ حمد الله

---

[1]. سورة آل عمران: 45

[2]. مقامع الصلبان: 31.

[3]. المصدر نفسه: 31.

وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتلا آيات الإسلام وأنه دين الله الخالد ...»[1] بيّن الخزرجي في أول جوابه وحدانية الله وأنه لا شريك معه إله فرد صمد لم يلد ولم يولد، وبالتالي نسف كل أركان العقيدة النصرانية (المحرفة). ثم انتقل إلى تبرير تأخره في الردّ فقال: «...في تقديم الاعتذار عن النزول إلى إجابتك، والاعتذار عن ذلك للاعتراف بأن الالتفات إلى ما لديكم يحل بعقل الإنسان ودينه»[2].

ثمّ أورد الخزرجي كلام غيره (أحد ملوك الهند) ليعزز موقفه لأن هذا الملك ليس بمسلم، فضلا عن أنه اعتمد على منطقه وعقله فوصل إلى استحالة قبول هذه العقيدة بعدما ذكرت له الملل الثلاث. فقال: «أما النصارى فإن كان مناصبوهم من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعي فلقد أرى ذلك بحكم عقلي، وإن كنّا لم نربحكم عقولنا قتالا، ولكن استثنى هؤلاء القوم من جميع العالم، فإنهم قصدوا مضادة العقل، وناصبوه العداوة... فلو لم يجب مجاهدة هؤلاء القوم إلا لعموم أضرارهم التي لا تحصى وجوهه لكفى، وكما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه، لا يلام المرء على قتل هؤلاء، فكيف وثمّ من الموجبات ما تقدم... فهذا ما بدا له من جهلكم، وليس بمخاصمكم، ولا مناوئكم، ولا بمهتم بإتباع الهوى فيكم »[3]. ثمّ اعتذر الخزرجي بقوله: «على أنّي بين القصور، لصغر السّن وإغفال المطالعة وقلّة العناية قبل اعتراضك إيّاي»[4]. لينتقل بعدها لمناقشة مفهوم الربوبية فقال في ردّه على أنّ المسيح هو الله الخالق المدبّر: «أخبرني أيّها المخدوع؛ مالذي أظهره دليلا على أنه هو الله حتّى تنقطع صحة العالم به دون غيره كما زعمت؟ وما الذي رأوا من العظمة التي لم يكونوا رأوها حتى ترتفع

---

[1]. المصدر السابق : 39

[2]. المصدر نفسه: 40

[3]. بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تح: محمد شامة، مكتبة وهبة، مصر، 1979م: 123 (وهو في الأصل مقامع الصلبان، ولكن المحقق مختلف وبالتالي اختلف في العنوان).

[4]. المصدر نفسه: 26.

المعاذير؟ ألأجل أن رأوا يديه ورجليه مكتوفة ـ كما تظنّ من غير يقين ـ مصفوعا على قفاه، مبصوقا في وجهه بتاج من الشوك على رأسه، مصلوبا على جذع مسمرة يداه ورجلاه فيه» [1]. يحاور الخزرجي القس بمنطق العقل ويتساءل أيّ إله هذا الذي يعجز عن حماية نفسه مما ألحقته به بنو إسرائيل من الذلّة والهوان؟ أيعجز إله قادر مقتدر أن يحمي نفسه من عباد هو خلقهم؟ كيف يقبل هذا الربّ لنفسه أن يكون في تلك الحالة المهينة من يدين ورجلين مكتوفتين واليهود يبصقون على وجهه، أهذا إله يتساءل الخزرجي؟

ثم ينتقل الخزرجي لطرح تساؤل هام ، يجعل الإنسان الذي يمعن فكره يحار في هذا الأمر ، فتساءل عن الذي كان يدبّر الخلق عندما ربطت بنو إسرائيل هذا الإله في الخشبة، والمعلوم عند النصارى أن كل شيء في هذا الكون إنما يسير بإرادة الله وقوته فالقدرة صفة ثابتة لله عندهم وبالتالي عندما يعجز الإله حتى عن فك وثاقه ودفع الضرر عن نفسه فكيف يسمى إله؟ فقال : «أخبرني أيّها المغرور! من كان الممسك للسموات والأرض، إذا كان الله ـ كما تزعمون ـ مربوطا في خشبة الصليب؟ هل بقيا ساكنتين؟ أم استخلف عليها غيره، وهبط هو لربط نفسه في خشبة الصليب؟» [2]. ويبطل الخزرجي دعوى ربوبية عيسى بدليل عقلي آخر: «ثمّ كتبتم في الإنجيل الذي بأيديكم: أن الربّ صعد، فصار على يمين الربّ في إثر الصلب» [3].

«أخبرني أيّها المخدوع عن هذين الربّين:

من خلق منهما صاحبه؟ فالمخلوق ضعيف عاجز، ليس بإله، وإذا أراد أمرا، لمن الحكم منهما؟ فإن كان أحدهما مضطرا إلى مشاورة الآخر ومساعدته، كان المضطر عاجزا مقهورا، ولم

---

[1] . المصدر السابق: 139

[2] . المصدر نفسه : 188

[3] . إنجيل مرقس: الإصحاح 16: 19

يكن إلها قادرا، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته، فهو إذن مداهن، ويكون الآخر ضعيف، عاجزا مقدورا عليه »[1]؛ ليعزز الخزرجي ردّه بدليل قرآني يغلب عليه جانب العقل والمنطق متمثلا في قوله تعالى :﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَـٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾[3].

ومما يمكن أن نحمله من حوار الخزرجي مع القسيس في مسألة توحيد الربوبية هو بيان مناقضة دين النصارى للعقول، وكثير من دعائم عقيدة النصارى تعاكس المنطق السليم والفطر السوية. كما ردّ على القسيس في زعمه أن المسيح خالق السماوات والأرض، فماذا رأوا منه مما يوجب هذا الاعتقاد الفاسد، أهو الصلب واللطم ووضع الشوك على الرأس. ثم يتساءل الخزرجي عمن كان الممسك للسماوات والأرض أثناء مدة الصلب إن كان الربّ الذّي صلب .كما زعموا. ، واختتم حواره على زعم الإنجيل أن الربّ صعد وجلس إلى جوار الربّ بعد الصلب.

7/ الحوار العقدي عند الخزرجي مع اليهود:

أثبت الخزرجي أن التوراة (المحرفة) ألحقت بالإله الذي تعبده بنو إسرائيل صفات بشرية لا تليق بالكمالات الإلهية. تعالى عما يقولون. فاليهود يقولون بأن العلم الإلهي ناقص، ويعتريه ما يعتري البشر من الندم والحزن على خلقه للإنسان حتى أنه قال: « سأذهب الآدمي الذي

[1]. مقامع الصلبان: 179

[2]. سورة الأنبياء: 22

[3]. سورة المؤمنون: 91

خلقت على الأرض والحشائش، وطيور السماء، إنّي نادم على خلقها جدا جدا»[1]. وقد أشار بعض الباحثين إلى هذا النقص في العلم الإلهي، كما ورد بالتوراة، بما جاء في القرآن الكريم سنجد أن التوراة لم تجعل الإله يصل في علمه إلى درجة المخلوقات، كما ورد في القصص القرآني؛ لأن الملائكة كانت تعلم أن الإنسان سيفسد في الأرض وهو ما لم يعلمه، (إله التوراة) مما سبب له الأسى والندم[2]. وحين اعترضت الملائكة على خلق الإنسان دار الحوار التالي، الذي يثبت كمال العلم الإلهي قال تعالى: وَإِذْ ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

ولم يفت عالم مثل الخزرجي أن يقارن ـ ولو جزئيا ـ بين الصفات الإلهية كما وردت بالتوراة (المحرفة) ونظيرتها في القرآن الكريم، فالعجيب أن التوراة تدعو بني إسرائيل إذا لقوا العدوّ أن يضربوه بشدة، حتى يعلو صوت الضرب؛ ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوّهم[4].

ويعلق الخزرجي على هذا الكلام قائلا: «كأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يسمع إلا الأصوات العالية»[5]، ويقارن الخزرجي ذلك بما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾[6].

---

[1]. مقامع الصلبان، الخزرجي: 248

[2]. وهذا ما دفع القرطبي لأن يعلق على هذا النص بقوله:«وهذا في حق الله تعالى محال، إذ الندم إنما يلحق به من لا يعلم مصير المندوم عليه، ومآله، واعتقاد هذا في حق الله تعالى كفر، إذ ينبئ على أن الله تعالى جاهل وأنه متغير، تعالى ذلك علوا كبيرا، ولفظ الندم هذا نص لا يقبل التأويل فهو كذب وباطل قطعا. (الإعلام ج2: 149)

[3]. سورة البقرة الآية 30.

[4]. بين الإسلام والمسيحية، الخزرجي: 251.

[5]. المصدر نفسه: 251.

[6]. سورة طه : 7

ووقف الخزرجي على قصة مصارعة الله ـ تعال ـ ليعقوب عليه السلام ونزّه الخزرج ي الله تعالى عن هذه الأقوال الفاسدة [1].

وليت التوراة تقف عند تشبيه الإله بالإنسان، بل تذهب إلى ما هو أعظم من ذلك، حين تشبهه بإنسان شرير، أو شيطان يلجأ للغش، والمداهنة والجشع فقد أوضح الخزرجي أن إله إسرائيل يدعوهم إلى معاملة الناس بالربا، فنقل عن تورا تهم : « على الأجنبي إرب، وعلى أخيك فلا ترب ...»[2].

وبعد أن يَنْقُدَ الخزرجي هذا المفهوم التجسيمي للألوهية، نجد الخزرجي يضع بين يدي قارئه الميزان الذي تقاس به الصفات الإلهية بما يتوافق القرءان الكريم والعقل والمنطق متمثلة في قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[3].

8/ الحوار العقدي عند الإمام أبي عبد الله الأنصاري القرطبي[4]:

اشتهر من علماء الأندلس في ميدان التفسير الإمام القرطبي صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن الذي تصدى في عدة مواضع من هذا التفسير لردّ مزاعم النصارى؛ فقد جاء في أثناء تقريره عن توحيد الربوبية:

دليل عقلي: « زعمت النصارى أن المسيح هو الربّ الخالق المدبّر، وهو مع ذلك ابن مريم ورسول إلى الناس. وقد ردّ عليهم ربّنا في كتابه بأنه عبد مخلوق، ولا تعني معجزة إيجاده أنه رب

[1]. مقامع الصلبان: 250

[2]. المصدر نفسه: 249

[3]. سورة الشورى: 11

[4]. صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[1]؛ وهذا دليل على صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب. والشيء قد يشبّه بالشيء، فإن آدم خلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقا من غير أب، ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب»[2].

وتناول الإمام القرطبي في تفسير آيات التوحيد بالتقرير والبيان ومنها قوله تعالى :﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾[3]، فقال: « لا يكون الولد إلاّ من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته، وهو لا يشبهه شيء، والولدية تقتضي الجنسية والحدوث، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت، فهو سبحانه القديم الأزلي، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد. ثم إن البنوة تنافي الرّق والعبودية، فكيف يكون ولد عبدا؟ هذا محال، وما أدى إلى المحال محال»[4]، وهي حجّة عقلية قويّة لا يمكن ردّها فالأصل أن الولد هو من جنس الوالد وهذا مشاهد في جميع الموجودات على وجه الأرض، فهل يمكن للباري ﷻ أن يتخذ ولدا من مخلوقاته، وهو لا يشبهه في شيء فجميع صفات الألوهية لا توجد في هذا الذي ترى النصارى فيه ابنا لله.

---

[1]. سورة آل عمران: 59.

[2]. الجامع لأحكام القرءان: 102/4.

[3]. سورة البقرة: 116.

[4]. الجامع لأحكام القرءان: 2/ 85.

9/ الحوار العقدي عند أبي عبد الله الترجمان الميورقي (أنسلم تورميدا):

هو أبو محمد عبد الله بن عبد الله الترجمان الميورقي[1]، كان قسا نصرانيا اسمه إنسلم تورميدا، ثمّ أسلم وألف كتابه المشهور "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" وغيره؛وميزة هذا العالم تخصصه في الردّ على النصارى، كونه كان واحدا منهم، عرف عقائدهم وأسرارهم وشرائعهم وأحوالهم . ومما ردّ به على افتراءاتهم في الربوبية قولهم إن عيسى هو الله خالق السماوات والأرض وما بينهما.

قال عبد الله الترجمان:«اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن النصارى قد افترقوا على اثنين وسبعين فرقة، ففرقة تعتقد أن عيسى هو الله الخالق الباري الذي خلق السماوات والأرض.

فيقال لهم كذبتم وكفرتم وخالفتم أناجيلكم، فإن "متّى" قال في الفصل الموفي العشرين من إنجيله: إنّ عيسى قال للحواريين قبل الليلة التي أخذه فيها اليهود (كما يزعمون) :" قد تقاسيت من كرب الموت، ثم اشتد حزنه وتغيّر وخرّ على وجهه وهو يبكي ويتضرع إلى الله، ويقول: إلهي إن أمكن صرف كأس المنيّة عنّي فاصرفه، ولا يكون ما أشاء أنا بل ما تشاء أنت»[2]، فهذا النص من إنجيل متّى يدل دلالة قاطعة على مربوبية عيسى عليه السلام لله تعالى بدليل أنه يتوسل إليه ويرجوه، ولو كان إلهًا لما احتاج للدعاء والتذلل لله تعالى. وبعد تعقيب حول صفات الله (القدرة) أردف قائلا: «ويقال لهذه الفرقة أيضا: قد خالفتم ما قال يوحنا في الفصل الثاني عشر من إنجيله: إنّ المسيح رفع بصره إلى السماء، وتضرع إلى الله وقال: " يا ربّ إني أشكر استجابتك دعائي، واعترف بذلك وأعلم أنّك كل وقت تجيب دعائي، ولكن أسألك من أجل هؤلاء الجماعة الحاضرين فإنهم لا يؤمنون أنّك أرسلتني "[3]، فهذا المسيح قد

---

[1]. ولد في ميورقة في 1355م وبعد إسلامه عمل وزيرا في تونس وتوفي فيها سنة 1423م.

[2]. إنجيل متى الإصحاح: 42/26

[3]. إنجيل يوحنا، الإصحاح: 12/ 39

اعترف أن الله إلهه وربّه فتضرع إليه وشكر نعماءه وإجابته لدعائه، فكيف تقولون إن عيسى هو الله الذي خلق السماوات والأرض؟ وهل يكون في العقول السليمة أشنع من هذا؟ »[1] ثم أورد بعد كلام له « قول المسيح: " الربّ الذي أرسلني هو يشهد لي"[2].» [3].

وبعد هذه النصوص التي اقتبسها من أناجيلهم والتي تبيّن أن المسيح عليه السلام ما هو إلاّ نبي مرسل، وأورد نصا لمعتقدهم في أن المسيح الربّ هو الخالق لكل شيء، وهو كذلك الابن الولد الإله الذي ولد من مريم: «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى، ونؤمن بالرب المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها له حق من جوهر أبيه وهو خالق كل شيء»[4].

فرد عليهم ردا عقليا مقنعا فقال: «وكذب الكافر على الأنبياء، وحاشاهم أن يقولوا مثل هذا الكفر المحال...وهذا الكلام ينقض بعضه بعضا. فأوله: نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى، ونؤمن بالربّ الواحد المسيح إله حق من جوهر أبيه.

ففي أول الكلام الشهادة لله بأنه واحد، وفيما يليه الشهادة عليه تعالى بأن له ولدا، وهو إله مثله وأنه من جوهره، وهذا غاية الكفر والشرك، وفي غاية الضد والتناقض لوحدانية الله الواحد الصمد تبارك وتعالى عن كفرهم، وقد قال في أول كلامه: إن الله خالق كل شيء، ثم قال فيما بعد: ونؤمن بأن المسيح خالق الأشياء كلها الذي بيده أتقنت العوالم كلها، وأثبت أنه مع الله خالقا لكل شيء، وهذا من أفضح التناقض. وهكذا نرى أن عبد الله الترجمان يركز على تناقض أناجيلهم، ويتصيّد تضادها لخبرته بديانتهم.

---

[1]. تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، انسلم تورميدا الشهير بعبد الله الترجمان الأندلسي، تقديم وتحقيق وتعليق: محمود علي حماية، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1992م: 125.

[2]. إنجيل يوحنا، الإصحاح: 44/12.

[3]. تحفة الأريب في الرّدّ على أهل الصليب: 122.

[4]. المصدر نفسه: 101.

وكذلك قوله: إن الله صانع ما يرى وما لا يرى؛ فدخل فيه المسيح لأنه بالضرورة مما يرى، ثم عقب على ذلك بقوله:«إن المسيح خلق كل شيء، وأنه غير مصنوع»، وهذا تناقض ورعونة، لو ميزتها البهائم لأنكرتها على النصارى. وبعد ذلك يستدل الترجمان بنصوص كتابهم المقدس، فقال:«واعلموا أن في نصوص كتبهم ما يبطل هذه العقيدة، وجميع عقائد كفرهم في المسيح وهو ما قال لوقا في الفصل الرابع عشر في قصص الحواريين قال: " إن الله هو خالق العوالم بجميع ما فيها وهو رب السماوات والأرض، لا يسكن الهياكل التي طينتها الأيدي، ولا يحتاج إلى شيء من الأشياء؛ لأنه هو الذي أعطى الناس الهياكل والنفوس وجميع ما هم فيه فوجودنا به وحياتنا منه"[1]، فالنص يدل دلالة قاطعة على أن الربّ عندهم لا يسكن الهياكل التي طينتها الأيدي والمسيح عليه السلام بالضرورة هو من الهياكل، فالنصارى تسميه الناسوت وبالتالي نقض هذا النص من إنجيلهم دعوى ربوبية المسيح.

وهذا الكلام الذي قاله لوقا هو الذي نزلت به كتب الله تعالى ونطقت به أنبياءه (عليهم السلام) فقد تبين أن عقائد النصارى كلها كفر مفتعل ومحال ركيك، وتناقض قبيح لم يأخذوها عن كتب الله ولا عن أنبيائه وإنما قلدوا فيها دعاوى باطلة، وأهواء كاذبة مهّدها لهم كل كفّار أثيم ، ثم ردّ عليهم بدليل عقلي قائلا: « هذه العقيدة التي لا اختلاف فيها بين جماهيركم إن لم تكونوا نسبتموها لكتاب ولا نبي أخبرونا عنها هل هي حق أو كلها باطل؟ وإن قالوا بعضها حق وبعضها باطل فقد أبطلوا بعضها وكفروا به، لأن الباطل لا يدان به، وإن قالوا كلها حق، فقد اعترفوا فيها بأن المسيح مخلوق مولود، وأن الله تعالى خالقه، وخالق جميع ما يرى ولا يرى»[2].

[1]. تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: 103

[2]. المصدر السابق: 104.

10/ الحوار العقدي عند اليهودي إبراهيم بن سهل[1]:

أورد الونشريسي في معياره محاورة حدثت بين أحد اليهود والمفتي ابن لب الغرناطي، يسألُ فيها اليهودي عن القضاء والقدر بأبيات شعرية، يقول فيها:

أَيَـا عُـلَمَاءَ الـدِّينِ، ذِمِّيُّ دِينِكُمْ تَحَيَّرَ دُلُّـوهُ بِـأَوْضَـحِ حُـجَّةِ

إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي، فَمَا وَجهُ حِيلَتِي؟ [2]

أراد اليهودي في هذين البيتين أن يفحم المسلمين بتساءل عن القضاء والقدر، وهو يعلم أن من أركان الإسلام الإيمان بالقضاء والقدر. ولكن غرضه كان لتعجيز المسلمين لا للبحث عن الحقيقة، ذلك أنه لا يعترف بالإسلام كدين سماوي بل ليستهزئ به؛ نستشف ذلك في قوله " إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي **بِزَعْمِكُمْ** ".

وقوله : قضى بكفري ولم يرضه مني : أي يريد أن القضاء الكوني شيء ، والإرادة تعارضه ، وهذا كذب لأن الهف تعالىلم يرد لعباده الكفر وإنما ألهم كل عبد فجوره وتقواه، وتركه في هذه الدنيا ليختار طريقه، ثم يواصل اليهودي قوله:

دَعَانِي، وَسَـــدَّ البَابَ عَنِّي، فَهَل إلى دُخُـولي سَبِيلٌ؟ بَيِّنُوا لي قَضِيَّتِي

قَضَى بِضَلالي، ثُمَّ قَال: ارْضَ بِالقَـضَا فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَذِي فِيهِ شِقْوَتِي [3]

أراد اليهودي من خلال هذين البيتين أن يبرهن للمسلمين قصور عقيدتهم، وتناقضها، ثم يواصل:

---

[1]. إبراهيم بن سهل الإسرائيلي ، ولد ونشأ في إشبيلية في القرن السابع الهجري، تتلمذ على يد أساتذة النحو واللغة المشهورين في وقته، نظم الشعر والموشحات في سن مبكرة حتى عدّ شاعر الأندلس.

[2]. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 1401هـ . 1981م، ج11: 266.

[3]. المصدر نفسه: 265

فَإِنْ كُنْتُ بِالمقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيًا ... فَـــرَبِّي لا يَرْضَى بِشُــؤْمِ بَلِيَّتِي

فَهَل لِي رِضَا، مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي ... فَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي عَلى كَشْفِ حِيرَتِي[1]

أي أنّه سيرضى بالمقضيّ، وأنه مسيّر لا حيلة له، وهذا ما قاله المشركون من قبل في قوله ﷻ:لَوۡ ﴿ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا ﴾ [2]. وقوله : والله لا يرضى بشؤم بليتي : أي أنه لا إرادة له على الكفر فكيف يعذبه الله عليه ، وهذه هي شبهة المعتزلة في مسألة خلق أفعال العباد ، وهذا كله تلبيس ، وخلط بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

إِذَا شَـــاءَ رَبِّي الكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً ... فَهَل أَنَا عَاصٍ فِي اتِّبَاعِ المشِيئَةِ؟

وَهَل لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالفَ حُكْمَهُ؟ ... فَبِاَللهِ فَاشْـــفُوا بِالبَرَاهِينِ عِلتِي

يقول : لو أن الله شاء أن أكون كافرا ، وأنا اتبعت مشيئة الله فهل أنا عاصٍ ، وهل لي اختيار أن أخالف حكمه الذي حكم لي به.

وقوله : وهل لي اختيار أن أخالف حكمه ، يريد أن يجعل الحكم الشرعي حكم كوني، وإن خالفته أبغضك الله وأبعدك وعذّبك على ذلك، وينهي القصيدة بالاستهزاء وهو طلبه البراهين على صحة العقيدة الإسلامية حتى تشفي علته.

حاصله: أنه إيراد على مذهب الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها؛ بل هي عندهم واقعة بغير اختياره.

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس؛ كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرؤون منه. فيقول هذا المشبه على المسلمين، المشكك لهم، بانيا على مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميع الطوائف سوى غلاة الجهمية من الجبرية يقول: « إذا كان الله قضى علي بالكفر، وقدر علي

[1]. المصدر السابق : 265

[2]. سورة الأنعام: 148.

أن لا أكون مسلما، أو قدر علي المعاصي وأن لا أكون طائعا؛ فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي؟

وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة بعدما قضى علي الكفر والمعصية؟ فهل أكون معذورا إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان، وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها؟ كيف أجمع بين الرضا بالقضاء، وبين الرضا بالمقضي، من الكفر والمعاصي؛ فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدّرها عليّ، وهو لا يرضاها؟

11/ الحوار العقدي عند المفتي ابن لب الغرناطي[1]:

فردّ عليه ابن لب بقصيدة طويلة منها قوله:

أَلَا أَيُّـهَا الأَعـمَى المحَـيَّر لُـبُّهُ تَخَـيَّـل أَوْهَـامًـا بِغَـيرِ تَثَبُّتِ
تَعَدَيتَ طَـوراً حُـطَّ طُورُكَ دُونَهُ وَرُمـتَ مَرَاماً أَنتَ عَنهُ بِعُزلَتِي
فَأَصبَحتَ فِي تيهٍ وَعَـمـيَـاءَ سَائِراً بِغَـيـرِ دَلِيـلٍ فِي شِعَابِ مَضَلَّةِ
وَلِلسَـيرِ فِي هَـذَا المجَالِ مَـعَارِجٌ تَـرقَى فِـيهَا رُتبَـةً بَعـدَ رُتـبَةِ
تَخَطَّى إِلَى العَـليَا بِـكَ الجَهلُ ظـلةٍ وَأَنتَ عَـنِ السُّفلَى بِحَالِ مَحَطَّةِ
فَـصَدِّق وَآمِـنْ بِالنَـبِيِّ مُحَمَّـدٍ فَمِلَّـتُهُ قَدْ عَطَّلَتْ كُـلَّ مِلَّةِ
وَعَوِّلْ عَلَى عِـلْمِ الشَّرِيعَةِ وَالتَمِسْ دَلِـيلَ هُدَاهَا مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةِ»[2].

[1]. ابن لب (701هـ ، 782هـ. 1301 . 1380م) أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لبّ، الثعلبي الأندلسي الغرناطي، فقيه مالكي ومفسر أصولي، مقرئ وأديب ناظم ومتكلم، وصفه صاحب نيل الابتهاج بأنه من أكابر علماء المذهب المتأخرين ومحققيهم.(نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، إشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1989م: 357.

[2]. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 1401هـ . 1981م، ج11: 266

وردّ ابن لب الغرناطي مرتكز على قواعد الشريعة الإسلامية، فذكر له أن شريعة محمد ﷺ أبطلت كل شريعة سبقتها، وأن فهم كنهها يحتاج إلى جلد ومصابرة حتى يترقى فيها من رتبة إلى رتبة، ولكن جهل النصراني بقواعد العقيدة الإسلامي هو الذي أعمى بصيرته، غير أن الملاحظ على رد ابن لب تغليب جانب النقل على جانب العقل، ولعلّ ذلك راجع إلى أن العهد الذي عاش فيه ابن لب كان جانب التصوف بدأ يطغى على البلاد الإسلامية.

12/ الحوار العقدي عند الأديب أبي طالب عبد الجبار[1]:

نَظَمَ الأديب أبو طالب عبد الجبار منظومة علمية تاريخية طويلة، ضمّنها جملة من الموضوعات على اختلافها، ولعل من أهم هذه الموضوعات مبدأ توحيد الخالق بأدلة عقلية منطقية، مهد له بتقسيم العلوم جاعلا العلم القديم هو معرفة الإله ﷻ، والعلم المحدث هو العلم الذي يتناول أمور الحياة فقال:

وَالعِلْمُ عِلْمَانِ أَيَا مَنْ يَبْحَثُ عِلْمٌ قَدِيمٌ ثُمَّ عِلمٌ مُحدَثُ
إِنَّ القَدِيمَ عِلمُ رَبِّ العَرشِ بَارِي البَرِيَّةِ الشَّدِيدِ البَطشِ
وَكُلُّ عِلمٍ مُحدَثٍ عِلمَانِ عِلمٌ ضَرُورِيٌّ بِلَا بُرهَانِ
كَالعِلمِ أَنَّ اثنَينِ ضِعفُ وَاحِدٍ وَأَن لَيسَ قَائِمٌ كَقَاعِدِ [2]

ثم انتقل إلى البرهنة على وحدانية الله بمنطق الاستدلال والتفكر والتدبّر، فقال:

وبعدَهُ فَعِلمُ الاسْتِدلَالِ وَالمنطقُ الباحثُ عن أَحْوالِ
مَا فيهِ مَا يَنظُرُ مَن يُفَكِّرْ يُدرِكُ هَذَا كُلُّ مَن يَعتَبِر
وصَانِعُ العَالَمِ فَردٌ صَمَدٌ وَالصُّنعُ لمَ يُشرِكْهُ فِيهِ أَحدْ

[1]. من أهل شقر، كان يعرف بالمتنبي، له أرجوزة في التاريخ عاش إلى زمن المرابطين (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/1: 916).

[2]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 2/1 :924

فَصُنعُ الاثنَينِ اشتِرَاكٌ مِنهُمَا لَا يَخـــــلُوَانِ مِن تَـــغَايُـــرِهِمَا

وَكُلُّ مَا زَادَ عَـلَى اثنَينِ كَـذَا مَن خَالَفَ التَّوحِيدَ فَهُوَ قَـد هَذَى

وَالانــفِرَادُ غَايَــةٌ فِي المدحِ وَالاشْتِرَاكُ مِن دَوَاعِـــي القَــدحِ [1]

أقرّ أبو طالب عبد الجبار من خلال هذه الأبيات وحدانية الله وأنه ﷻ لا شريك له بأدلة عقلية؛ ثم انتقل للردّ على النصارى واليهود والمجوس والبراهمة ونقد عقائدهم فقال:

وَلِلنَــصَــارَى القَــولُ بِالتَّثلِيثِ أَفظِعْ بِه مِن مَـذهَـبٍ خَبِيثِ

وَطَابَقُـوا اليَّــهُودَ فِي التَّجسِيمِ أُفٍّ لَـــهُ مِن مَـذهَبٍ ذَمِيمِ

وَلِلــبَرَاهِـــمِـــيَّةِ وَالمجُــوسِ مَقَــالُ سُـوءٍ لَيسَ لِلقُدُّوسِ

جَــلَّ الإِلَــهُ الفَـردُ عَـن شَرِيكٍ فَهُــوَ ذُو التَّقدِيسِ وَالتَّبرِيكِ [2]

حكم أبو طالب على عقيدتي اليهود والنصارى بالضلال لأنهما خالفتا جوهر التوحيد فالنصارى قالوا بالتثليث أي أن الله تعالى معه شركاء ـ تعالى الله عن ذلك ـ واليهود جسموا الباري ﷻ وبالتالي هدموا أهم ركن من أركان الإيمان لأن كل جسم هو بالضرورة محدث، وكل محدَثٍ إلاّ له من محدِث.

كما أشار إلى عقيدتي البراهمة والمجوس الذين أساءوا إلى الذات العلية، ثم ينتقل إلى تقرير الوحدانية من خلال التدبّر في هذا الكون فيقول:

وَكُلُّ مَحسُوسٍ فَـذُوا ابــتِدَاءْ وَمُـــــدَّةٍ تُفـــضِي إِلَى انتِهَاءْ

.....

وَكُلُّ شَيءٍ جَـوهَرٌ أَو عَرَضْ إِلاَّ الذِّي الطَــوعُ لَهُ مُفتَرَضْ

.....

[1]. المصدر السابق: 2/1 :925

[2]. المصدر نفسه: 2/1: 925

وَتَعـلَمُ الأَنـوَاءَ وَالمـنَــازِلْ ذَا طَـــالِعٌ مِـنـــهَا وَهَذَا آفِلْ

شَـــوَاهِدُ تَشهَدُ بِالتَّوحِيدِ لِلوَاحِـــــــدِ المبتَدِعِ الحَمِيد [1]

13/ الحوار العقدي عند أحمد بن قاسم الحجري "أفوقاي"[2]:

يعد كتاب "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" للمورسكي أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي أحد أهم المصادر التاريخية التي أرّخت لتلك الفترة التي عاش فيها الأندلسي بدينين، النصرانية ظاهراً، والإسلام باطناً، وقد وثّق لنا الحجري حوارات دارت بينه وبين مجموعة من القسيسين والرهبان ، حاول كل طرف أن يثبت صحة دينه. على أن الطابع العام الذي ساد هذه المحاورات غلب عليه الجانب العقلي في توظيف الحجة والدليل، فقد استعملت الحجج العقلية القائمة على المنطق والقياس، لسعة اطلاع الحجري العميق على دين النصارى، فقد عاش ما يقارب اثنتين وثلاثين سنة في إسبانيا والمرجح أنه عاشها كمسيحي في ظاهره، ودليلنا في ذلك أنه تحدث عن تفاصيل العبادات المسيحية، حيث يبدو أكثر إطلاعا على نظريات النصارى، خاصة في مسألة التثليث، وسنعرض فيما يلي بعضاً منها:

---

[1]. المصدر السابق: 2/1: 926

[2]. هو شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري المعروف بأفوقاي (Abogado)، ;وتعني محامي أو قانوني، ولد بالأندلس سنة 1569م، انقطعت أخباره بتونس بعد سنة 1640 م، هو رحالة ومترجم موريسكي ودبلوماسي مغربي، ينتسب إلى قرية "الحجر"، إحدى قرى غرناطة، هرب من إسبانيا ولجأ للمغرب وعمل في خدمة سلاطينها السعديين بدايةً في بلاط كل من أحمد المنصور الذهبي وزيدان الناصر وأبو مروان عبد الملك بن زيدان إلى غاية فترة السلطان الوليد بن زيدان .أهم مؤلف للحجري هو كتابه في أدب الرحلات المعنون رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب .وله غير ذلك «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع» ترجمها عن الإسبانية في 10 ربيع الثاني 1048 هـ، وترجم عن الأسبانية أيضا رسالة تسمى «الزكوطية» في علم الفلك .(الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 15، 2002م: 198/1.)

يقول أفوقاي:« وجاء إلينا تاجر كنت عرفته في مراكش اسمه فرط، ولطول مكثه ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غاية، وبدا يتكلم في دين المسلمين، ويشكر دينه. وقال: المسلمون في دينهم مباح الزنا والسرقة، قلت: هذا باطل، قال: بل صحيح لأني سمعت علماءكم يقولون أن بعضاً سأل نبيكم، قال: المومن يزني؟ قال له: يزني، قال: والمومن يسرق؟ قال: يسرق، قال أيضاً: المومن يكذب؟ قال له؟ المومن ما يكذب. قلت له: المومن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني، ...» [1]، في هذه الفقرة حاول التاجر توظيف حديث النبي ﷺ لدعم حجته. ولكن ردّ عليه الحجري بأدلة قاطعة تدحض حجّته مستمدا إياها من شريعة المسلمين وما درجوا عليه من إقامة الحدود، وقد كانت مطبقة في ذلك العهد، فكيف يعقل أن مسلما يسرق ربع دينار فتقطع يده، أو يزني المحصن فيرجم حتى الموت وهو أكبر دليل على أن الإسلام لم يبح لا السرقة ولا الزنا، قال: « وكيف تقول ذلك وعندنا أن من يسرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده شرعا، وإذا زنا المحصن يرجم إلى أن يموت »[2]. لينتقل التاجر إلى التباهي بعقيدة دينه، فقال: « ثم زاد في مدح دينه إلى أن قال: سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله، وابن إنسان، وأنه مات ليخلص الذنب الأول عن سيدنا آدم عليه السلام»[3].

فأجابه الحجري بطريقة مختلفة، ذلك أنه استعمال أبياتا شعرية نسبها للقاضي عياض، وهو أمر نادر في محاوراته، فتقريبا هذه هي المرة الوحيدة التي يستعمل فيها حجة شعرية في ردّه على النصارى، وهو ما يمكن أن نفسره بالمعرفة الجيدة للطرف الآخر باللغة العربية لطول مكثه ببلاد المسلمين كما أخبرنا به الحجري؛ قال: « قلت: أقول لك في الجواب شعرا نسبه بعض للقاضي عياض، وهو هذا:

---

[1]. رحلة أفوقاي الأندلسي ـ مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب ـ ، أحمد بن قاسم الحجري " أفوقاي"، حرّرها وقدّم لها: محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2004: 49.

[2]. المصدر نفسه: 49

[3]. المصدر نفسه: 49

عَجَبًا لِلنَصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَإِلَى وَالِدٍ نَسَبُوهُ
أَسْلَمُوهُ إِلَى اليَهُودِ وَقَالُوا إِنَّهُمْ بَعْدَ صَلْبِهِ قَتَلُوهُ.
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا فَاسْأَلُوهُمْ أَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
فَإِذَا كَانَ رَاضِيًا لِأَذَاهُمْ فَاشْكُرُوهُمْ لِأَجْلِ مَا عَذَّبُوهُ
وَإِذَا كَانَ سَاخِطًا لِأَذَاهُمْ فَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ [1]

فبهت التاجر ولم يعرف ما يقوله».

ويعرض علينا الحجري حوارا آخر دار في مجلس السلطان السعدي أحمد بأسلوب جذاب ومشوّق؛ قال: « وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش، وكان راهباً ثم أسلم، وسمي برمضان، ثم مشى إلى بلاد السودان، ومات بها . والله أعلم .، وقال لي: إن السلطان مولاي أحمد . رحمه الله تعالى . أمر بإحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى، فقال له: ماذا تقولون في سيدنا عيسى عليه السلام ؟ قال: إنه أحد الثلاثة في الألوهية أو كما قال: وإنه مات ليخلص العالم من الذنب الأول الذي عمله أبونا آدم. قال له السلطان: أنا أضرب لك مثلا حتّى ترى الغلط الذي أنتم عليه، فقدر أنني أمرت أن من يدخل في هذا البستان الذي بدارنا السعيدة نقتله، واتفق أن واحدا ممن علم بالمنع دخل في هذا البستان وعصاني، فلما صحّ ذلك عندي أمرت الخدام أن يأتوني بابنين فلما أحضروه قلت لهم: اقتلوه لأجل دخول فلان في الجنان الذي نهيت عن الدخول فيه. قال للراهب: هذه مسألتكم على زعمكم أن عيسى هو ابن الله وقتل، وهل يقول عاقل بمثل هذا القول؟ فخرس الراهب وبهت، ولم يجد ما يجاوب به، قلت له: هذا الكلام لم يبق لكم ما تقولون»[2].

[1]. المصدر السابق: 50.

[2]. المصدر نفسه: 50

غيّر أفوقاي طريقة إثبات فساد عقيدة النصارى ، ذلك أن عرضه لهذه القصّة يبيّن قدرته على البرهنة بأساليب متعددة ، ويجعل منه محاورا صعب المراس.

لجأ أفوقاي إلى طريقة أخرى لإقناع الراهب بفساد عقيدة النصارى، فحاشا الباري ﷻ أن يكون ظالماً، بأن يجعل الابن يدفع ثمن خطيئة الأب، فهذا محال في حقّ المولى جلّ وعلا .

وكما ذكرنا، يتخيّر الحجري في كلّ مرة سلاحه الحجاجي بحسب الطرف المقابل، ففي المحاورة التالية نجده يفحم خصمه وهو مقيم بين ظهرانيهم بعرض مثلٍ على شكل قصة؛ قال فيها: «ولما دخلنا رأينا الحيال والمترهبين يجذبون الماء به، ورأيت الرهبان باللحا غير مقصوصة، ما ليس من عادة المترهبين، قلت لأبرت: هذا الرهبان عندهما أولاد؟ قال . وهو متعجب كيف تسأل عن أولادهم . : أما علمت أن الرهبان لا يتزوجون؟ قلت: رأيتهم بلحا طول، فاستدللت (كذا) أنه يكون لهم أولاد وأنا عارف بأمرهم، قال لي: الدراوش على أنواع. وسأله الراهب عنّي، قال له: مسلم من مراكش، فتعجب وقال: بلغني أن أخي فلانا شقيقي كان بإصطنبول ودخل في دين التركيين ونفسي تحدثني أن أمشي إلى تلك البلاد نلتقي بأخي، قال له أبرت: ماذا تريد ببلاد المسلمين؟ قلت للراهب: هل هو أفضل عند الله تعالى، وعندكم ترك الزواج. قال الراهب: كثير يتزوجون، قلت له: قدر أن السلطان نادى رجلين وأنعم عليهما، فالواحد قبل نعمة السلطان وشكره عليها شكرا دايما، والثاني لم يقبلها، وذلك أن الله . عزّ وجلّ . زين هذا العالم من أجل بني آدم الذي يعمل قدر جهده ليكون له أولاد ليشكروا الله تعالى بعده على ما أنعم عليه فهو بشاكر، والذي لم يقصدهم ولا يريدهم فليس بشاكر. قال كثير من يتزوجن قلت: الزواج سبب في الأولاد لعمارة العالم وعبادة الله، والشكر عليها، لأن الإنسان فانٍ، ... ثم قلت له: هل في دينكم يوم الحساب؟ إذا سئل إنسان عن عمل صالح تركه أو عمله، هل ينجو بقوله أنا ما عملته ولكن عمله غيري؟ فتوقف الراهب عن الجواب، وقال لنا: ادخلوا معي فدخلنا بستانا. وبينما كنا سائرين في الطريق بين الأشجار رأيت شجرة

لم تثمر، قلت: لماذا غرستم هذه الشجرة؟ قال: لتثمر وتعمل فاكهة، قلت: إذا لم تعمل فاكهة ما يصنع بها؟ فتبسّم. وعلم أن المثال كان عليه»[1].

فالحجة بالغة والرسالة التي أراد الحجري أن يوصلها للراهب وصلته ، ذلك أنه لم يستطع حتى الحديث معه، فاكتفى بالابتسامة.

ومن النماذج التي عرضها الحجري، اللقاء الذي جمعه مع نسوة نصرانيات من علية القوم، وأرادت إحداهن أن تحرجه بسؤال في العقيدة؛ قالت بعد أن أظهرت غضبا: «كيف بكم لم تعرفوا الله؟»[2]، غير أن اطلاعه على دين النصارى وعاداتهم في المحافل، جعل أسئلتها ترتدّ عليها؛ قال لها: « .... البرهان بما قلت في كتابك الذي عندك، وبه تثبت ما قلت لك. فأخذت الكتاب ووضعته بين يدي على المائدة، وقالت: ها هو الكتاب. قلت لها: انظري العشرة الأوامر الربانية. ففتشت في الكتاب ، وقالت: ها هي. قلت لها: اقرئي الأمر الأول من العشرة في دين الله فقرأت، وقالت: الأمر الأول من العشرة: قال الله تعالى: لا تعمل صوراً، ولا تعبدها، اعبد الله وحده، ولما أن قرأته قلت لها: المسلمون ما يعملون صوراً ولا يعبدونها ويتحفظون من ذلك حتى أن النسا اللاتي تَرْقَمْنَ لم تصورن في رَقْمِهَا أبدا شيئا فيه روح. قالت: ليس عبادتنا للأصنام لذاتها، إنما ذلك للمشبه به. قلت لها: كان لي أقوله لك في الشبيه والمشبه، ولكن أتركه لنحرك لمسألة أخرى لن تجدي لها جوابا. قالت: ماذا هي؟ قلت لها: الأمر الرباني بالنص قال: لا تعملوا صوراً ، ولا تعبدوها، قالت : نعم ، قلت لها: تعملون أصناما أم لا ؟ فكان لها إنصاف للحق وعقل، ونظرت النسا، وقالت لهن بلسانهن: غلبني وما وجدت بما نجاوبه به»[3].

---

[1]. المصدر السابق: 56

[2]. المصدر نفسه: 73

[3]. المصدر نفسه: 74.

لقد حاور الحجري المرأة حوارا عقليا محضا، متخذا من الكتاب الذي تحملنه نساء كبار القوم في كل محفل عندهم ، حجة لدحض ادعاءاته ا ، مقترحا عليها جزئية واحدة بسيطة في أول ذلك الكتاب، متمثلة في الصور والأصنام؛ فقد حاول الحجري أن يثبت لها من خلال الإنجيل أن الرسم والأصنام محرّمان، متجاوزا بعد ذلك مخاطبة هذه المرأة إلى مخاطبة القارئ مباشرة من خلال إيراده حججاً من التوراة ثم أحاديث للرسول ﷺ، تنهى عن التصوير وصنع الأصنام.

ومن النماذج التي استشهد بها الحجري في مختصره، حديثه عن الجنّة ونعيمها وما تبيّن لقسيسين أنه تعارض واضح بين صفة الجنّة ويقوله المسلمون؛ قال الحجري: « ... جاء إليها قسيسان لقضاء غرض قيل لهما عنّي إنّي مسلم، وجاءاني وقالا لي : أنت مسلم؟ قلت لهما: نعم، قالا: تعتقدون أن في الجنة أكلاً وشرباً وتنعما مثل ما في الدنيا، قلت لهما: لمَ تنكران ذلك؟ قالا: لأن من تُفْل الطعام تكون النجاسة، ومن المحال أن تكون النجاسات فيها، قلت لهما: أما عندكم في كتبكم أن الله تبارك وتعالى حين خلق أبانا آدم عليه السلام أذن له أن يأكل من جميع الفواكه في الجنّة، إلا من شجرة واحدة، قال له: لا تأكل منها، لأنك إذا أكلت منها تموت. قالا: هكذا هو، قلت لهم: لولا أكل من الشجرة لكان فيها إلى الآن، قال نعم هو كذلك، قلت: فكان يأكل من الفواكه ولم يعمل له تُفْلاً، وكذلك لو بقي غلى الآن. وأما التفل ما كان إلا من فاكهة الشجرة المنهي عنها، وكذلك رجع أبونا آدم عليه السلام وجميع من كان من أهل السعادة من أولاده يأكلون فيها، ولا تخرج منهم نجاسة أبدا. قالا: الجنة التي كان فيها أبونا آدم كانت في الأرض، والتي تمشي غليها الناس في الآخرة هي السماء قلت: ما كان أبونا آدم عليه السلام إلا في السماء لأن كل ما يكون في الأرض لا يسقي بجنة لأنه مقهور بالعناصر

الأربعة، ولا بد من التغيير بسببها، ولا بد من النور والظلمة، والجنة ليس فيها تغيير ولا ظلمة. وهذا برهان سيدنا آدم عليه السلام كان في جنة من السماء، فبهت الذين كفروا»[1].

فقد بيّن لهما بأوضح حجة أن ما يقوله المسلمون عن الجنة لا يتعارض مع عقل ولا نقل.

ولا يتوقف الحجري عند هذا الأمر ، بل ينتقل إلى الحديث طرق استدراج النصارى للمسلمين حتى يقعوا في الشرك، مفصلا في الحديث عن الفرق بين الذات العليّة المنزهة عن الشبيه والمثال في عقيدة المسلمين، وصفة الإنسان التي هي حادثة وغيرها من صفات النقص؛ قال:« ... وقرأت الرسالة ، وبان لي مما كتب أنه من أكابر علمائهم . وكان في أعلى البراءة صليب مكتوب كما هي من عادتهم، فكتبت له الجواب ، وقلت له أن يصير نجد مفصلا للكلام مع السلطان. ولما أنه صدر في أعلى كتابه الشرك بصورة الصليب الذي يعبدونه، كتبت أن في أعلى الكتاب توحيد الله تعالى الذي هو ضد الشرك، وكتبت بالأعجمية: بسم الله الواحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله. وبعد أن قرأ الجواب كتب لي براءة ثانية ، وذكر فيها كلاما عن الذات الكريمة والصفات والأفعال ، موافقا لتوحيد المسلمين . ثم قال الله تبارك وتعالى: خلق آدم على هيئته، أو على مثاله. وهذا القول هو ابتداء شركهم، لأن مرادهم بالتشبيه أن سيدنا عيسى عليه السلام له أصل في ذلك الخلقة للألوهية، التي يقولون فيه . لعنهم الله وأخزاهم . ثم كتب له الجواب على الكفر الذي ذكر في كتابه، وقلت له: الله تعالى منزه عن الشبيه، والمثال.

وبرهان ذلك أن أبانا آدم عليه السلام ولا شيء من جميع المخلوقات ، فلا تشبه إلى الله تعالى في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. أما ذات الإنسان فهي حادثة، والله تبارك وتعالى قديم، والإنسان فان، والله تعالى باق على الدوام، والإنسان مفتقر أبدا إلى المحل، والله تعالى غني

[1]. المصدر السابق: 78.

عنه، وقائم بنفسه ، والإنسان مفتقر أبدا، والله تبارك وتعالى هو الغني، وكل ما سواه مفتقر إليه»[1].

ثم عرض الحجري مسألة في غاية ، تبيّن بجلاء فساد عقيدة النصارى، متخذا من المثال قالباً لبسط نظرته؛ قال:« ....وبعد أن فرغت من الجواب للراهب كتبت له سؤالا في دينه . لما علمت من سوء اعتقادهم . وهذا معناه: ما قولكم في دينكم في رجل زنا بامرأة محصنة، وحملت منه ، وولدت، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر زوجه، وأعطاه حظا من ماله، واشتكى يوم الحساب لله سبحانه من زوجته، وممن زنا بها، والمال الذي أنفق، وأعطى لابن الذي زنى بها، فأحضر الزاني والزانية، وقيل لهما في ذلك، فقالت المرأة: أنا ذكرت ذنبي للقسيس الفلاني، وغفر لي، وقال الزاني: إنه ذكر ذنبه لقسيس في الدنيا وغفر له ذنبه، والسؤال منكم ايها الراهب ، العالم في دينه، هل بقي للرجل المظلوم ما يطلب أم لا، وكتب الجواب ، وقال : ليس للرجل ما يطلب من زوجته، ولا ممن زنى بها بعد استقرارهما في الدنيا للقسيس من الذنوب، لأنه غفر لهما ولم يبق للزوج حق عليهما»[2].

[1]. المصدر السابق: 121

[2]. المصدر نفسه: 123

ب/ الحوار في قضايا الكتب السماوية:

1/ تعريف الكتب السماوية: الكتاب لغة: مصدر كتب كتبا وكتابة، أي قضى وألزم وفرض. وكتب الكتاب: خطه، وجمعه كُتُب. والسماوية: نسبة إلى السماء، أي المنزل من السماء.

وأهل الكتاب يسمونه المقدّس: أي المطهّر، يقال: قَدُس قُدْساً وقُدُساً؛ أي طهر وتنزه وتبارك[1].

واصطلاحا: هو الكتاب الموحى به من الله ﷻ إلى أحد الأنبياء، كالقرآن الكريم الذي أنزل على النبي محمد ﷺ، والتوراة الذي أنزل على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام.

2/ شروط صحة الكتاب السماوي: وضع العلماء والباحثون شروطا لقبول الكتاب السماوي والتسليم بأنه حُجَّة، وأهمها ما يلي:

- أن النبيّ الذي ينسب الكتاب إليه قد ثبتت نبوته وعلم صدقه يقينا بوساطة دلائل النبوة المعروفة من معجزات وغيرها.
- أن يذكر ذلك النبي بصراحة ووضوح أن الله سبحانه أوحى به إليه، ويثبت ذلك بالدليل التام، أو بالكتاب نفسه إن كان معجزا.
- أن تكون نسبة الكتاب إلى النبي، وصلت إلينا بالطريق القطعي، وذلك بأن يثبت أولا أنه كتب بين يديه، وضبط من قبله، ثم تلقاه الأخلاف عن الأسلاف، جيلا بعد جيل،

[1]. وقدس الأقداس عند اليهود: مكان من الهيكل، كان يدخله عظيم الأحبار عندهم في السنة مرة واحدة. والقدّاس عند النصارى: ذبيحة جسد ودم المسيح، يقدّمان على الهيكل تحت شكلي الخبز والخمر، والجمع قداديس (المنجد)

من غير أية مظنّة للانتحال أو التحريف أو التبديل أو الزيادة أو النقص. وأساس ذلك التواتر، أو على الأقل السند المتصل المشهور.

– ألاّ يكون ذلك الكتاب متناقضا أو مضطربا، يهدم بعضه بعضا، فلا تتعارض تعاليمه، ولا تتناقض أخباره، بل تتآزر وتتضافر، ويكون كل جزء منه مكملا للآخر.

– ألاّ يخالف الحقائق والوقائع الثابتة القطعية، فإن الشرائع السماوية تأتي بما تحار فيه العقول، لا بما تحيله[1].

وفي هذا الجزء من البحث سنتقصى تلك الحوارات المتعددة حول الكتب السماوية التي احتضنتها بلاد الأندلس وسنقوم بعرض بعض ما دار بين علمائها:

3/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند الإمام ابن حزم:

قال الإمام ابن حزم أن أهل الكتاب يزعمون أن الأسفار الخمسة الحالية التي بين أيديهم هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وهي التي كتبها بيده، وأنها ليست مكذوبة ولا محرفة.

ويدّعون أيضا أن أسفار كتابهم المقدس كانت منتشرة شرقا وغربا، ووصلت إليهم خلفا عن سلف، فلا يمكن تحريفها.

وقد ردّ ابن حزم ببرهان ساطع لا يقبل التأويل ولا المجادلة، ذلك أنه أورد نصا من توراتهم يبيّن تناقض قولهم تناقضا تاما ويجافي كل ما يدعونه، موردا نصا من توراتهم جاء فيه: « فتوفي موسى عبد الله بذلك الموضع في أرض موآب، مقابل بيت فَغُور، ولم يعرف آدمي موضع قبره إلى اليوم.وكان موسى يوم توفي ابن مئة وعشرين سنة، لم ينقص بصره، ولا تحركت أسنانه، فنعاه بنو إسرائيل في أوطنة موآب ثلاثين يوما. ثم إن يشوع بن نون امتلأ من روح الله، إذ

[1]. إظهار الحق ، رحمة الله الهندي، طبعة المغرب وطبعة إحياء التراث الإسلامي بقطر، 1400هـ . 1980م:56/1.

جعل موسى يديه عليه، وسمع له بنو إسرائيل، وفعلوا ما أمر الله به موسى، ولم يخلف موسى في بني إسرائيل نبي مثله، ولا من يكلمه الله مواجهة في جميع عجائبه التي فعل على يديه بأرض مصر في فرعون مع عبيده وجميع أهل مملكته، ولا من صنع ما صنع موسى في جماعة بني إسرائيل»[1].

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ، وهذه الوفاة: أنها ليست مما أنزل الله على موسى، ولا مما كتبها موسى عن نفسه. وإنما هي من إثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان. ويدلك على ذلك قوله: « ولم يعرف إنسان موضع قبره إلى اليوم »[2] يريد به اليوم الذي كتب فيه هذا؛ وهذا بيّن عند المنصف. ومع بيانه فليس أحد من اليهود والنصارى فيما أعلم يقول: إن التوراة زيد فيها شيء بعد موسى، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره، بل كلها عندهم كلام الله، وهذا جهل عظيم، وخطب جسيم. فهم بين أمرين: إما أن يقولوا: أن هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى وأخبر به موسى، أو يقولوا: إنه ليس مما أخبر الله به موسى، ولم يخبر به موسى. فإن قالوا: الأول فإن المفهوم منه على القطع: أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان. وإن قالوا: بالقول الآخر. قيل لهم: فلأي شيء خلطتم كلام الله بكلام غيره، وأجريتموها على نسق واحد، وزدتم على كلام الله، ولم تشعروا بذلك، بل نسبتم كل ذلك إلى أن الله أنزله؟ وإذا جاز زيادة مثل هذا، ولم يتحرز منه، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا يصح نسبتها إلى الله زائدة، ولاسيما الحكايات الركيكة التي تحكي فيها عن الأنبياء التي لا يليق ذكرها بسفلة الناس، وغالب الظّن، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى: أن السفر الأول الذي هو سفر البدء والأنساب مما زيد على كلام الله تعالى، ولم يشعروا بزيادته . ويؤكد ابن حزم أن هذه التوراة

---

[1]. هذا النص من سفر التثنية 5/34 . 12 (نقلا عن كتاب توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي، عبد الوهاب عبد السلام الطويلة ، دار القلم ، دمشق، ط1، 1425هـ . 2004م: 62)

[2]. سفر التثنية: 34: 6 (نقلا من المرجع السابق: 63)

كتبت بعد وفاة موسى، فقال ما يلي:«هذا آخر توراتهم وتمامها، وهذا الفصل شاهد عدل، وبرهان تام، ودليل قاطع، وحجة صادقة في أن توراتهم مبدلة، وأنها تاريخ مؤلف،كتبه لهم من تخرّص بجهله، أو تعمّد بكفره، وأنها غير منزلة من عند الله تعالى، إذ لا يمكن أن يكون هذا الفصل منزلا على موسى في حياته، فكان يكون إخبارا عنهما، لم يكن بمساق ما قد كان، وهذا محض الكذب،تعالى الله عن ذلك»[1].

وقوله:« لم يعرف قبره آدمي إلى اليوم» بيان لما ذكرنا كاف، وأنه تاريخ أُلِّف بعد دهر طويل، ولا بدَّ[2]. كما يزعمون أن القرءان شهد بصحة التوراة، كما يزعم النصارى أن عيسى عليه السلام شهد بصحة التوراة، وأن القرءان شهد بصحة الإنجيل.

وقد حفظ التاريخ نصّ محاورة دارت بين ابن حزم الأندلسي وإسماعيل بن النغريلة اليهودي، الذي التقى به في مالقة سنة 404هـ، وسأله عن قول التوراة: «لا تنقطع من يهوذا المخصرة، ولا من نسله قائد حتى يأتي المبعوث الذي هو رجاء الأمم»، فقال ابن النغريله:« لم تزل رؤوس الجواليت ينتسلون من ولد داود، وهم من بني يهوذا، وهي قيادة وملك ورياسة» فقال ابن حزم: «هذا خطأ، لأن رأس الجالوت لا ينفذ أمره على أحد من اليهود، ولا من غيرهم، وإنما هي تسمية لا حقيقة لها، ولا له قيادة، ولا بيده مخصرة...» [3]. ثم لم يذكر ابن حزم ماذا كان رد ابن النغريله عليه، وفي موضع آخر تساءل ابن حزم عن قول إبراهيم –عليه السلام– إن سارة أخته، فقال ابن النغريلة: «إنّ نص اللفظة في التوراة "أخت"، وهي لفظة تقع في العبرانية على الأخت، وعلى القريبة، فقال ابن حزم: يمنع من صرفنا هذه اللفظة على القريبة ها هنا

[1]. توراة اليهود والإمام ابن حزم: 62.

[2]. المرجع نفسه: 62.

[3]. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: 1/ 152-153.

قوله: لكن ليست من أمّي، وإنما هي بنت أبي، فوجب أنه أراد الأخت بنت الأم، قال: فخلط ابن النغريلة ولم يأت بشيء»[1].

كما روى ابن حزم في إحدى رسائله أنه كان يتردّدُ على دكان لطبيب يهودي يدعى إسماعيل بن يونس، وأنه كان يناظره، ثم يدعوه إلى الإسلام، وقد تحدث عنه فقال: «وكان يقول إذا دعوناه للإسلام وحسمنا شكوكه ونقضنا عِلَلَه: الانتقال في الأديان تلاعب»[2].

4/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند ابن أبي عبيدة الخزرجي:

رأى ابن أبي عبيدة أن العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) ما هما إلاّ حكايات وتواريخ وكلام كهنة، وأقسم أن تاريخ الطبري أصح نقلا من الإنجيل مع أن التاريخ لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمور الدّين [3]؛ فنقدَ العهدين القديم والجديد مُ ثبتًا أن هذه الكتب قد تعرضت من الناحيتين الزمانية والمكانية للتحريف والتبديل، وتتبين ذلك فيما يلي:

أ) اختلاف نسخ التوراة التي بأيدي اليهود، فيذكر ابن أبي عبيدة أن التوراة السامرية تخالف توراة باقي اليهود ، وكلا الفريقين يتهم الآخر بالتحريف[4].

ب) الإنجيل الحقيقي المنزل على عيسى عليه السلام مفقود، فيتساءل ابن أبي عبيدة: «أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟ وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟»[5]؛ وفوق ذلك لم يتوفر

---

[1]. المصدر السابق: 1/ 135.

[2]. المصدر نفسه: 1/ 114.

[3]. مقامع الصلبان، الخزرجي (تح: محمد شامة): 157.

[4]. المصدر نفسه: 239

[5]. المصدر نفسه: 157

للتوراة الانتشار لاسيما أنها كانت .كما يذكر ابن أبي عبيدة . طول مدة ملك بني إسرائيل عند الكاهن الهاروني وحده[1].

ت) إقرار اليهود على اتفاق سبعين كاهنا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة، ويضع الخزرجي قاعدة علمية سليمة قال فيها: « ومن رضي تحريف موضع في كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف الكثير»[2].

ث) ومن التناقضات الفاضحة التي وردت بين إصحاحات الإنجيل الواحد (المحرّف) أن المسيح قال: « وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق» [3] ؛ وأخرى قال فيها: « إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حق»[4]، فكيف لنبي مرسل من عند الله تعالى يقول أن شهادته ليست حق وهو يحمل رسالة ربانية، ولعمري هذا هو الحمق بعينه.

ج) ومن التناقضات التي تثبت تحريف التوراة ادعاء اليهود أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، ويعلل الخزرجي بشكل منطقي أن هذا خطأ ودليله أن شعائر الحج من الذبح والنحر تتم بمنى موطن إسماعيل وذريته[5].

5/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند أبي الوليد الباجي:

أشار أبو الوليد الباجي في رسالته إلى راهب فرنسا، تعارض الأناجيل وتكذيب بعضها لبعض، فمن ذلك اضطراب الأناجيل في عدد وأسماء آباء المسيح إلى يوسف بعد ذكر شركهم ونقضه وبيان التوحيد، تكلم على نبوة محمد ﷺ وثبوتها في كتبهم التي تعرضت للتغيير

[1]. المصدر السابق: 238

[2]. المصدر نفسه : 239

[3]. إنجيل يوحنا صح 8 عدد 14.

[4]. إنجيل يوحنا صح 5 عدد 31.

[5]. المقامع للخزرجي (تح: محمد شامة): 247.

والتبديل، قال: «فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها ما دلنا على أنه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

ومن ذلك ما في الإنجيل من رواية متى: أن بين إبراهيم ويوسف ـ الذي تزعمون أمه زوج مريم ـ اثنتان وأربعون ولادة. وفي رواية لوقا: بين إبراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا، ليس فيهم من أسماء الذين في رواية متى إلاّ عدد يسير، ولا تكاد هذه الروايات تتفق في شيء، والإيمان بها عندكم واجب ـ على اختلافها ـ لأن الإنجيل كتابكم و أصل شرعكم فكيف يصح لكم الإيمان بما يختلف ولا يتفق، ويتباين ولا يتعاضد؟ وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير، لا يمكن لأحد الزيادة فيه ولا النقصان ، والذي يقرأ به من في أبعد المشرق، هو الذي يقرأ به من في أبعد المغرب، دون زيادة حرف ولا لفظة ولا اختلاف في حركة ولا نقطة»[1].

6/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند الإمام القرطبي (صاحب كتاب الإعلام):

الإنجيل: تفرد الإمام القرطبي في مسألة الكتب السماوية بقوله أن الإنجيل الذي يتدارسه النصارى ليس بكتاب سماوي، بل هو محض سير فقال:« إن هذا الكتاب الذي بيد النصارى اليوم الذي يسمونه بالإنجيل ليس هو الإنجيل ... وإنما قلنا هذا في الإنجيل دون التوراة، لأن التوراة قد ثبت عندنا وعندهم أن الله تعالى كتبها في الألواح لموسى عليه السلام. وتدعي اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح... ثم إنه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره. وأما الإنجيل فقد توافق هؤلاء النصارى على أنه إنما تلقي عن اثنين من الحواريين وهما ماركس ولوقا، وأن عيسى لم يشافههم بكتاب مكتوب عن الله كما فعل موسى... فكان منهم من كتب بعض سيرة عيسى وبعض معجزاته وبعض أحواله حسب

[1]. رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد عليها: 86 ـ 87.

ما تذكر »[1]. ثم أورد مجموعة من الاقتباسات عن العلماء الذين سبقوه وخاصة الإمام الخزرجي، فلبان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل، وأنها لم تنقل نقلا متواترا فلم تسلم لأجله من الخطأ والتخليط والزلل. وقد أوضح ذلك ببيان ساطع كسطوع الشمس أنها ليست منزلة من عند الله بل زيد فيها ونقص وبدّلت شرائعها وغيّرت، إذ يقول: «وكثيراً ما يوجد بينهم من اختلاف مساق وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان ...»[2].

ثمّ ابتدأ بذكر تناقضهم . التي اقتبس كثيرا منها وغيرها في كتابه عن الإمام ابن أبي عبيدة الخزرجي في كتابه مقامع الصلبان . بقوله:

فأول ذلك: أنهم ذكروا في أول ورقة من إنجيل يوحنا حيث ذكر المسيح فقال: «ولد المسيح الذي هو بادئ الأشياء وعلتها الأولى، علّة جميع الأشياء، وكل زمان.ورأس كل نظام، وأولية جميع المراتب»[3]. ثم قال بعد ذلك في معرض مدحه: « المكلوم في لحمه، المعلق في الخشبة».

كيف يجترئ عاقل أن يتحدث بمثل هذا العار؟ أو كيف تصح نسبة هذا التناقض البيّن إلى أحد من الأخيار؟»[4].

ومن ذلك: اتهام المسيح للأنبياء قبله بأنهم لصوص وسراق وأنه قدم عليهم ليزدادوا خيرا.[5]

وجاء في الإنجيل أنه قال: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد»[6]وهذا هو الحمق بعينه، فكيف لنبي أن يطعن في شهادته وهو حامل لرسالة ربه.

---

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 203

[2]. المصدر نفسه :203

[3]. انظر: يوحنا الإصحاح: 1/1 . 5 ، 29 وكذا الإصحاح:10 (نقلا من كتاب الإعلام: 206)

[4]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام : 206

[5]. المصدر نفسه: 206

[6]. إنجيل يوحنا 8/ 14 (نقلا من كتاب الإعلام: 206)

وعقّب القرطبي على ذلك بقوله:« فكيف تكون شهادته حقاّ وباطلا، مقبولة وغير مقبولة؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب ينسب إلى الله تعالى؟»[1].

ومن ذلك: صياح المسيح وجزعه عند صلبه وقوله: « إلهي إلهي لم أسلمتني »[2] ، وفي أول ورقة منه: إنما أسلم نفسه لتظهر قدرته بسلطانه على الموت، وظفرته على جميع الآلام والمهن التي تستقبحها أوهام الآدميين.

وقال القرطبي معقبا:« فكيف يصيح ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته؟ وهل سمع قط أسخف من هذا القول؟ وأظهر تناقضا منه؟»[3].

ومن ذلك: نسب المسيح إذ عدّه الإنجيل تسعة وثلاثين أبا [4]، وفي لوقا عدّ إلى إبراهيم نيفا وخمسين أبا[5].

وقال القرطبي:« فيا ليت شعري كيف يجوز مثل هذا على الله؟ أو كيف ينقل هذا في كتاب معلوم عن الله؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الجزء المتسع بأن قال: أحد النسبين طبيعي، نسب التوليد، والآخر نسب شرعي، نسب الولاء والكفالة، والتناقض باق عليه بعد اختراع الهذيان..

ثمّ انظر إلى هذه الشناعة التي ارتكبوها، حيث نسبوا عيسى عليه السلام إلى رجل زعموا أنه خطب مريم، وأي نسبة بينهما بأن أراد أن يتزوج إنسان أمه؟ ثمّ إنهم يبلغون نسب يوسف إلى آدم ثم يقولون إلى الله؟

---

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 206

[2]. المصدر نفسه: 206

[3]. المصدر نفسه: 206

[4]. المصدر نفسه: 207

[5]. المصدر نفسه: 207

فهلا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب في عيسى ويقولون في عيسى ما يقولون في آدم؟ لولا الجهل والتحكم»[1].

ومن ذلك: خبر المرأة التي صبت الطيب على رأس المسيح. ونقضه في الآخر بأنها إنّما صبته على رجليه[2].

ومن ذلك: أن أمّ بني زبدي سألته أن تجلس ولديها إلى جانبه ، فاعتذر بأن ذلك لا سبيل إليه إلاّ لمن وهب ذلك . فقد أخبر هنا أنه لا يقدر. وفي أول ورقة منه: أنه بارئ الأشياء وعلتها وعلة كل زمان. فكيف يصح أن يكون بارئ الأشياء كلها وعلتها، ولا يقدر أن يجلسهما عن يمينه ولا يساره. ثم يتبرأ من ذلك بقوله: إلاّ لمن وهب ذلك لي ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا[3].

وختم قائلا بعد أن ضرب كثيرا من أمثلة التضاد والتناقض : « ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل لاحتاج ذلك إلى التكثير والتطويل، وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل: أن كتابهم قابل للتحريف والتغيير فكيف بالتزيد والتكثير؟»[4].

التوراة: مما يدل على أن التوراة محرفة بحسب الإمام القرطبي صاحب الإعلام أن كثيرا مما يأتي فيها يكون على صيغة وكلّم الرّب موسى مثل: « وكلم الرّب موسى ، وقال له: اقبض حساب بني جرشون»[5]. و« وكلّم الربّ موسى، وقال له: كلّم بني إسرائيل»[6] ومثل هذا كثير. كثير. وهذا يدل أنه ليس مما قاله الربّ جلّ ذكره لموسى، ولا مما قاله موسى لهم، يعني لفظ «

---

[1]. المصدر السابق: 207

[2]. المصدر نفسه: 209

[3]. المصدر نفسه: 209

[4]. المصدر نفسه: 211/2.

[5]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 189

[6]. المصدر نفسه: 189

وكلّم الربّ موسى، وقال له» وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه. وإنما هو شيء حكى عنه بعد انقراضه، وأضيف إلى كلام الله.

ثم لا يعرفون من الحاكي؟ وإذا جاز مثل هذا، ولا يشعرون به، جاز أن يكون أكثرها مغيّرا ومبدّلا، وليس من كلام الله، ولا من كلام موسى، ولا يشعرون به. ومن وقف عليها متتبعا لهذا المعنى قطع بأنها زيد فيها، ما ليس منها.

وأما بيان أنها ليست متواترة: فهو أن اليهود عن بكرة أبيهم يعرفون ولا ينكرون أن التوراة إنما كانت طور مدة ملك بني إسرائيل عند الكوهان الأكبر الهاروني وحده، وعنه تلقيت، ولا ينكر ذلك منهم ولا منكم إلا مجاهر بالباطل..

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بني إسرائيل، وإحراقه كتب التوراة حيث وجدت، وإتلاف ما كان بأيديهم حتى لم يترك منهم إلاّ عددا يسيرا، ولا يحصل بخبرهم العلم.....

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان[1] ، التي كانت بعد المسيح إلى أربعين سنة، إذ فرقوا التفرقة التي هي اليوم عليها.

7/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند عبد الله الترجمان (أنسلم تورميدا):

تناول عبد الله الترجمان بالبحث العميق تناقض الأناجيل وتضاربها في كتابه تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب ، وذكر أنواعا من ذلك تحت عدة أبواب، ومما ذكره تناقض الأناجيل وكذبها في زعمهم أن المسيح صاح عند صلبه : « إلهي إلهي لم خذلتني »[2]. تناقض الأناجيل

[1]. طيطوس بن شبشان، وواقعته كانت سنة 70 م.

[2]. تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: 108

وكذبها في تعيين الذي يخونه من التلاميذ. وقد عقب الترجمان على هذا التناقض والاختلاف بقوله:« وهذا تناقض دلّ على الكذب من جميع الأربعة الذين كتبوا الأناجيل لعنهم الله، وبالله التوفيق»[1].

. تناقض الأناجيل في اللصين اللذين صلبا المسيح: وعلق عليها : « وقد كذب متى ولوقا في أصل قضية صلب المسيح، وكفرا بذلك فعليهما لعنة الله»[2].

. تناقض الأناجيل في أن يحي لا يأكل ولا يشرب تارة، والزعم بأنه يأكل الجراد ويشرب العسل تارة أخرى[3].

. تناقض الأناجيل في أن المسيح قال إن الأب هو الذي أرسله ولا يراه أحد. وقولهم أن المسيح أخبر أن من رآه فقد رأى الله[4].

ومما انفرد به من المتناقضات في الأناجيل التي يكذّب بعضها بعضا: من ذلك: « ما قاله ماركوس، إنّ سيدنا المسيح لما قام من بين الموتى كلّم الحواريين ثمّ صعد إلى السماء من يومه. وخالفه لوقا في كتابه الذي سماه قصص الحواريين، فإنه ذكر فيه أن عيسى صعد إلى السماء بعد قيامه من بين الأموات بأربعين يوما. وحسبك بهذا دليل على كذبهما في هذا من أصله،

---

[1]. المصدر السابق: 205

[2]. المصدر نفسه: 210

[3]. المصدر نفسه: 218

[4]. المصدر نفسه: 219

فوالله ما قتل عيسى ولا دفن ولا قام من قبره بعد يوم ولا بعد أربعين يوما، فلعنة الله على الكاذبين»[1].

من ذلك: الخلاف في عدد المكفوفين الذين كلموا المسيح واضطرابهم فيه حيث ذهب متّى أن عيسى لما خرج من أريحا ناداه مكفوفان اثنان. وذكر ماركوس أن عيسى لما خرج من البلد المذكور ناداه مكفوف واحد . ثم عقّب الترجمان على الخبرين: « ومعلوم في الإنجيل أن عيسى لم يمر بتلك البلدة إلاّ مرة واحدة فقد لكذّب متّى في كونهما مكفوفين، ولكذّب ماركوس في كونه مكفوفا واحدا، لأن القصة واحدة»[2].

ومن ذلك: إفساد الشيطان لبيترو (بطرس). قال لوقا: إن عيسى عليه السلام قال للحواريين: إن الشيطان أراد فساد يقينكم. ثمّ قال لبيترو: أنا رغبت من أبي أن لا يجعل للشيطان سبيلا على فساد يقينك[3]. ثم إن بيترو (بطرس) هذا كفر بعيسى وارتدّ عن دينيه بعد أيام من إخبار عيسى له بأن الشيطان لا سبيل له على فساد يقينه وأن تلاميذ عيسى لم يكفر أحد منهم إلا بترو هذا.

فهذا تناقض يُنقل عن رجل اعتقدوا أنه نبي معصوم وأنه ابن الله. ثم يقولون أن التلميذ الذي خصّه بهذا الدعاء هو الذي كفر وارتدّ فأفسد الشيطان دينه ويقينه من دون جميع التلاميذ، وهل يكاد أحد يجهل هذا التناقض، مع الكفر في تجويز الكذب على الأنبياء ووقوع الخلف في أخبارهم، وهذا كله من صريح أكاذيبهم على عيسى[4].

---

[1]. المصدر السابق: 73.

[2]. المصدر نفسه: 209.

[3]. المصدر نفسه: 223.

[4]. المصدر نفسه: 223.

8/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند أبي علي الحسين بن عتيق بن رشيق[1]:

لم يقتصر الحوار الديني في الأندلس بين القساوسة والفقهاء والأحبار كما رأينا سابقا، بل امتد إلى الشعراء والأدباء ، فالبيئة الأندلسية التي حفلت بالمساجلات بين أبنائها ، ولم يكن من الغريب أن نجد من العلماء المسلمين من يتقنون لغة جيرانهم المسيحيين، ومن هؤلاء من يعرفون العربية معرفة تعمق في أساليبها البلاغية ، وإطلاع على أدبها شعرا ونثرا، وهو ما سنرى عليه دليلا جليا في النص الذي سنورده، وهو حوار دار بين أحد القساوسة وأديب مسلم من مرسية هو أبو علي الحسين بن عتيق بن رشيق، والذّي اختلف في شكله عما استعرضنا سابقا ولكنه يدور في نفس الجوهر ، فشكله ديني وبلاغي ؛ وهي قضية إعجاز القرآن الكريم ، أما جوهره فيرمي إلى ضرب العقيدة الإسلامية في أحد أهم مرتكزاتها ألا وهو الإعجاز القرآني.

أما القضية التي طرحها القسيس في تلطف ومهارة هي: هل القرآن الكريم معجز ببلاغته؟ فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجوز أن يقال إنّ كل نصّ بليغ يَعجزُ أصحاب البيان عن الإتيان بمثله يمكن أن يشارك القرآن في هذه الصفة، وهو يضرب على ذلك مثلا بما ذكره الحريري في المقامة السادسة والأربعين وهي "المقامة الحلبية" من تحديه للأدباء وادعائه أن ليس في وسع أحد أن يزيد بيتا واحدا على بيتين أوردهما في هذه المقامة . « ثم يعرض البيتين المطرفين ، المشتبهي الطرفين ، اللذين أسكتا كل نافث ، وأمنا أن يعززا بثالث فأنشد:

---

[1] . ولد سنة 628هـ 11231م، قضى صباه ومطلع شبابه في مرسية، درس على أبيه الذي كانت له مكانة علمية وعلى بعض شيوخ المدينة. قال عنه ابن الخطيب:" كان نسيج وحده وفريد دهره إتقانا ومعرفة ومشاركة في كثير من الفنون اللسانية والتعاليمية، متبحرا في التاريخ ريانا في الأدب، شاعرا مفلقا، عجيب الاستنباط، قادرا على الاختراع والأوضاع" الإحاطة 1/ 472 . 476. توفي بتازة في التاسع من محرم سنة 696 هـ (07 نوفمبر 1276م) خلّف عدة مؤلفات منها كتاب في التاريخ سماه (ميزان العمل) مختصر (ترتيب المدارك) في تراجم المالكية للقاضي عياض، ومؤلف آخر سماه (الرسائل والوسائل)الذي نقل منه الونشريسي نص المناظرة. (نقلا من مجلة الإسلام وحوار الحضارات، من تاريخ الحوار الديني في الأندلس، محمود علي مكي، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1425هـ . 2004 م ، المجلد الثالث: 57).

سِـــم سِمـــةً تَحسُنُ آثارُه ا وَاشكُرْ لِمَن أَعطَى وَلَو سِمسِمَه

وَالمِكرُ مَهمَا اسَطَعتَ لَا تَأتِهِ لِتَقتَـــنِي السُّـــؤدُدَ والمِكرُمَه[1]

وقد كان الحريري ـ غفر الله له ـ يعتقد أنه أتى في هذين البيتين بالمعجز الذي لا يستطيع أديب أن يأتي بمثله. وأصبحت دعواه هذه عناء للأدباء من بعده، إذ تعاقبت محاولاتهم أن ينظموا أبياتا على نفس الوتيرة[2]. يقول القسيس في حواره لابن رشيق المرسي:« وقد مضت بعد الأعصار، وانقرضت الأجيال، فلم يأت أحد لهما بثالث كما قال، لا في عصره ولا بعد عصره، على كثرة درس الناس لها وتداولها في مجالس المذاكرة ومحافل القراء واشتهارها في الأمصار، فعلى ما تقرر أولا ووجدناه عند جمهوركم في حق القرآن مسلّما ينبغي أن يكون ما أتى به الحريري أيضا في هذا الموضع معجزة، وإن لم يُرد هو ذلك ولا قصد هذا المقصد الذي نحن بسبيله، لكنه قد وقع ذلك في الوجود اتفاقا ، ووقع وقوعا لا مرية فيه، وأنتم مع ذلك لا تقولون إنه نبي، ولا يمكنكم قول ذلك ولا أنا أريده، ولكن أريد أن هذا الأمر قد وقع لمن حصل التسليم منهم فيه أنه غير نبي. فما الفرق بينه وبين ما كنا بسبيله أولا؟ اللهم إلا أن نستعين على ذلك بقرينة أخرى، أو بقرائن من غير القرآن، فتكون حينئذ قد جعلت القرآن غير مستقل بإثبات نبوة نبيكم، وليس هذا قول أئمتكم »[3].

---

[1]. شرح مقامات الحريري، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت، 1992، ج5: 237.

[2]. يبدو أن القسيس وابن رشيق المرسي لم يكونا على علم بأن عددا من الأدباء أتوا لبيتي الحريري بثالث ورابع وأزيد. (الذيل والتكملة: 4/ 49 ـ 53).

[3]. ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، دراسة وتحقيق محمد بنشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1429هـ ـ 2008م: 124. / المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1401هـ ـ 1981م، ج11: 158.

فلم يكن أمام ابن رشيق إلاّ أن يحارب غريمه بنفس السلاح، فعدّ قريحته لكي يأتي ببيت من الطراز نفسه؛ فأنشد يقول:

وَالمهرَ مَهرَ الحُورِ وَهْوَ التُّقَى بَادِر (بِهِ) البَكْرَةَ وَ المهْرَمَه [1]

يقول ابن رشيق المرسي:« فلما سمعه وأعدته عليه حتى فهمه فكأنما ألقمته حجرا، ورأيت فيه من الانكسار لذلك ما لم أره عند سماع الحجج العقلية والمآخذ الأصولية».

والحقيقة أن مسألة القسيس وجواب ابن رشيق الذي يقول إنه أفحم مناظره حتّى كأنما ألقمه حجرا كان كلاهما بالغ السذاجة كما يقول أحد الباحثين [2]، على أنه كان مدركا لذلك بدليل قوله: «ورأيت فيه من الانكسار لذلك ما لم أره عند سماع الحجج العقلية والمآخذ الأصولية» [3]، فقد كان القسيس يظن أنه غلب مناظره إذا أقر له بعجز الشعراء عن محاكاة الحريري في " بهلوانياته" البديعية. «فمن الواضح أن بيتي الحريري ومعهما البيت الذي عارضهما به ابن رشيق في غاية التكلّف ، وهي مجرد نظم لا يمت إلى الجمال الفني الحقيقي بصلة، غير أن أذواق الأدباء والمتأدبين في ذا ك العصر كان قد تغيّر ، فأصبح مثل هذا التلاعب اللفظي هو معيار التفوق والسبق» [4].

ومن هنا يبدو من السخف أن يُتحدث عن إعجاز أتى به الحريري، وأسخف منه أن يذكر هنا في معرض الكلام عن الإعجاز في البلاغة القرآنية. وقد كان الأصوليون وعلماء الكلام الأندلسيون قد عالجوا قضية إعجاز القرآن من قبل، وإن كان طرحها مختلفا عما نراه

---

[1]. المرجع السابق: 126.

[2]. من تاريخ الحوار الديني في الأندلس، محمود علي مكي ، سلسلة الأعمال المحكمة . الإسلام وحوار الحضارات . ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ، 1425 . 2004، المجلد 3: 58.

[3]. المعيار المعرب والجامع المغرب ، ج11: 158

[4]. من تاريخ الحوار الديني في الأندلس (مقال سابق): 59.

في هذه المناظرة، فقد تحدث أبو الوليد الباجي عنها في الرسالة التي وضعها جوابا على راهب فرنسا.

كما عالج هذه القضية الإمام ابن حزم، وإن كان ابن حزم يتخذ موقفا آخر في تفسير الإعجاز القرآني، فهو يقول:« وقد ظنّ قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة. وهذا خطأ شديد. ولو كان ذلك . وقد أبى الله عزّ وجلّ أن يكون . لما كان حينئذ معجزة، لأن هذه صفة كل ما سبق في وقت ما، فلا يؤمن أن يأتي في غد ما يقاربه بل ما يفوقه. ولكن الإعجاز في ذلك إنما هو أن الله عزّ وجلّ حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله، ورفع عنهم القوة في ذلك جملة»[1].

ولا شكّ في أن اللغتين كانتا في تلك الحقبة من الصراع، منتشرتين بين مختلف الملل المكونة لسكان شبه الجزيرة الإيبيرية. فتلك الشخصية المحاورة لابن رشيق كان قسيسا ينتمي لطائفة وصفهم ابن رشيق المرسي بقوله: « شأنهم الانقطاع للعبادة والنظر في العلوم، مشرئبون للنظر في علوم المسلمين وترجمتها بلسانهم برسم النقد ... ولهم حرص على مناظرة المسلمين، وقصد ذميم في استمالة الضعفاء ...»[2].

9/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند أحمد بن قاسم الحجري " أفوقاي":

يرى الحجري أن الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى محرّفة، موظفا في إثبات ذلك حججا دامغة ، مما علمه وخبره أثناء إقامته ببلاد الأندلس، وحتى يثبت للنصارى ذلك أورد هذا الكلام، قال فيه:« ... ولما التقيت بالقاضي كان يشكر لي دينه، حتى قال لي مراراً: يا فلان ، رأيت أنه يليق بك أن ترجع نصرانيا ، قلت له: على أي مذهب من مذاهب النصارى؟

[1]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 106/1.

[2]. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي: 155.

قال: ليس لنا إلا مذهب واحد، قلت له: لو كان الله تعالى : يحي نصرانيا من زمن سيدنا عيسى عليه السلام، ثم يحي نصرانيا من كل قرن من القرون الماضية وجميعها ستة عشر قرنا، فكل واحد منهم يقول لغيره: أنهم كفار لما يرى من الزيادة والنقصان عند غيره في الدّين والعقل السالم يحكم بحكم قطعي أن دين الله تعالى لا فيه زيادة ولا نقصان كما هو ديننا، قال القاضي: ديننا كذلك، قلت: دينكم مفتوح للزيادة والنقصان، لأن كل باب له أمر عندكم ليزيد وينقص ما يظهر له في الدّين، قال: هذا سيدنا عيسى ، أو كما قال: ذكره الأوائل من الأنبياء حتى قالوا إنه لا يكون قبر واحد من الأنبياء معروف حقيقة إلا قبره. قلت له: ذلك قبر نبينا محمد ﷺ . قال كيف ذلك؟ قلت: ليس هو كما تقول النصارى إنه في حلقة من حديد في الهوى في وسط قبو مبنية بحجر المغناطيس الذي خاصيته يجذب الحديد إليه، لأنه مدفون في الأرض، في مدينته ﷺ، بينها وبين مكة عشرة أيام. قال لي: انظر هذه العافية التي عندنا في بلادنا، بخلاف بلادكم لأن الأحكام تدل على صحة ديننا، قلت: ليس أحكامكم وشريعة دينكم مدل على صحة ديننا، قلت: ليس أحكامكم وشريعة دينكم تدل على صحة ديننا، قلت: ليس أحكامكم وشريعة دينكم مأخوذة من الإنجيل، إنما شرعكم على مذهب المجوس، الذين كانوا برومة، وكتب شريعتكم مترجمة من كتبهم مثل الكتاب الكبير المسمى بِبَلْضُ وغيره. قال صدقت. وجلسنا هنالك زمنا طويلا وهو مشغول بالأندلس واحتجت الرجوع إلى بريش[1]. وأما ما قلته للقاضي إنّ في دين النصارى الزيادة والنقصان في كل زمان فهذا برهان ذلك كما اشترطت في أول الكتاب البرهان والنصوص مما نذكره، فأما ما يكون من يطبع كتابا إلا بالأمر من أصحاب الديوان إلى صاحب التأليف. قال كُرْتِشْ المنجم في كتابه ، وأيضا سَمُرَانُ الإشبيلي ، وقد عرفته في المدينة إشبيلية اسما وعينا، وأيضا جِبِشْ ، ذكر كل واحد في كتابه ما زاده وما نقص كل واحد من البَّابِسْ.

[1]. تعني باريس.

فأما البّابٌ ليون: أمر أن النسا يدخلن مغطيات الرؤوس في كنايسهم.

الباب أَلْبِرْتُ أُنَاَنِي : أمر كل نكاح يكون بحضرة قسيس، وإن لم يكن بحضرته فهو زنل ما لا كان قبل.

الباب إسكندر: أمر أن القسيس لا يصلي إلا صلاة واحدة في اليوم، وزاد في فرايض الصلاة، وأمر أن الخمر الذي يشرب القسيس في أثناء الصلاة أن يزيد له ماء، وأن يجعلوا ماء مباركا على أبواب الكنائس؛ انتهى كلامه....

وأما الباب الرومي شِشْطُ: زاد صلاتهم كلية. واحدة تقال ثلاث مرات.

الباب طَلَشْ أوناَنِي: افترض الصيام ما لا كان قبل زمانه وأن القسيس يصلي ثلاث صلوات يوم ميلاد عيسى عليه السلام وزاد ما يغني به في بعض الصلوات.

وباب آخر: أمر أن الكأس الذي يعملون فيه الخمر عند الصلاة لا يكون من زجاج كما كان من قبل، إلا من فضة.

وباب آخر: أمر أن إذا دعى على نصراني في الأحكام إذا كان الداعي على غير ملة النصارى أن لا تقبل دعوته.

وباب آخر: أمر أن لا يصوم أحد فرضاً ولا سنة يوم الأحد ولا يقوم الخميس. ثم فسح الأمر»[1].

وهذا يدلّ دلالة قاطعة على التحريف والتبديل الذي يطال كتبهم في كل مدّة.

ثم ينتقل لعرض نماذج مما تحتويه هذه الكتب ، وهي تتعارض مع العقل والطبيعة والمنطق، فذكر مثال الأنهار الأربعة التي يُعلم مبتدؤها، بينما كتبهم تقول أن منبعها مجهول، قال: « واعلم أن النصارى واليهود يقولون بما في الباب الأول من التوراية . قال إن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام في جنة الأرض ، وفيها أشجار تسقى بغير ماء، ومنه تخرج أربعة أنهار، وهم :

[1]. رحلة الشهاب في لقاء الأحباب: 58 وما بعدها.

النيل والفرات وقيصون والدجلة. وهذه الأنهار معروفة الآن أن كل نهر في بلاد مختلفة عن غيرهن ومعروف ابتداؤه. وهذا دليل أن هذا النص باطل بالبرهان، مثل الشمس»[1].

ثم ينتقل الحجري لعرض مسألة أخرى ، سأله اليهود عنها، وهي أن القرآن فيه نسخ للأحكام، فأجابهم بأن التوراة كذلك فيها نسخ مثلها مثل القرآن الكريم، فسألوه عن موضعها، فأجابهم بدقّة؛ قال: «... ثم يسألوني سؤالا ، وهو عندهم أن أحداً لا يجد ما يجاوب عليه، وذلك أنهم قالوا لي: الدّين الذي به سيدنا موسى عليه السلام كان من عند الله ، قلت: نعم ما بيننا نزاع في هذه المسألة، قالوا سلاطين الدنيا يرجعون فيما أعطوا من كتبهم معلمة منهم، قلت: لا يرجعون إلا فيما يظهر أنه يليق بهم، وفي بعض الأزمنة، ونحن عندنا في ديننا يمحو الله ما يشاء ، ويثبت، وعنده أم الكتاب. قالوا: ليس ذلك عندنا: قلت لهم: عندكم في التوراية مسألة مثل ما قاله الله في القرآن إنه يمحو ويثبت، قالوا في أي موضع من التوراية؟ قلنا: في الباب العشرين من كتاب الثاني للسلاطين، قال: (إن السلطان حَزْكِيَهْ مرض بمرض الموت ، وجاء إليه النبي يشعيه ابن النبي مزو، قال: إن الله أرسلني إلى دارك ، إنك تموت ولا تعيش ، فدعا وبكى بكاء شديدا ، ثم ثاب إلى الله توبة صادقة، ثم بعث الله النبي يشعيه: ارجع إلى سلطان بلادي وقل له: رأيت بكاءك ، وقبلت دعاءك، وفي ثالث يوم يأتي إلى بيتي ، ونزيد في عمره خمس عشرة سنة، وننجيه من سلطان شوم، ونحفظ هذه المدينة).

فكل من نسأله من علمائهم عن هذا: هل هو في التوراية ، فيقول: نعم، فأقول: الكلام الأول الذي جاء به النبي كان كلام الله ، وقال يموت من مرضه، والمرة الثانية قال: يزيد في عمره خمس عشرة سنة، فمحى الكلام الأول واثبت الثاني. وهذا برهان لا يرده أحد»[2].

---

[1]. المصدر السابق: 78.

[2]. المصدر نفسه: 90.

الفصل الثالث:

موضوعات حوار الأديان

في الأندلس

- قضايا الأنبياء.
- قضايا حرية التعبير والمعتقد.

أ/ الحوار في قضايا الأنبياء:

1/ تعريف النبوة:

لغة: النبوة في اللغة: مشتقة من النبأ بمعنى الخبر .قال الله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [1]، وقال تعالى :﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[2].

وجاء في لسان العرب: النبأ: الخبر. . . والنبيء المخبر عن الله عز وجل. . . لأنه أنبأ عنه، وهو فعيل بمعنى فاعل[3].

قال ابن بري[4]:صوابه أن يقول: فعيل بمعنى مفعل. مثل نذير بمعنى منذر وأليم بمعنى مؤلم . . . .وقال الفراء النبي: هو من أنبأ عن الله فترك همزه[5].

2/ تعريف الرسالة السماوية:

جاء في لسان العرب : « والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرسالة والرسالة والرسول والرّسيل، . . . والرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر، والرسول المرسل. . . والرسول: معناه في اللغة: هو الذي يتابع أخبار من بعثه، أخذا من قولهم: جاءت الإبل رسلا أي متتابعة. . . . وسمى الرسول رسولا لأنه ذو رسول أي ذو رسالة والرسول اسم من أرسلت

---

[1]. سورة الحجر: 49

[2]. سورة التحريم : 3

[3]. لسان العرب، مادة (ن ب أ)، : 421/8.

[4]. هو عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي المصري (499- 582 هـ) . نحوي لغوي، من مصنفاته: اللباب في الرد على ابن الخشاب، وحواش على الصحاح لم يكملها .انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى الحلبي. مصر، 1384 هـ: 2 / 34.

[5]. لسان العرب مادة (ن ب أ): 421/8.

وكذلك الرسالة »[1]. وعلى ذلك فالرسول في اللغة إما أن يكون مأخوذا من الإرسال بمعنى التوجيه وهو ظاهر من حيث المعنى وإما أن يكون مأخوذا من التتابع فيكون الرسول هو من تتابع عليه الوحي[2].

أما في الاصطلاح فللعلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول، وتحديد مسمى كل منهما كلام كثير لا يسلم من نقد. لكن الأمر عند كثير من أهل العلم أن هناك فرقا بين مسمى النبي ومسمى الرسول وإن اختلفوا في تحديد المراد بكل منهما. وأيضا فإن النبو ة أعم من الرسالة فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا[3]، والذي يظهر والله أعلم أن النبي: هو من نبأه الله بشرع سابق ينذر به أهل ذلك الشرع؛ وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معينة، أو الوصايا والمواعظ وذلك كأنبياء بني إسرائيل إذ كانوا على شريعة التوراة ولم يأت أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتوراة، فتكون منزلته حينئذ بمنزلة المجدد لتعاليم الرسل السابقين[4].

أما الرسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامره. وسواء كان هذا الشرع جديدا في نفسه أو بالنسبة لمن بعث إليهم وربما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله[5].

---

[1]. لسان العرب، مادة (ر س ل): 142/4.

[2]. أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، ، ط 3، بيروت، 1401هـ 1981م: 154.

[3]. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط6، 1400هـ: 167.

[4]. النبوات، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1420هـ. 2000: 714.

[5]. أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، ط 3، بيروت، 1401هـ. 1981م: 154.

النبوّة ضرورة من ضروريات الحياة البشرية، لا معدل عنها ولا محيد، ويذكر التاريخ وينقل الناس عن بعضهم أن الأنبياء كانوا ممن اشتهروا في قومهم بالصدق والأمانة والعفّة وحسن السيرة، حتى إنّ من عرفهم عن قرب أو خالطهم وصفهم بأنهم صفوة بني الإنسان والمثل الأعلى له، وثمة صفات لا بدّ من تحققها في كلّ نبي، أهمها ما يلي:

– العصمة: شرعا هي لطف من الله يحمل النبي على فعل الخير، ويحفظه من فعل الشّر، مع بقاء الدافع والاختيار، ويشمل ما يلي: ـ العصمة من الكفر والفواحش. ـ العصمة من الخطأ والنسيان في تبليغ الرسالة وأدائها.

– الصدق والأمانة وإن كانتا ضروريتين في جميع البشر، غير أنهما في الأنبياء أشد ضرورة وألزم؛ فلا يمكن أن يصدر عن النبي ما يخلّ بالمروءة أو يهدر الكرامة، كالكذب والغش والخيانة والغدر وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الصفات القبيحة التي تنفر الناس من أتباعهم وتصديقهم.

– السلامة من العيوب البدنية المنفّرة كالقصر الفاحش أو الطول الشديد النابي أو التشوّه في الخلقة.

– الفطانة وهي الذكاء والنباهة مع كمال الرشد وسرعة الإدراك وحضور البديهة وقوة الحجة؛ وغيرها من الصفات التي يجب أن يتصف بها الأنبياء والمرسلون.

وعلماء الأندلس خاضوا في مسائل النبوة وأبلوا فيها بلاءً حسنا خاصة في حواراتهم مع أهل الكتاب ، وقد أخذت حيّزا هاما، ذلك أنها ركيزة أساسية في مسألة الإيمان، ومن بين الذين انبروا لمعالجة هذا الموضوع في الأندلس الإمام ابن حزم وغيره من علماء الإسلام في هذا الصقع، وسنعرض لبعض تلك الآراء:

3/ الحوار في قضايا الرسل عند الإمام ابن حزم : رأى ابن حزم أن أهل الكتاب ينتقصون من الأنبياء ويرمونهم بالكبائر ما يطعن في نبوتهم، واستشهد بما ورد في كتبهم المقدسة من ذلك قوله: «أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: أنا الله الذي أَخرَجتُكَ من أتون الكلدانيين لأعطيك من هذا البلد حوزا. فقال له إبراهيم: يا ربّ بماذا أعرف أنّي أرث هذا البلد؟»[1].

وردّ ابن حزم على هذا القول: «حاش لله أن يقول إبراهيم عليه السلام لربه هذا الكلام، فهذا كلام من لم يثق بخبر الله عز وجل حتى طلب على ذلك برهانا. فإن قال قائل جاهل: ففي القرآن قال تعالى:﴿...وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾[2]، وأن زكريا عليه السلام قال لله تعالى إذ وعده بابن يسمى يحي:﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ ﴾[3] قلنا: بين المراجعات المذكورة فرق كما بين المشرق والمغرب. أما طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى، فإنما طلب ذلك ليطمئن قلبه المنازع له إلى رؤية الكيفية في ذلك فقط. بيان ذلك قوله تعالى له:﴿ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾[4]، فواضح أن إبراهيم عليه السلام لم يطلب ذلك برهانا على شك أزاله عن نفسه، لكن ليرى الهيئة فقط. أما زكريا عليه السلام فإنما طلب آية تكون له عند الناس لئلا يكذبوه، ... والذي ذكروه عن إبراهيم عليه السلام كلام شاكٍّ يطلب برهانا يعرف به صحة وعد ربّه له»[5].

---

[1]. سفر التكوين 15/ 7 . 8، (نقلا عن كتاب توراة اليهود والإمام ابن حزم، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، دار القلم، دمشق، ط1، 1425هـ . 2004م: 410).

[2]. سورة البقرة: 260

[3]. سورة مريم: 10

[4]. سورة البقرة : 260

[5]. توراة اليهود والإمام ابن حزم: 411.

كما تدعّي التوراة المحرّفة أن لوطا قام بمضاجعة ابنتيه حيث ورد في سفر التكوين : « وأقام لوط في المغارة هو وابنتاه، فقالت الكبرى للصغرى: أبونا شيخ، وليس في الأرض أحد يأتينا كسبيل النساء، تعالي نسق أبانا الخمر، ونضاجعه ونستبقِ منه نسلا، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة، فأتت الكبرى فضاجعت أباها، ولم يعلم بنومها ولا بقيامها، فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: قد ضاجعت أبي أمس، تعالي نسقيه الخمر هذه الليلة، وضاجعيه أنت ونستبقي من أبينا نسلا، فسقتاه تلك الليلة خمرا، وأتت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنومها ولا بقيامها، وحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت الكبرى ابنا وسمته مؤاب، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، وولدت الصغرى ابنا سمته عمّون وهو أبو العمونيين إلى اليوم»[1]. فردّ ابن حزم على هذا الافتراء بقوله: «في هذه الفصول فضائح وسوءات، تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى العارفين حقوق الأنبياء:

فأولها: ما ذكر عن بنتي لوط عليه السلام من قولهما: « ليس أحد في الأرض يأتينا كسبيل النساء، تعالي نسق أبانا خمرا ونضاجعه، ونستبق منه نسلا» فهذا كلام أحمق في غاية الكذب والبرد أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله حتى لم يبق في الأرض أحد يضاجعهما؟ إن هذا لعجب، فكيف والموضع معروف إلى اليوم؟ ليس بين تلك المغارة التي كان فيها لوط عليه السلام مع بنتيه، وبين قرية سكنى إبراهيم عليه السلام إلا فرسخ واحد لا يزيد، وهو ثلاثة أميال، فهذه سوءة.[2]

والثانية: إطلاق الكذاب الواضع لهم هذه الخرافة ـ لعنه الله ـ هذه الطّومة [3] على الله عز وجل، من أنه أطلق نبيه ورسوله عليه السلام على هذه الفاحشة العظيمة من وطء ابنتيه واحدة بعد الأخرى.

---

[1] . النص من سفر التكوين: 19/ 30 ـ 38 بألفاظ متقاربة، (نقلا عن كتاب توراة اليهود والإمام ابن حزم: 419)

[2]. فسر الربانيون قول بنتي لوط هذا بأنهما حسبتا أن الأرض ومن عليها قد دمرت كما حدث في طوفان نوح، وهذا غير صحيح، إذ لا شك أنهما تعلمان عمّ أبيهما قريب منهم، وله أموال وأولاد، فكيف تظنان أنه ليس في الأرض أحد يأتيهما كعادة كل أهل الأرض؟.

[3] . الطّومة: المنية والداهية.

فإن قالوا: لا ملامة عليه في ذلك، لأنه فعل ذلك وهو سكران، وهو لا يعلم من هما، قلنا: فكيف عمل إذ رآهما حاملتين؟ وإذ رآهما قد ولدتا ولدين لغير رِشدة[1] ؟ وإذ رآهما تربيان أولاد الزنى؟ هذه فضائح الأبد، وتوليد الزنادقة المبالغين في الاستخفاف بالله تعالى وبرسله.

والثالثة: إطلاقهم على الله تعالى أنه نسب ذينك الزنيمين فرخي الزنى إلى ولادة لوط، حتى ورّثهما بلدين كما ورّث بني إسرائيل وبني عيسو ابني إسحاق، سواء بسواء، تعالى الله عن هذا علوا كبيرا.

فإن قالوا: كان مباحا حينئذ، قلنا: قد صحّ النسخ الذي تنكرونه بلا كلفة»[2].

وقد كان أهل الكتاب ينكرون نسخ الأحكام، ويعيبون على المسلمين وقوعه في شريعتهم، فأراد ابن حزم هنا إقامة الحجة عليهم بوقوعه عندهم وإظهار إفكهم: فإن قالوا: إن نكاح المحارم كان جائزا، والتوراة لم تكن نزلت، فقد قرؤوا بالنسخ، وظهر كذبهم أيضا.

ولم يتوقف ابن حزم عند هذا الحد، بل واصل تتبعه لافتراءات أهل الكتاب على الأنبياء عليهم السلام التي ترفع عنهم الصدق والاستقامة فذكر :« إنّ كوافّكم قد نقلت عن بعض أنبيائكم فسوقا ووطء إماء وهو حرام عندكم؛ وعن هارون عليه السلام: أنه هو الذي عمل العجل لبني إسرائيل وأمرهم بعبادته والرقص أمامه ، وقد نزّه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام عن عبادة غيره، وعن الأمر بذلك، وعن كل معصية ورذيلة، فإذا جوّزوا كلهم هذا على أنبياء منهم موسى عليه السلام وسائر الأنبياء كان كل ما أمروهم به من جنس عمل العجل والرقص والأمر بعبادته، ومن جنس وطء الإماء وسائر ما نسبوه إلى داود وسليمان عليهما السلام، وسائر أنبيائهم لاسيما وهم يقرون بأن العجل كان يخور بطبعه»[3].

---

[1] . رِشدة: ضد زنية (لسان العرب مادة رشد: 1650)

[2]. توراة اليهود والإمام ابن حزم: 422.

[3] . الفصل في الملل والأهواء والنحل: 126/1

فردّ عليهم بجواب يدحض كل هذه الافتراءات: « وأمّا نحن فجوابنا في هذا كله بأن ليس شيء منه نقل كافة، ولكن نقل آحاد كذبوا فيه، وأمّا خوار العجل فإنما هو على ما روينا عن ابن عباس ﷺ من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره، لا أنه خار بطبعه قط، وحتى لو صحّ أنه خار بطبعه لكان ذلك من أجل القوة التي كانت في القبضة التي قبضها السامري من أثر جبريل عليه السلام»[1].

4/ الحوار في قضايا الرسل عند ابن أبي عبيدة الخزرجي:

ركّز أبو عبيدة الخزرجي في ردّه على القس النصراني حول مسألة الرسل في مجموعة من النقاط؛ لعل أبرزها إثبات المعجزات والنبوات للحواريين والنساء والقسيسين، وهذا ما يتعارض مع شروط النبوة، فللقسيس خاطب أبا عبيدة يدعوه إلى الإيمان بدينه، وذكر من جملة محاسن دينه النبوات والمعجزات، وذكر أن إلهه عيسى أحيا الموتى، :« وفي الكتاب، الذي جاء به صاحب شريعتك، أنه أحيا الموتى وكفى بذلك دليلا على أنه هو الله »[2].ثم إنه أيّد بعض الحواريين بإحياء الموتى فأحيوا كما فعل المسيح[3].

فردّ عليه الخزرجي بتسا ؤل؛ هل إحياء الموتى دليل ألوهية، أم لا؟ وأوضح أنه لا يعني الألوهية بحال، إذ ثبت ذلك لغير عيسى عليه السلام بنص كتبكم. ثم ذكر أنهم أثبتوا نهاية النبوة بعد عيسى وناقضوها بإثباتها لبرنابا وسمعان ومناين[4].

أما معجزات القسيسين والرهبان فقد أثبتها القسيس مخاطبا الفتى: «ولو شاهدت نزول النور الذي يأتينا في كل سنة في ليلة عيدنا الكبير (...)، لرأيت أمرا عجيبا وشيئا غريبا»[5].

---

[1]. المصدر السابق: 126/1

[2]. بين الإسلام والمسيحية (المقامع): 63.

[3]. المصدر نفسه: 63

[4]. أعمال الرسل: 1/13. (نقلا من كتاب بين الإسلام والمسيحية: 156)

[5]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان): 103.

فلحابه أبو عبيدة جوابا شافيا، ذكر فيه كثيرا من الخدع الكهونتية التي يلبسون بها على عوام الناس البسطاء[1].

أما نبوة النساء فهي من أعجب الأشياء، حيث يؤمنون بنبوّة مريم وحنّة[2] وهما امرأتان[3].

وقد ردّ الخزرجي: بأن هذا لم يرد لا في كتاب ولا معجزة،ولم تذكرا في كتب الأنبياء.ثم تعجب منهم إثباتهم نبوة من ليس بنبي ولم ينص عليه، وكفرهم بنبوة محمد ﷺ وقد نص عليه ؟!

كذلك تحدث الخزرجي عن ازدراء واحتقار الأنبياء على لسان عيسى: وهذا من جملة افتراءات النصارى ، حيث عرّض عيسى عليه السلام بمن قبله من الأنبياء، إذ جعلهم لصوصا وسراقا، وإنما قَدِم هو ليحيوا ويزدادوا خيرا[4]؛ وعقب الخزرجي بأن هذا افتراء على عيسى عليه السلام بقوله: «ولقد رأيت مفسركم

"أوغسطين"[5] قد اعتذر عن هذا بهذيان لا يلتفت إليه»[6].

---

[1]. ذكر الخزرجي أنواعا منها: 267 . 272

[2]. حنّة: وهي حنة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدة عيسى عليه السلام، وليس باسم عربي ولا يعرف في العربية حنة اسم امرأة. وفي العربية أبو حنة البدري، ويقال فيه: أبو حبة (بالباء بواحدة) وهو أصح، واسمه عامر، ودير حنة بالشام (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 99/5).

[3]. إنجيل لوقا، الإصحاح: 2/ 36.

[4]. إنجيل يوحنا، الإصحاح: 8/1 . 18.

[5]. أوغسطين: القديس أوغسطين، سانت أوغستين اوف هيبو، "اوريليوس أغسطينوس هيبونيسيس "، باللاتينى : Aurelius Augustinus Hipponensis ولد في 13 نوفمبر354 م فى تاجاست (سوق أهراس حاليا) – وتوفي في 28أغسطس430 م فى هيبون (عنابة حالياً))، يتحدّر من أصول أمازيغية؛ يعتبر أعظم آباء الكنيسة. يعتبره الكاثوليك ثاني أهم شخصية أثّرت فى الفكر المسيحي بعد القديس بطرس. كان أسقف مدينة هيبون (عنابة). تأثر بكثير من التيارات الفكرية فى عصره، وانتهى بالإيمان بالمسيحية ، وحكى عن تجربته فى كتابه" الاعترافات" ، كان يؤمن بالجبر وبأن تاريخ البشر عبارة عن صراع بين مملكة الرّب ومملكة الدنيا. دافع بقوة عن روحانية المسيحية، ويعتبر من أهم وأقوى الشخصيات التي كان لها تأثير فى تاريخ الكنيسة. (ويكيبيديا الموسعة الحرة: آخر تعديل لهذه الصفحة كان يوم 02 نوفمبر 2017، الساعة 10:51.

[6]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان): 146

كما تحدث الخزرجي عن غلوهم في يحي: حيث زعموا أنه أكثر من نبي وأنه لم تلد النساء مثل يحي[1]، ثم نفى يحي النبوة عن نفسه حين سأله اليهود[2]، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته[3].

ومن جملة ما أشار إليه الخزرجي رمي الأنبياء بالكبائر وبما لا يليق بهم: ومن ذلك رمي المسيح بأنه صلب وقتل وبصق في وجهه وأنه ابن الله. تعالى الله. ومن ذلك رمي آدم بالذنب وتوريثه لأولاده وعدم توبته وقد تاب الله عليه[4].

ومن ذلك: ما ورد في كتبهم المقدسة عن رمي لوط بالزنا مع ابنتيه[5].

ومن ذلك: أن معجزة يد موسى كانت مبروصة كالثلج، وأن هارون هو الذي صنع العجل، وأن يعقوب صارع الله فغلبه وألقى به إلى الأرض، وأن داود نظر من داره فرأى امرأة إحدى جنوده وهي متعرية تغتسل فعشقها وبعث إليها وقدّم زوجها إلى المعسكر ليقتل [6]، ثم عجب الخزرجي منهم ومن دينهم وكتابهم الذي زعموا أنه من عند الله.

5/ الحوار في قضايا الرسل عند أبي محمد عبد الحق بن عطية:

اعتمد المفسّر ابن عطية على الآيات القرآنية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها في إقرار المعتقد الحق في ركن الإيمان بالأنبياء، ومن أهم ما بينه في تفسيره:

– الإيمان بجميع الأنبياء، وذلك في قوله تعالى :﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾[7].

---

[1]. إنجيل متى، الإصحاح: 11/11.

[2]. إنجيل يوحنا، الإصحاح: 1/ 20 . 23.

[3]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان): 156.

[4]. المصدر نفسه: 177.

[5]. سفر التكوين، الإصحاح: 19/ 30 . 38.

[6]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان): 240 . 257

[7]. سورة البقرة: 136.

« هذا الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، علمهم الله الإيمان، وما أُنْزِلَ إِلَيْنا يعني به القرآن، وصحّت إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون المنهيون فيه، وإِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ يجمعان براهيم وسماعيل، هذا هو اختيار سيبويه والخليل، وقال قوم «براهم» ، وقال الكوفيون: «براهمة وسماعلة» ، وقال المبرد: «أباره وأسامع» ، وأجاز ثعلب «براه» كما يقال في التصغير «بريه» ، وَالْأَسْباطِ هم ولد يعقوب، وهم روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وربالون ويشحر ودنية بنته وأمهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وولد له من سريتين ذان وتفثالي وجاد وأشرو، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسموا الأسباط لأنه كان من كل واحد منهم سبط، وما أُوتِيَ مُوسى هو التوراة وآياته، و «ما أوتي عيسى» هو الإنجيل وآياته، فالمعنى أنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، فدين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع، ولا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون، وفي الكلام حذف تقديره: بين أحد منهم وبين نظيره، فاختصر لفهم السامع، والضمير في لَهُ عائد على اسم الله عزّ وجلّ»[1]. وفي قوله تعالى:﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[2].

المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام، ووقفهم ـ تعالى ـ على موضع الانقطاع في الحجة؛ لأنهم إن قالوا أن الأنبياء المذكورين على اليهودية والنصرانية كذبوا؛ لأنه قد علم أن

[1]. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ ـ 2001م: 215

[2]. سورة البقرة: 140

هذين الدينين قد حدثا بعدهم، وإن قالوا لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم فَهَلُموا إلى دينهم إذ تقرون بالحقّ.

ثم أنكر عليهم تعالى كتمان الشهادة، وهي: ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية ، أو هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد بن عبد اللهﷺ [1].

وفي سياق تقرير الإيمان بالأنبياء أثبت القاضي نبوة آدم عليه السلام وعدّه أول نبي مرسل مكلم واستدل قائلا: وقد سئل رسول الله عليه السلام عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: (نعم مكلّم)[2] .

– التفاضل بين الأنبياء : في قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾[3]؛ نصّ الله في هذه الآية على تفضيل الأنبياء على بعض وذلك في الجملة دون تعيين مفضول. واستدل بأحاديث في هذا الباب كقوله عليه الصلاة والسلام: ((أنا سيد ولد آدم))[4]، وقال: ((لا تفضلوني على موسى))[5]، وقال ﷺ: ((لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى))[6] كحديث يونس وحديث موسى، ثم رجح أن المعنى بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أنه محمد بن عبد الله عليه السلام إذ به ختم الله النبوات وأرسله إلى جميع الأجناس[7] .

غير أن ما يلاحظ على ابن عطية أنه أهمل الجانب العقلي المنطقي في حديثه عن قضايا الرسل ، واعتمد على النقل من الكتاب والسنة، ما يجعل حديثه عن هذه المسألة خاصا

---

[1]. المحرر الوجيز: 216 . 217.

[2] . المصدر نفسه: 217 والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده 179/5، رقم 21529

[3]. سورة البقرة: 253.

[4] . المحرر الوجيز: 338

[5] . المصدر نفسه: 338

[6] . المصدر نفسه:338

[7]. المصدر نفسه: 339.

بالمسلمين دون غيرهم من أهل الكتاب، فهم أصلا لم يقروا بقدسية القرآن أو نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

6/ الحوار في قضايا الرسل عند الإمام القرطبي (صاحب الإعلام):

تحدث الإمام القرطبي في كتاب الإعلام عن النبوة في معتقد النصارى وحاول أن يستدرجهم ليوقع بهم في تناقض كتبهم المقدسة بالبرهان والدليل العقلي، فتحدث عن الحواريين والأتباع ونبوتهم وإرسالهم لتبليغ الناس أمثال برنابا وشمعون ووليوقيوش ومناين وأغفانوس وغيرهم، الذين أثبت لهم النصارى النبوة والمعجزات؛ وذكّرهم بما يقولونه عن نبوة مريم عليها السلام ، فردّ عليهم القرطبي كل ذلك بقوله: « ... فالجواب: أنه لا يصح لكم أن تعترفوا بنبوة واحد من هؤلاء، بل ينبغي لكم أن تكفروا بهم لأنكم ترون: أنه لا نبي بعد المسيح، وتسندون ذلك إلى كتبكم. فإما أن تكذبوا بقولكم لا نبي بعد المسيح، أو تنكروا نبوة من ذكرتم.

ثم لو سلمنا أنهم أنبياء، فليسوا المرادين بما ذكر، لأنهم لم يأتوا بكتب من الله، ولا بأوامر أخر»[1].

كما تساءل عن دليل ألوهية عيسى عليه السلام لمجرد ظهور المعجزات على يديه كإحياء الموتى وغبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير وغيرها من المعجزات الباهرة؛ فردّ عليهم الإمام القرطبي بقوله: «... ومنهم من قال: إنما قلنا بالاتحاد لأن عيسى ظهرت عليه أفعال لا تنبغي إلّا لإله، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، وهذه أفعال لا يقدر عليها إلّا إله، وهو قد قدر عليها، فهو إذن إله، ومنهم من قال: إنّما صرنا إلى ذلك لكون عيسى لم يخلق من الماء الدافق، الكائن عن أبوة، ولا خرج عن شهوة آدمية، بل خلق الله ناسوته من غير أب ليكون واسطا بينه وبين خلقه، وليتخذه لكلمته. وربما قال بعضهم:

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 271.

ألستم تقرؤون في كتابكم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[1] ؟ وهذا عين ما أنكرتم علينا من الاتحاد. فإن عيسى رسول الله، وكلمته. فناسوته: رسول الله، ولاهوته: كلمة الله. على ما أخبركم به كتابكم.

فنقول: «...» أما من استدل منهم على ذلك بما ظهر على يدي المسيح من خوارق العادات. فنقول له: لأي شيء قلت: أنها تدل على ألوهيته، ولم تقل أنها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته؟ فقال: «ربّ أعلم أنّك تعطيني كل شيء. ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة، ليؤمنوا به، وليصدقوا أنك أرسلتني » فهو قد استدل بإحياء الموتى على رسالته، وأنتم تستدلون بذلك على ألوهيته، فيلزم من هذا الاستدلال: العدول عن شرع عيسى المنقول، ومصادمة العقول.

ثم نقول لهم: كيف ينبغي لكم أن تقولوا هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه: لاهوت، وأنتم تعزون في كتبكم أن عيسى كان إذا أراد أن يفعل شيئا مما ذكر تضرع إلى الله، ورغب إليه بخضوع وتذلل حتى يقضي الله حاجته. وهذا موجود في كتبكم. كثيرا فيها»[2].

ويدلل الإمام القرطبي بأقوى ردّ على أن المسيح ابن مريم عبد مربوب لله تعالى قول عيسى عليه السلام حين صلبه بزعمكم: « إلهي إلهي لمَ أسلمتني؟»[3]

ويواصل الإمام القرطبي حواره العقلي في إثبات عبودية عيسى عليه السلام لله تعالى، مدللا على ذلك بقول عيسى عليه السلام: « لست أفعل من ذاتي شيئا. لكنني أحكم بما أسمع، لأنّي لست أنفذ إرادتي، بل إرادة الله الذي بعثني»[4].

---

[1]. سورة النساء : 171.

[2]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 133

[3]. إنجيل متى: 27 . 46.

[4]. النص:" أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني" (يوحنا 5: 30)

ويواصل إمامنا حواره المنطقي في درء شبهة الألوهية عن عيسى عليه السلام فيقول:« إن كان إحياء الأموات يدل على الألوهية، فلأي شيء لا تقولون: إن " إلياس " و " اليسع " كانا إلهين، وأنه حلّ بناسوتهما اللاهوت؟ وشأنهما في إحياء الموتى، لا يقدر أحد على دفعه، ولا يخفى»[1].

ليصل إلى إقامة الحجة البالغة عليهم حين تحدث عن إحياء الحواريين للموتى:« ثمّ من عجيب أمر هؤلاء القوم: أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين بإحياء الموتى، وجعلهم رسلا إلى الأجناس، فأحيوا الموتى بزعمهم [2]. فما الذي أوجب أن يكون المسيح في حال ألوهيته، قد أيّد بذلك بشرا، ويجعله رسولا إلى الناس؟ فإن كان المسيح من أجل أنه أحيا ميتا: هو الله. فكل من أحيا ميتا من الحواريين وغيرهم: هو الله.....؛ وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب. فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية، فإنه لم يخلق من نطفة أب، بل إنما خلق من تربة أرض. ثم نفخ فيه من روحه. كما فعل بعيسى، خلقه من نفخة الملَك فعلقت بلحمة مريم، فنشأ منها، وفيها..... ، بل لو أمكن لأحد أن يقول: أن بشرا يتصور أن يكون إلها لكونه من غير أب. لكان آدم أولى بذلك من حيث أنه لم تشتمل عليه أوضار الرحم. فقد شارك المسيح في كونه من غير أب، وزاد عليه أنه من غير أم، لم يتكون في ظلمة الرحم، ولم يتلطخ بدم الطمث ولا خرج من مجرى البول... ولم يختلف في ذلك أحد»[3].

ثم عرج للردّ على تأويلهم المحرّف للآية الكريمة:﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[4].

أحدها: أنهم لا يصدقون بكتابنا، فلا يستدلون به على شيء.

---

[1]. إلياس أحيا ابن الأرملة. (أنظر الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول). واليسع أحيا ميتين (أنظر الإصحاح الرابع من سفر الملوك الثاني ...) نقلا عن كتاب الإعلام: 135

[2]. أنظر الإصحاح العاشر من إنجيل متى (نقلا من كتاب الإعلام: 136)

[3]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 137

[4]. سورة النساء: 171.

والثاني: أنهم إن استدلوا على غرضهم بشطر من الآية. فإن صدرها يرد عليهم استدلالهم وكذلك الآيات التي بعدها، قال الله تعالى في كتابه العزيز:﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ ﴾[1].

كما أورد كلامهم في نصّ الإنجيل أن النساء لم تلد مثل يحي عليه السلام، قال:(لم تلد النساء مثل يحي)[2] ثم في إنجيل يوحنا أن يحي بعثت إليه اليهود من يكشف لهم أمره فسألوه: (من هو؟ أهو المسيح؟ قال: لا. قالوا: أتراك إلياس ؟ قال : لا. قالوا: أنت نبي؟ قال: لا. قالوا خبرنا من أنت ؟ قال: صوت مناد، في المفاز.

فنفى عن نفسه كونه . نبيا . ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته ، فإنه يكون كاذبا والنبي الصادق لا يكذب».[3]

[1]. سورة النساء: 171/172/173.

[2]. أنظر: يوحنا: الإصحاح 20/1 . 23. (نقلا من كتاب الإعلام: 211)

[3]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 211

وعقّب قائلا: فنفى عن نفسه كونه نبيا، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته فإنه يكون كاذبا والنبي الصادق لا يكذب.

فيلزمهم أحد أمرين: إما أن يكون يحي عليه السلام ليس بنبي، وهو باطل.

أو يكون إنجيلهم محرفا وهو حق.[1]

إنكارهم النبوات بعد المسيح عليه السلام: ومرادهم بذلك نفي نبوة ورسالة محمد بن عبد الله ﷺ، وختم النبوات بعيسى عليه السلام، وهم مع ذلك يؤمنون بأن بعض الحواريين وأتباع المسيح أنبياء، ويلزمهم على هذه الدعوى أن هؤلاء ليسوا بأنبياء إذ ختمت النبوات بعيسى، وهذا في غاية التناقض والفساد.

7/ الحوار في قضايا الرسل عند أحمد بن قاسم الحجري " أفوقاي":

لم يهمل أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي عن الحديث عن قضايا الرسل؛ وعالجها معالجة منطقية، مستندا في ذلك على البديهة والعقل في محاورته لأحد القساوسة؛ فقال: « ثم جزنا إلى قدام، إلى بين الأشجار غلاظ وطوال جدًا، وظهر لي أن من مثلها يعملون صواري السفن، ولما كنّا في الموضع بين الأشجار الكبار، ولم يظهر أحد قالا لي: تعجبنا منك تحفظ الألسن وتقرأ الكتب، وسرت في المدن وأقطار الدنيا ومع هذا تكون مسلما ! قلت لهم: العجب هو منكم تقرؤون الكتب والعلوم وأنتم من أهل هذه المدينة الكبرى ومع ذلك تقولون على الله تعالى الذي خلق كل شيء وهو واحد قبل كل شيء وبعده أنه ثالث ثلاثة ما لا يقبل العقل أبداً، وذلك نقصان في حقه تعالى. وقال أبرت: هذا التثليث في الإله لا يعرفه ولا يفهمه إلاّ من قرأ علم المنطق، قلت: وأنت قرأته، قال: نعم . قلت له: بيّن لي كيف هم ثلاثة وواحد، لأن أهل ديننا لا يقبلون إلا واحداً، وفي الحساب أما واحد وأما ثلاثة، وهم واحد فضدان لا يجتمعان، قال الراهب: جاني اليوم الآخر إلهام وبيان مقبول يدل على أن سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله حقيقة، وكان هو أيضا إلهاً ، وكتبته أن آتيك به تسمعه، قال له

[1] . المصدر السابق: 211.

أبرت ايتيني به، فمشى سريعا لبيته، وأتى به، وقرأه بالفرنج وعجمتهما، وقالا هذا شيء عجيب، قلت له: ماذا قال في ورقته؟ قال الراهب: الله تبارك وتعالى حين خلق الدنيا أمر كل شيء من المخلوقات في الدنيا أن يخرج وينبت ويلد على طبعه ونوعه ومثله، ورا الله تعالى أن ذلك صلاح ، فعرفت أن هذا القول أخذه من الباب الأول ومن التوراية، قال لي: ماذا تقول: فهل ذلك صلاح؟ قلت: نعم، كلما أمر الله تعالى به فهو صلاح، قال حين رأى الله تبارك وتعالى أنه صلاح، أن كل شيء يخرج ويلد على كيفية ومثله أراد هو أن يكون له ولد مثله، قال: ماذا تقول ؟ قلت له: على هذا القياس كان سيدنا عيسى يحتاج أن يكون له ولد مثله وابنه يكون له ابن آخر، فتكثر الآلهة إلى ما لا نهاية لها، قلت له: ما تقول؟ فبهت ، وبقي بورقته مبطلة غير مقبولة، وكذبه ظاهر. قال الله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾[1]، وذهبنا عن الراهب»[2].

ثم يستطرد الحجري بقوله: «واعلم أن تسمية سيدنا عيسى عليه السلام بابن الله لا يفهم منه في الإنجيل أنه ابن الله حقيقة، إنما يفهم نبي مقبول عند الله تعالى[3]»[4].

فأراد بهذا القول أن يوصل لذهن محاوره أن كلمة ابن الله لا تعدوا أن تكون اصطلاحا درج عليه الناس، ولما تعاقبت الأجيال والأعمار ترسّخ في ذهن الناس أنه ابن الله، بينما الحقيقة غير ذلك، وحجّة الحجري في ذلك قوله: «وقد قرأت في الإنجيل أن واحدا من الحواريين قال لسيدنا عيسى: أنت ابن الله حقيقة، قال له سيدنا عيسى: أنت قلت ، ولم يقبل منه ذلك»[5].

---

[1]. سورة الكهف: 05.

[2]. رحلة أفوقاي: 57

[3]. كتب في الطرة: قال في التوراية وأيضا في الإنجيل أن كل من كان صالحا يسمى ابن الله تعالى. (انظر: رحلة أفوقاي: 62).

[4]. رحلة أفوقاي: 62.

[5]. المصدر نفسه: 62.

ويبرع الحجري في توظيف حججه بشتى ألوان الإقناع، فيلجأ هذه المرّة إلى توظيف الفلسفة لإقناع غريمه؛ قال:« وقد وقع لي كلام بالمدينة المذكورة مع رجل مفتي، قال لي يوما: ماذا تقولون في عيسى عليه السلام ؟ قلت: إنه نبي ، رسول الله، قال: ما تقولون إنه ابن الله حقيقة؟ قلت له: ما نقول ذلك، قال: فمن كان أبوه؟ قلت: التي كانت أم حوّى كان أبوه، قال: بيّن ما قلت، لأنّي ما فهمت ما قلته عن أمنا حوى؟ »[1]. حتى أن الرجل الذي وصفه بالمفتي النصراني لم يفهم ماذا أراد أن يقول الحجري، وطلب منه تبسيط السؤال؛ فقال: « قلت له: اعلم أن خلقة الإنسان هي على أربعة أقسام:

القسم الأول: خلق الله تبارك وتعالى أبانا آدم عليه السلام من غير أبوين، وخلق أمنا حوى من غير أم، وخلق سائر الناس من أبوين، وخلق سيدنا عيسى عليه السلام من أم ليس له أب، كما خلق أمنا حوى ليس لها أم ، ولذلك قلت لك حين سألتني من كان أبوه؟ قلت: إن التي كانت أم حوى كان أبوه، ثم قلت له: هل ترى أن قدرة الله تعالى صالحة لأكثر من ذلك أم لا»[2].

فقام الحجري بعرض وتبسيط جوابه، الذي تحدّث فيه عن أنواع خلقة الله للبشرية، والديانات السماوية في كثير منها متفق، وبالتالي لا سبيل لهم في إنكار ما يقوله الحجري؛ فقال أنها أربعة أنواع هي: خلق من غير أب وأم وهي لآدم عليه السلام، وخلق من غير أم هي أمنا حواء، وخلق من أب هي لعيسى عليه السلام وخلق سائر البشر من أبوين، ضف إلى ذلك أن من صفات الباري عزّ وجلّ القدرة على كل شيء، ومن ذلك خلقه لعباده متى وكيف شاء جلّ وعلا.

[1]. المصدر السابق: 83

[2]. المصدرنفسه: 84.

ب /قضايا التسامح بين الشعوب وحرية التعبير والمعتقد:

أعلن الإسلام منذ بداية نزول القرءان على النبيّ العدنان عليه أفضل الصلاة والسلام، أن حرّية اختيار الدّين والعقيدة مكفولة لجميع الناس، بل إن الإسلام جعل الإنسان مسئولا مسئولية كاملة عن اختيار عقيدته الدينية، ولا سلطان لأحد مهما يكن موقعه السياسي أو الاجتماعي أو المذهبي على أي شخص ذكرا أو أنثى، ليملي عليه إرادة تعوق اختياره الحر للدّين الذي يدين به، سواء أكان الإسلام أو غير الإسلام.

وإذا اختار الإنسان أن يبقى على دين غير الإسلام مثل اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، فإن على الدولة الإسلامية أن تحمي اختياره، وأن تحمي حقّه في أن يَكفُر بالإسلام ويعيش في ظلّ دولة الإسلام وفي مجتمعه متمتعا بحقوقه التي كفلها له الإسلام، دونما ضغط عليه أو إكراه له، وآيات القرآن في ذلك واضحة حاسمة، يقول تعالى:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1] ، ويوجه الله تعالى رسوله في أسلوب قاطع فيقول له: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾[2]؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[3]؛ وهكذا فالإسلام يشرّع للناس حرية اختيار الدّين والاعتقاد بعد أن يبيّن لهم الرشد والغيّ، ويحترم هذه الحرية ويحميها ويضمنها ضمانا تاما.

وقد تأثر الحوار في الأندلس بين الأديان بالمناخ الحضاري والديني السائد والمسيطر؛ فحين تسمو الحضارة وتزدهر يتمتع الناس بحالة من الانفتاح والتسامح، وهجران الانغلاق والتعصب؛ وعلى ذلك فحين كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ساطعة في الأندلس تمتع الناس

---

[1]. سورة البقرة: 256

[2]. سورة يونس: 99.

[3]. سورة الكهف: 29

. مسلمين ومسيحيين ويهوداً . بتسامح ديني رائع، وأثمر حوارات دينية رفيعة بين المسيحيين والمسلمين واليهود الذين عاشوا جنبا إلى جنب في الوطن الأندلسي متمتعين بحرية الاعتقاد الديني التي كفلها الإسلام وحماها بكل قوة وعزم.

1/ صور التسامح وحرّية التعبير بين المسلمين والمسيحيين:

بلغ المجتمع الأندلسي حدا بعيدا في تسامحه مع النصارى، فقد ترك العرب للنصارى ببلاد الأندلس «نظامهم القضائي المستقل، كما كان لهم مطران مركزه طليطلة، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم»[1].

ويظهر أن هذا الأمر قد خلف نوعا من الثقة بين العرب الوافدين وغيرهم من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية، ومع التسامح الديني الذي ساد الأندلس تزوج بعض المسلمين من الإسبانيات فكونوا أسرا جديدة أنتجت لنا عنصرا جديدا أطلق عليه لقب المولدين الذين قاموا بدور كبير وبارز في تطور المجتمع الأندلسي عن طريق « دورهم في الاقتصاد العام للبلاد، حيث كانوا يمثلون العنصر الأكثر نشاطا والأحسن توافقا مع المستعربين والبربر على ظروف شبه الجزيرة ، وبمساعدتهم على التطور، أي معاونة الكثير منهم على الغنى والدخول شيئا فشيئا في المجتمع الأندلسي، حيث كان العنصر الفاتح يكوّن أرستقراطية خاصة»[2]، فأصبح الانتماء للأندلس هو الغالب على سكانها. ومن أغرب ما يذكر أن الدواوين الحكومية كانت تعطل يوم الأحد حتى يتمكن النصارى من أداء طقوسهم ، جاء في المقتبس لابن حيان: «وكان أوّل من سنّ لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة يوم الأحد من

[1]. تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، ط2، 1969: 13.

[2]. الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، عصمت عبد اللطيف دنش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م: 250.

الأسبوع والتخلف عن حضور قصره قومس بن أنتنيان كاتب الرسائل للأمير محمد وكان نصرانيًّا، ودعا إلى ذلك لنسكه فيه، فتبعه جميع الكتّاب؛ طلبًا للاستراحة من تعبهم، والنظر في أمورهم، فانتحوا ذلك، ومضى إلى اليوم العمل عليه»[1].

وقد بلغ التسامح بين المجتمع الأندلسي حدا جعل النصارى يجرؤون على الاستهزاء بالنبي ﷺ ولا يعترضه م أحد (وهو أمر مرفوض شرعا وعقلا) ؛ من ذلك ما ذكره ابن عذاري بقوله:«بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام أن رجلا نصرانيا وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال ... ونال منه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم فلم يكلّمه أحد منهم بكلمة فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي ﷺ ألا تنكرون ما تسمعون أما أنتم مسلمون، فقال له جماعة من أهل قرطبة امض لشغلك، وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولا لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء»[2].

وهذا الفعل وإن كان مشينا ويدفع الناس للثورة لعظم ما اقترفه النصراني، إلاّ أن مظاهر قوّة المجتمع الإسلامي هي التي جعلت سكان قرطبة يترفعون عن النزول إلى هذه المزالق.

ومن صور التعايش، أن عددا غير قليل من مسلمي الأندلس أوكلوا مهمة تربية أبنائهم إلى الجواري والإماء النصرانيات، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال التحقوا ببيئات النصارى، وهي بيئات غريبة عنهم في مقوماتها ومبادئها، الأمر الذي جعل كثيرا من أولئك الأبناء يألفون الكثير من عادات النصارى الذين تربوا في أحضانهم[3]. وهذا بلا شك مما ساعد على تأصيل الكثير من العادات والتقاليد النصرانية عند بعض أبناء المسلمين هناك؛ يقول أبو المطرف بن المثنى في وصف تلك الظاهرة:« فلم يقرع سمع ابن من أبناء خاصتنا عند ميلاده، ولا خامر طبع

---

[1]. المقتبس من أنباء الأندلس، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، تح: محمود علي مكي، بيروت، 1973م: 138

[2]. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج3: 98 .

[3]. أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبد النبي فلاح القيسي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1409هـ . 1989م: 175 . 176.

الرضيع منهم في مهده إلا كلام أمة وكعاء، وأعجمية خرقاء، ولا ارتضع إلا ثديها، ولا اكتسب إلاّ عيبها، ولا سكن إلاّ في حجرها، ولا مرن إلا بتدبيرها حتى إذا صار في عديد الرجال وانتهى إلى حدود الكمال، باشر طوائف النصرانية فخاطبهم بألسنتهم وجدّ في حفظ لغتهم وعانى طباعهم وكابد أخلاقهم ...»[1].

من خلال استقرائنا للنص يتبيّن لنا أن المجتمع الأندلسي على الرغم من اختلاف دياناته، إلا أن ذلك لم يؤثر على انسجامه وتسامحه، ففلذة كبد الأندلسي المسلم كان يكل تربيته للنصرانية ولا يرى في ذلك حرجاً، وإن رآها أبو المطرف نقيصة باعتباره فقيها.

بل وجدنا أشعارا (والشعر هو لغة الوجدان) لمسلمين تحسروا فيه على قتلى النصارى الذين جاءوا لمحاربتهم، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قول الأعمى التطيلي بمناسبة مدحه للبطل أحمد بن أبي الربيع بن عبد المليك:

سَلِ الرُّومَ فِي أَقلِيشَ يَومَ تَجَايَشُوا أَلَم يَعــلَمُوا أَنَّ الفَرَائِسَ لِلأُسدِ

تَبَــارَوا إِلَى الحُــتُوفِ فَسَــلهُم أَمَا كَانَ عَنهَا مِن مَحِيصٍ وَلَا بُدِّ؟ [2]

فالشاعر بهذا الاستفهام الإنكاري يبدو . رغم شعوره بنشوة الانتصار في كامل القصيدة . كأنّه يدعو متأسفا إلى تجنب الحرب وخلق بديل لها في علاقة سكان الجزيرة الأندلسية من مسلمين ونصارى.

ويتدعم هذا الاستنتاج في وصف الشاعر لقتلى النصارى بقوله:

وَحَتَّ تَــدُوسَ الخَيلُ أَوجُهَ فِتيَةٍ كِرَامٍ عَلَيهَا غَيرَ شُؤمٍ وَلَا نُكْدِ [3]

---

[1]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، 1/3: 414 . 415.

[2]. ديوان التطيلي، أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1989م: 31.

[3]. المصدر نفسه: 31

فالشاعر لا يخفي ألمه لهذه الوجوه الكريمة من الشباب النصراني، تزيد سنابك الخيل في تشويهها بعد أن شوهتها طعنات الرماح وضربات السيوف.

ومن القضايا التي تبرز لنا أن المجتمع الأندلسي بلغ مرحلة كبيرة من روح التسامح والانسجام بين أفراده على اختلاف أديانهم، ظهور لون شعري جديد هو التغزل بالنصرانيات؛ ذلك أن هذا الباب يَسْبُرُ أغوار النفس وقيمها الروحية والإنسانية. فالغزل في الأندلس حظي باهتمام الشعراء، فخلّف بصمات بارزة في تاريخ حياتهم، كيف لا وكلّ ما في الأندلس يغري بالحبّ ويدعو إلى الغزل، بين مجتمع يتذوق الجمال ويعشق الشعر ويعيش الحبّ على اختلاف أشكاله وشتى مناحيه؛ يهيئ له السبيل في ذلك طبيعة الأندلس الجميلة وترف المعيشة، واختلاط الأجناس من أمشاج متباينة، على اختلاف أعراقها وأديانها ولغاتها، فارتسمت نتيجة ذلك مناح للحبّ مختلفة ومفاهيم واتجاهات له متعددة، ومن بينها الاتجاه الذي يعنى بالتغزل بالمرأة النصرانية، وقد قطع هذا اللون من الغزل أشواطا بعيدة حتى شغل مكانا واسعا ونصيبا وافرا في مضمار الشعر الأندلسي، ويأتي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد[1] في طليعة الشعراء الذين أطروا لهذه الظاهرة، التي لا ريب أنها انعكست على نتاجه الغزلي، فطبعته بطابع محلي فيه من الأبعاد الحضارية والفكرية والفنية ما يجعل الواقف عليه والمتأمل فيه يندفع دفعا للإحاطة به، والغور في أعماقه واستجلاء أهم خصائصه وإبراز مميزاته، سيما وأن ابن الحداد يختلف فيه عن الكثير من شعراء عصره الذين أثّرت في شعرهم مظاهر هذه البيئة الجديدة، فالشاعر محمد بن أحمد بن الحداد كَلُف بصبية نصرانية ولم يجد حرجا ولا خجلا في نظم أبيات في وصفها، قال ابن بسام: « وكان أبو عبد الله قد مني في صباه

[1]. هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عثمان بن الحداد، أحد شعراء الأندلس في عصر الطوائف، عمل لدى بني صمادح في ألمرية حيث قال معظم شعره، ثم لحق بعد ذلك ببني هود أصحاب سرقسطة، توفي سنة 480هـ (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 2/1: 691).

بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب، وركب إليها أصعب مركب فصرف نحوها وجه رضاه وحكمها في عقله وهواه، وكان يسميها نويرة ...»[1].

إذا فالغزل بالمرأة النصرانية شكّل طفرة متقدمة وقفزة نوعية بفن الغزل في الأندلس، مخلفا جوا حضاريا جديدا يعبر عن روح الحياة الحضارية الجديدة « فهذا النوع من الغزل بدأ يتميز بلونه المحلي الذي يزيده وضوحا انعكاس الطابع الحضاري في المعجم الشعري» [2]، وهو ما يتضح جليا عند ابن الحداد، فهذه التجربة الجديدة جعلت نتاجه الشعري يتلون بألوان محلية انعكس بدوره على معجمه الغزلي الذي خيّمت عليه الأجواء العقائدية التي تدل على دين محبوبته النصراني، حيث مال الشاعر إلى التلاعب بالألفاظ المستمدة من الدين المسيحي، ومن المصطلحات التي شاعت في غزله ذكر الأديرة والكنائس والصلبان وعيسى عليه السلام والتثليث والرهبان والنساك والصوامع، وسنقتصر على ذكر بعضها:

- **التثليث**: إن التثليث عند النصارى يعني وجود الإله في ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويظهر توظيف هذا المصطلح عند ابن الحداد في قوله:

وَفِي شِرعَةِ التَثلِيثِ فَردُ مَحَاسِنِ تُنزِلُ شَرعَ الحُبِّ مِن طَرَفِهِ وَحيَا. [3]

يصرح الشاعر في هذا البيت بأن له محبوبة تنتمي لشريعة التثليث، ويصفها بأنها غاية في الحسن والجمال (فرد محاسن) ، كما يبوئ محبوبته المنزلة الرفيعة والمرتبة العالية والمكانة العظيمة، فشريعة الحبّ أنزلت من طرفها على المحبين ، وهنا يوظف الشاعر واقعة نزول الوحي على الأنبياء توظيفا فنيا غاية في الحسن والجمال.ويسوق الشاعر هذا المصطلح في موضع آخر فقال:

---

[1]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، 2/1: 693.

[2]. الحبّ في الأندلس ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية، جودت مدلج، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ط 1، 1985: 246.

[3]. ديوان ابن الحداد الأندلسي، يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990: 306.

حَدِيثُكِ مَا أَحلَى فَزِيدِي وَحَدِّثِي عَن الرَّشَإِ [1] الفَرِدِ الجَمَالِ المُثَلَّثِ

وَلَا تَسأَمِي ذِكرَاهُ فَالذِّكرُ مُؤنِسِي وَإِن بَعَثَ الأَشوَاقَ مِن كُلِّ مَبعَثِ

وَبِاللهِ فَارقِي خَبْلَ نَفْسِي بِقَولِهِ وَعَقدُ وُجدِي بِالإِعَادَةِ فَانفُثِي

أَحَقًّا وَقَد صَرَّحتُ مَا بِيَ أَنَّهُ تَبَسَّمَ كَاللَاهِي بِنَا المُتعَبِّثِ [2]

توضح هذه الأبيات أن محبوبة ابن الحداد نصرانية العقيدة، وقد دلّت عليها لفظة (المثلث) ثم يصورها بأنها متفردة الجمال (الرشإ الفرد الجمال) ولعل ذلك ما زاد في تأجيج مشاعر الحب والشوق في نفس الشاعر الذي أوحشه الحبيب فبات يتقلب على نار الشوق والوجد مما أثار أشجانه وهيّج عواطفه تجاه المحبوبة الغائبة؛ فلم يتمكن من كبت إحساسه وعواطفه فلجأ إلى إحدى صديقاتها يطلب منها أن تطيل حديثها العذب عنها، في حين يصور الشاعر بأن هذه المرأة النصرانية غير مبالية بحبه، عابثة بمشاعره مما يؤكد أن حبه كان من طرف واحد (تبسم كاللاهي بنا المتعبث).

ويوظف الشاعر مصطلح التثليث في واحدة من درر إبداعه فقال:

مُثَلَّثَةٌ قَد وَحَّدَ اللهُ حُسنَهَا فَتَنِي فِي قَلبِي بِهَا الوَجْدَ وَالحَزَنَ [3].

استهل الشاعر بيته بمصطلح (مثلّثة) للدلالة على أن محبوبته نصرانية، وربط هذا التثليث بالجمال في قوله: (قد وحد الله حسنها)، فهي امرأة مثلثة في دينها متفردة في جمالها، ثم يصور ابن الحداد حالة وجدانية اقتبسها من دين محبوبته النصراني الذي اعتمد فيه على مبدإ التثليث، حيث يبدي قدرة خارقة على التلاعب بالألفاظ وعبقرية واسعة في ابتكار المعاني، مصطنعا لحبه أقانيم ثلاثة: (الحسن، الوجد، الحزن) محققا بذلك التثليث الوجداني العاطفي.

---

[1]. الرشأ: ولد الغزال

[2]. ديوان ابن الحداد: 168 . 169.

[3]. المصدر نفسه: 256

ثم ينتقل ابن الحداد في جانب آخر من القصيدة لإبراز تفتحه على الديانة النصرانية، بل لا يرى غضاضة في الانعطاف نحوها، وليس بمستغرب على شاعر ترك الحب بصماته بارزة في نفسه، لينعكس على مواقفه، حيث تجاوز هذا الحب ما تمليه الأعراف والتقاليد، فلم يكترث لشيء وأصبح ينساق راضيا إلى الثناء على دين محبوبته ومدحه، فابن الحداد يتحسس حرمانه فيناجي " نويرة " أن تريح قلبه من معاناة حرارة الوجد، لاجئا في ذلك إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أين يتلاعب بالألفاظ فيجانس بين عساك وعيساك فيقول:

عَسَاكِ بِحَقِّ عَيسَاكِ مُرِيحَةَ قَلبِي الشَّاكِي [1].

وفي موضع آخر يقص ابن الحداد قصة حبّه للقس عساه ينقذه من ذلّ الهوى وعذاب الشوق وألم الوجد والهيام، مادحا في ذلك الدّين المسيحي الذي يعتبره دين تسامح لا دين قسوة لأن مبادئه تنهض على تعاليم المسيح عليه السلام فيقول:

وَلَا بُدَّ مِن قَصِّي عَلَى القِسِّ قِصَّتِي عَسَاهُ مُغِـــيثَ المدنِفِ المتَغَوِّثِ

فَلَـــم يَـــأتِهِم عِيـــسَى بِدِينِ قَسَاوَةٍ فَيَقسُو عَلَى مُضْنًى وَيَلهُو بِمُكرَثِ [2]

ويظهر إعجاب الشاعر بدين محبوبته " نويرة " وهو يطرب لسماع تراتيل النصارى وهم في عيدهم (عيد الفصح) فقال:

وَقَد تَلَوا صُحُفَ أَنَاجِيلِهِم بِحُـسنِ أَلحَانٍ وَأَصـوَاتِ

يَزِيدُ فِي نَفَرٍ يُعَافِـــــرُهُم عَنِّي وَفِي ضَغطِ صَبَايَاتِي

كما تبدو فتنة الشاعر وولعه بما يلف محيط حبيبته من طقوس وشعائر في قوله:

وَأَولَعَـــــنِي بِصُـــلـــبَانٍ وَرُهبَـــــــانٍ وَنُسَّـاكِ [3]

---

[1]. المصدر السابق: 241

[2]. المصدر نفسه: 171.

[3]. المصدر نفسه: 241.

ومما أبدع فيه ابن الحداد في النهج الذي قادته نفسه إليه هو تبدد العوامل الدينية والاجتماعية، فحبّه لهذه المرأة النصرانية جعل نفسه تضِل عن دينه الإسلامي لتتبع دين النصارى فقال:

وَفِي شِرعَةِ التَّثلِيثِ فَردُ مَحَاسِنٍ تَنزَّلَ شَرعُ الحُبِّ مِن طَرْفِهِ وَحيَا
وَأَذهَلُ نَفسِي فِي هَوَى عِيسَوِيَّة بِهَا ضَلَّت النَّفسُ الحَنِيفِيَّةُ الهَديَا [1]

وجملة القول أن هذا الاتجاه الذي سلكه ابن الحداد (التغزل بالمرأة النصرانية) مكّنه من توظيف اللغة العقائدية في معجمه الغزلي، الشيء الذي جعل شعره يتميز بالبراعة ويُسهم إلى حد بعيد في رسم الملمح الحضاري للأندلس.

أمّا المثال الآخر المجسّم لنموّ نبتة الحبّ والتسامح وسط أشواك الحقد والضغينة في أخريات عهد الأندلس الإسلامية، فنجده في ديوان عبد الكريم القيسي، وهو شاعر من القرن 9هـ / 15م عاش بمدينة بسطة ووقع في الأسر وحمل إلى مدينة آبره في أراضي قشتالة، ولنا في ديوانه صورة حيّة لا نجدها في كلّ كتب التاريخ عن ظروف عيش الأسير المسلم في القرن 9هـ لدى النصارى، وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذابا ماديا ونفسيا متواصلا، فالقيسي وهو الفقيه الإمام يكلفه النصارى بأعمال لا تليق بمقامه العلمي والديني قصد الإهانة والتشفي فيقول ضجرا متألما:

وَاحَسرَتِي، بَعـدَ اشتِغَالِي بِالعُلُو مِ وَدَرسِـهَا وَتِـلَاوَةِ القُـرآنِ
أَمِيٌّ وَأَصـــبَحَ خَـادِماً مُتَصَرِّفاً لِعِبَادَةِ الأَصـــنَامِ وَالأَوثَـانِ
إِن لَمْ أَكُـن بِالحَفرِ مُشتَغِلًا أَكُن بِالهَدمِ مُشـتَغِلًا مَـعَ البُنيَانِ
وَالكَنسُ فِي يَومِ الجُلُوسِ صِنَاعَتِي وَالرَشُّ يَتبَعُهُ مَـدَى الأَحيَانِ
فَثِيَـابُهُـــــم أَدرَانُهَا مَغسُولَةٌ بِيَدِي، وَثَوبِي الدَّهرُ بِالأَدرَانِ [2]

[1]. المصدر السابق : 306

[2]. ديوان القيسي، عبد الكريم بن محمد القيسي البسطي، تح: جمعة شيخة، محمد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، تونس، 1988م: 198.

ومع ذلك لا يحقد القيسي على هذا المجتمع بل ينسى عذابه ويهفو قلبه لفتاة نصرانية تدعى ألبيرة تبادله هي الأخرى الحبّ رغم الحواجز العقدية، فيقول:

فَأَعجَـــبُ عُبَّادِ الصَّـلِيبِ صَبِيَّةٌ سَبَتنِي بِـوَجهٍ مِثلَ بَـــــدرٍ مُتَمَّمِ

فَبِتُّ حَلِيفَ الهَـمِّ مِن فَرطِ حُبِّهَا وَبَاتَتْ هَـــجرِي فِي فِـرَاشٍ تَنعَّمِ

وَكَم نَعَّـــمَتنِي مِن لَذِيذِ وِصَالِهَا بِمَا لَمْ تَصِل نَفـــسِي لَـهُ بِتَوَهُّمِ

فَقَـبَّلْتُ مِنـــهَا الخَدَّ وَهُوَ مُوَرَّدٌ وَثَنَّيتُ بِالثَّـــــغرِ المِلِيحِ التَبَسُّمِ

وَمَالَت لِفَرطِ السُّكرِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ كَمَيلِ الصِّبَا صُبحاً بِغُصنِ تَنَعُّمِ

وَلَـــولَا عَفَـــافِي وَاتِقَاءِ عِتَابِهَا تَمَتَّـــــــعتُ مِنهَا بِالمَحَلِّ المحَرَّمِ [1].

ومن صور التعايش السمح بين مختلف الملل والأديان في الأندلس الإسلامية، ما خلّفه الشاعر الأندلسي أبو الحسن الششتري المتصوّف الزاهد في ديوانه، الذي استطاع أن يجعل من دير النصارى مكانا يتحاور فيه مع النصارى عن الخمرة من منظور صوفي، وذلك في لاميته الخمرية، «فالخمّار في قصيدته هو مطلوبه، إذ هو الساقي الأول، وهو المقصود بكل عبادة أو نسك، لكن الوصول إليه يقتضي تجاوز الأشكال واختراق المظاهر، وعدم الاحتفال بها؛ فهو ينصح نفسه وغيره بإحسان معاملة الآخر ممن هو على غير ملته، ويدعو إلى توقير الدير والقائمين عليه، وإلى استماع ألحانهم اتباع، وإلى تأمل مناسكهم مع الحذر أن يسلبوه عقله، وألا يركن إليهم فينشغل بهم عن المحبوب، لأنه بذلك وحده يدرك أهل الدّير قيمته، فيعلون مكانته، ويخلعون عليه ألقابهم ويفتحون له كنوز أسرارهم وينال عندهم حظوة »[2]، فيقول:

---

[1]. المصدر السابق: 217.

[2]. أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال . حياته وشعره .، بومدين كروم، دار التوفيقية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1432هـ . 2011م: 115.

وَدُونَكَ أَصْوَاتُ الشَّمامِيسِ فَاستَمِعْ لِأَلحَانِهِمْ واحْــذَرْكَ أَنْ يَسْلُبُوا العَقْلَا
بَدَتْ فِيهِ أَقْــمَارٌ شُمُوسٌ طَــــوَالِعٌ يَطُوفُونَ بِالصُّلْبَانِ فَاحْذَرْكَ أَنْ تُبْلَى
فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْمَــحَ لَــهُــنَّ بِخُــــلَّةٍ وَإِيَّــاكَ أَنْ تَجْمَعْ لَهُــنَّ بِكَ الشَمْلَا
فَإِنْ كَــانَ هَذَا الشَّرْطُ وَفَّيْتَ حَقَّهُ بِصِدْقٍ وَلَمْ تَنْقُضْ عُــهُــودًا وَلَا قَولَا
دَعَــوكَ بِقِسِّيــسٍ وَسَمَّــوكَ رَاهِبًا وَأَبدَوْا لَكَ الأَسْرَارَ وَاسْتَحْسَنُوا الفِعْلَا
وَأَعْطَــوْكَ مِفْتَــاحَ الكَنِيسَةِ وَالتِّي بِهَا صَــوَّرَتْ عِيسَى رَهَابِينُهُمْ شَكْلَا [1].

ويتجاوز الشاعر هذه الشكليات، وينفذ إلى الدّير ويمسي فيه سيّدا يسأل عن الخمّار وعن طريقة الوصول إليه، لتناول الشراب منه مباشرة فقال:

وَلَمَّا أَتَــيْــتُ الدِّيــرَ أَمْسَيْتُ سَيِّدًا وَأَصْبَحْتُ مِنْ زَهْوِي أَجُرُّ بِهِ الذَّيْلَا
سَأَلْــتُ عَــنِ الخَــمَّارِ أَيْــنَ مَحِلُّهُ؟ وَهَــلْ لِي سَبِــيلٌ لِلْوُصُولِ بِهِ أَمْ لَا؟
فَــقَــالَ لِي الْقِــسِّــيسُ مَاذَا تُرِيدُهُ؟ فَقُــلْتُ أُرِيــدُ الخَمْرَ مِنْ عِندِهِ تُمْلَا

ويتعسّف القسيس في تحقيق مراد الشاعر في مناولته الخمرة؛ فيلجأ الشاعر إلى تقديم كل ما يملكه جلّ أو دقّ، غلا أو رخص، فهو مستعد ليقدمه ثمنا في مقابل حصوله على الخمرة، لكن دون جدوى:

فَــقَــالَ وَرَأْسِــي وَالمَــسِيحِ وَمَرْيَمٍ وَدِيــنِي وَلَــوْ بِالدُّرِّ تَــبْذُلْ بِهِ بَذْلَا
فَقُلْتُ لَهُ: أَزِيدُ التِّبْرَ لِلدُّرِّ قَــالَ: لَا وَلَــوْ كَــانَ ذَاكَ التِّــبْرُ تَكْتَالُهُ كَيْلَا
فَقُلْتُ لَهُ: أُعْطِيكَ خُفِّي وَمُصْحَفِي وَأُعْطِيكَ عُكَّازًا قَطَعْتُ بِهِ السُّبُلَا
وَهَــاكَ حَــرَمْــدَانِي[2] وَهَــاكَ شُمَيْلَتِي وَهَا دَسْتُمَانِي وَالْكُشَيْكُلَ وَالنَّصْلَا

[1]. ديوان أبي الحسن الششتري، تح: علي سامي النشار، منشأة المعارف بالأسكندرية، مصر، ط1، 1960م: 60.
[2]. الحرمدان: الجراب، الدّستُمان؛ الحرمدان:حقيبة السفر، المحفظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده، ويطلق اللفظ أحيانا على حقيبة الحلاق.

وَهَــا سِرُّ مَـفْـهُـومِي وَعُـودُ أَرَاكَتِي وَقِـنْـدِيـلُ حَــضْرَاتِي أُنَادِمُهُ لَيْلَا

فَـقَـالَ: شَـرَابِي جَـلَّ عَـمَّا وَصَفْتَهُ وَخَــمْرَتُــنَا مِمَّا ذَكَرْتَ لَنَا أَغْلَى [1]

«وبديله هو خرقته التي وصلته بالسند المتصل عبر شيوخه الذين ذكرهم في قصيدته النونية، وما الخرقة أو العباءة إلاّ الطريقة الهادية إلى المحبوب ومعرفته ومحبّته وهي الأسمى والأعلى، والأهدى سبيلا»[2]:

فَقُلْتُ لَهُ دَعْ عَنْكَ تَعْظِيمَ وَصْفِهَا فَخَــمْـرَتُـكُمْ أَغْلَى وَخِرْقَتُنَا أَعْلَى

عَلَى أَنَّــنَا فِـيهَا رَأَيْــــنَا شُيُوخَنَا وَفِيهَا أَخَــذْنَا عَنْ مَشَايِخِنَا شُغْلَا

وَفِـيهَا لَــنَا سِــــرٌّ أَدَرْنَــاهُ بَيْنَـنَا وَفِيهَا لَنَّا سِرٌّ عَنِ السِّــرِّ قَدْ جَلَّى

وَفِـيهَا لَنَا العُــذَّالُ لَامُـوا وَأَكْثَرُوا وَآذَانُــــنَا فِي لُبْسِهَا تَتْرُكُ العَذْلَا

فَلَـمَّـا لَبِــسْـنَاهَا وَهِمْـنَا بِحَــبِّــهَا تَرَكْنَا لَهَا الأَوْطَانَ وَالمَالَ وَالأَهْلَا [3]

«ولـمّا أبان القسيس عن ميله إلى الخرقة، وأظهر رغبته في لبسها، جاء دور الشاعر في تحديد شروط الانتساب إلى الطريقة؛ فشرطها: الطهارة المادية والمعنوية، وكسر المألوف بتبديل الثياب، وتمزيق الزنار، وخلع كل الأعراف والعادات ذات الصلة بالكنيسة»[4]:

فَـقَـالَ: عَسَى تِلكَ العَبَاءَةُ هَاتِهَا فَقَدْ أَثْبَتَتْ نَفْسِي لَهَا الصِّدْقَ وَالعَدْلَا

فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ شِئْتَ لُبْسَ عَبَاءَتِي تَـطَـهَّـرْ لَهَا بِالـطُّـهْرِ وَأَضْحَ لَهَا أَهْلَا

وَبَـدِّلْ لَهَا تِــلْكَ المَلَابِسَ كُلَّهَا وَمَزِّقْ لَهَا الزُّنَّارَ وَاهْـجُــرْ لَهَا الشَّكْلَا

فَقَالَ: نَعَــم إِنِّي شُــغِـفْتُ بِحُبِّهَا سَأَجْـعَـلُـهَا بَـيْـنِي وَبَـيْـنَـكُمْ وَصْلَا [5]

---

[1]. ديوان الششتري: 61 . 62.

[2]. أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال . حياته وشعره .: 116

[3]. ديوان الششتري: 61

[4]. أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال . حياته وشعره .: 116

[5]. ديوان الششتري: 61.

«ولـمّا بلغ الحوار هذا المستوى من القناعة المعرفية، رضي القسيس بالمقايضة، فعرض على الشاعر شرب خمره، وقدمها إليه في أباريق مغرية، لكن الشاعر رفض هذا العرض رفضا لطيفا، مبرزا أنّ الخمر التي طلبها هي الخمر المعنوية لا الخمر المادية، فخمره هي المحبّة، وهي التجليات الإلهية، وهي خمر قديمة العهد، وصرف لم تمتزج بغيرها؛ إنها الخمر الدالة على توحيد الخالق، والاعتراف بنبوة محمد ﷺ ورسالته»[1]:

فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذِهِ الرَّاحُ مَقْصِدِي وَلَا أَبْتَغِي مِـــنْ رَاحِكُمْ هَذِهِ نَيْلَا
وَلَـكِـنَّـهَا رَاحٌ تَـقَـــادَمَ عَهْدُهَا فَمَا وُصِفَتْ بَـعْدُ وَلَا عُرِفَتْ قَبْلَا
تَـــدُلُّ بِـــأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَـيْـرُهُ وَأَنَّ رَسُـــــولَ اللهِ أَفْضَلُهُمْ رُسْلَا
عَـلَـيْـــهِ سَـلَامُ اللهِ مَا لَاحَ بَارِقٌ وَمَا دَامَ ذِكْرُ اللهِ بَيْنَ الوَرَى يُتْلَى [2]

«إن قراءة النّص قراءة عادية غير متكلفة، تفضي إلى الكشف عن قيمة النّص الحضارية، في أنه نصّ معبّر عن موقف رافض لأجواء الصّراع بأنواعه ومستوياته، ومقترح لبديل حضاري هو الحوار؛ وحوار الشاعر هنا حوار إسلامي يحترم الآخر، ويستمع إليه ويسمعه، ويحاول إقناعه بالبديل الممكن»[3].

[1]. أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال . حياته وشعره .: 117
[2]. ديوان الششتري: 61
[3]. أبو الحسن الششتري الصوفي الجوال . حياته وشعره .: 117

ب/ صور التسامح وحرية التعبير بين مسلمي الأندلس ويهودها:

رأينا صورا عديدة لحرية التعبير بين مسلمي ونصارى الأندلس وجوّ التسامح الذي غطى أغلب مراحل الأندلس الإسلامية، ولكن هل وقع الشيء نفسه بين مسلمي الأندلس ويهودها؟

إذا ما استعرضنا فترات من تاريخ ساكنة الأندلس الإسلامية فإننا نعثر على العديد من المحاورات الفكرية بينهم، وساعد على حدوث هذه المحاورات الحرية الفكرية التي توفرت لهم إتقانهم اللغة العربية، وحصول بعضهم على مناصب حكومية مهمة، ورغبتهم في الحفاظ على معتقداتهم.

ولعل أبرز ميدان جسّد جوّ التسامح وفتح حرية التعبير دون رقيب هو ميدان الدراسات الدينية، فقد كانت الدراسات التلمودية لليهود في الأندلس تحتل المرتبة الأدنى في الإنتاج الفكري اليهودي قبل الفتح الإسلامي لقرون وبعده لعقود، وذلك بسبب توجه معظم المثقفين اليهود هناك نحو الدراسات الأدبية والفلسفية والعلمية، واستمر ت هذه الحال إلى أن احتلَّ حسداي بن شبروط منصباً مهماً في حكومة الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ)، وصار يُقلّد ملوك وأمراء وأثرياء المسلمين في الأندلس، فجلب العلماء وشجعهم، وأرسل إلى المشرق الإسلامي من يحضر ما يصدره العلماء هناك من كتب ورسائل، فكان الكتاب يشتهر في الأندلس في بعض الأحيان قبل أن يشتهر في بلد المؤلف نفسه؛ لقد أرسل حسداي إلى مختلف البلدان من جلب إليه نسخ التوراة الثمينة، وغيرها من الكتب التي كان يسمع عنها[1].

ولم يقتصر نشاط ابن شبروط في هذا المجال على جلب الكتب، بل أرسل إلى علماء اليهود المشهورين من يدعوهم ويشجعهم على القدوم إلى الأندلس، ويتحدث شاعر يهودي

[1]. تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جونثالث بالنثيا: 488-489.

أندلسي عن حسداي فيقول: «إنه غرز أعمدة الحكمة، وجمع حوله رجالاً ذوي علم ومعرفة من فلسطين إلى العراق»[1].

ويعبر هذا النشاط الذي قام به حسداي عن روح التسامح، وعن الحرية الفكرية والدينية التي كانت تسود في الأندلس، فلو أنّ حسداي يعلم أنّ نشاطاته تلك تتعارض مع سياسة الحكومة، لما قام بها وعرَّض نفسه ومنصبه للخطر.

وكان الحبر اليهودي الإيطالي موسى بن حنوخ قد نقل إلى الأندلس العلوم التلمودية، وتخرج على يديه العديد من التلاميذ، الذين صاروا يخدمون هذه الدراسات؛ وكانت ترجمة التوراة والميشنا إلى اللغة العربية التي يفهمها يهود الأندلس أكثر من اللغة العبرية من أهم الأعمال التي دعمت الدراسات الدينية اليهودية، وقد قام بترجمة التوراة إسحاق فالسكيز في قرطبة سنة 335هـ [2]. كما قام إسماعيل بن النغريله بتأليف تفسير للتلمود، احتوى على تاريخ ومنهجية ما يُدعى بـ"السنة الشفوية"[3].

وكان الحبر الأعظم لأليسانة إسحاق بن غيَّاث ت: 482هـ، أستاذ اً متبحِّراً في التفسير والفقه اليهودي، وكانت إنجازاته الرئيسة قد تركزت في مجال التلمود، ولكن لم يُحفظ منها إلا القليل؛ وأفضل أعمال ابن غيَّاث التي ما تزال محفوظة، ويردد اليهود الكثير من هذه قصائده الدينية، وهي تزيد عن ثلاثمائة قصيدة، نظم معظمها على نمط الموشحات العربية[4].

وكان للعالم التلمودي المغربي إسحاق الفاسي (404-496هـ) الذي ارتحل في زمن المرابطين إلى الأندلس، واستقر في أليسانة، أثرٌ كبيرٌ في تطور الدراسات التلمودية، وقد عَدّه

---

[1]. اليهود في الدولة العربية في الأندلس: 431.

[2]. منهج النقد التاريخي عند ابن حزم، طاهر حامد، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ع 6، 1408هـ-1988م :613. نقلا عن اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 431.

[3]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، خالد يونس عبد العزيز الخالدي: 432.

[4]. اليهود في الأندلس، عبد المجيد محمد بحر: 62.

اليهود خليفة الأحبار المشرقيين، وناقل علمهم إلى الأندلس؛ وقد أصبح الفاسي رئيساً للمدرسة التلمودية في أليسانة، تلك المدينة التي أصبحت المركز الروحي الجديد ليهود الأندلس بعد قرطبة وغرناطة؛ وقد تقاطر الطلاب اليهود من كل أرجاء الأندلس إلى تلك المدرسة، وتلقوا العلوم التلمودية على يدي ذلك العالم الكبير[1].

ويُعدَّ كتاب "التلمود المختصر" أعظم أعمال إسحاق الفاسي، حيث اختصر فيه التلمود، وسجل في مختصره ما يعتقد أنه مهمٌّ ومفيد، فسَهَّل على الطلاب استيعاب العلوم التلمودية؛ وعندما توفي

الفاسي حزن يهود الأندلس، وكتب أعظم شعرائهم في ذلك العصر يهودا هاليفي على شاهدِ قبره هذه الأبيات :

في يوم سيناء، ارتعشت الجبال تشريفا لك

لقد قابلك ملك الربّ

وحفر التوراة على ألواح قلبك

ووضع تاجه المفقود على رأسك[2]

وكانت إشبيلية هي المركز الآخر بعد أليسانة التي انطلقت منها دراسة التلمود، وكان الحبر إسحاق الباليا المعاصر للفاسي فاعلاً جداً هناك، وقد كتب بحوثاً عدّة عن قانون التلمود، تحتوي على كثير من التحليل والنقد والتفسير، ودخل في حوار فكري مع الفاسي، وتبادل الحبران النقد واللوم كتابياً وشفوياً[3].

[1]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، خالد يونس عبد العزيز الخالدي: 432.

[2]. المرجع نفسه: 432

[3]. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس: 433

وكان أبو زكريا يحي بن صاموئيل بن بلعام، أو "يهودا"، حسب اسمه العبري، أحد علماء اليهود التلموديين في الأندلس، وقد ولد في طليطلة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وتعلم فيها، حيث درس الكثير من البحوث التلمودية مثل كتاب "الأديان والآراء" للحبر سعديا، ثمّ انتقل إلى إشبيلية، وعمل فيها معلماً، وهناك وضع ابن بلعام أهم مؤلفاته الدينية، وهي تفسيراتٌ للتوراة باللغة العربية، وكان جريئاً في كتابته، إذ انتقد كثيراً من آراء المشاهير قبله أمثال سعديا وإسماعيل بن النغريلة[1].

ومن علماء اليهود التلموديين أبو الحسن اللاوي، أو يهودا اللاوي (468-536هـ)، وهو صاحب كتاب "الحجة والدليل في نصر الدين الذليل" الذي قيل إنّه استغرق في تأليفه عشرين سنة، وأنه كان رداً على سؤال أحد اليهود، دافع فيه اللاوي عن اليهودية بالمقارنة مع الفلسفة اليونانية والديانتين النصرانية والإسلامية، وقد قسّم كتابه إلى خمسة أقسام؛ ويتضح من خلال هذا الكتاب ثقافة صاحبه الواسعة، وتمكنه من العقيدتين النصرانية والإسلامية، وفلسفة الإغريق، وفلسفة ابن سينا[2].

لقد تطورت الدراسات الدينية اليهودية في الأندلس تطوراً كبيراً، ونال الأحبار اليهود الذين تلقوا علومهم في الأندلس شهرة واسعة، وصار يهود المشرق ينظرون باحترام إلى الأحبار الذين يأتون إليهم من الأندلس.

وكان أشهر عالم على الإطلاق أنجبه يهود الأندلس هو موسى بن ميمون، الذي يسميه العرب موسى بن ميمون عبيد الله، ويسميه الأوربيون "ميمونيدس"، ويختصر اليهود اسمه إلى "رمبم"، وقد ولد بقرطبة سنة (530هـ)[3]، وتربى في بيئة علمية، حيث عمل والده ميمون

[1]. الموسوعة العبرية، م25: 487.

[2]. اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، مسعود الكواتي: 160.

[3]. قصة الحضارة، ول وايريل ديورانت ج3، م4: 120.

التلمودي قاضياً، بعد أن تخرج من مدرسة الفاسي بأليسانة، وقد تعلم موسى الكثير من الأدب العربي والعبري قبل أن ترحل عائلته من قرطبة إلى المرية سنة (543هـ) ، وفي المرية تلقى موسى المزيد من التعليم الديني، كما درس الفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية على أيدي الأساتذة المسلمين [1]؛ وصار لابن ميمون توجّهٌ فكريٌّ خاص وحماس لكتابة أفكاره، ورغبة في تطوير الدراسات التلمودية، فبدأ في سنة (553هـ) بكتابة تفسير شامل للميشنا[2]، وقد انتهى منه بعد عقد كامل.

وفي سنة (555هـ) هاجرت عائلة ابن ميمون إلى فاس؛ وهناك تتلمذ موسى على يدي عالم يُدعى يهوذا الكاهن؛ ولم تستقر أسرة ميمون طويلاً في فاس، بل تركتها حوالي سنة (561هـ)، وأبحرت إلى عكا ثم إلى مصر، واستقرت في مدينة الفسطاط، حيث كان الخلفاء [الفاطميون] يحسنون معاملة اليهود وغيرهم من الذميين؛ وأنشأ يهود الأندلس الذين ازداد عددهم في الفسطاط في زمن الموحدين مدرسة لتعليم علوم الديانة اليهودية والفلسفة والرياضيات والطب؛ وانضم موسى بن ميمون لهذه المدرسة، وواصل البحث والدرس، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح من أساتذتها المبرّزين [3]، وعندما حكم الأيوبيون مصر صار ابن ميمون طبيباً للحكام الأيوبيين، ثم رئيساً للطائفة اليهودية في مصر، يقول عنه ابن أبي أصيبعة: «الرئيس أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي، يهودي، عالم بين اليهود، ويعدّ من أحبارهم وفضلائهم، وكان رئيساً عليهم في الديار المصرية... وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين (الأيوبي) يرى له ويستطبّه، وكذلك ولده الملك الأفضل علي. وقيل إن الرئيس

[1]. الأدب العبري القديم والوسيط، ألفت محمد جلال: 146.

[2]. الميشنا: قسم من التلمود، الذي ينقسم إلى قسمين: الميشنا والجمارا، والميشنا بمثابة المتن، والجمارا بمثابة الشرح. ينظر: اليهود في الأندلس، محمد بحر عبد المجيد: 90.

[3]. اليهود في الأندلس، محمد بحر عبد المجيد:88-89.

موسى قد أسلم في المغرب وحفظ القرآن و«اشتغل بالفقه» ثم إنه لما توجه إلى الديار المصرية ارتد»[1].

لقد كان الإنتاج الفكري لابن ميمون غزيراً في علوم الديانة اليهودية، وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «عالم بسنن اليهود، ويُعدّ من أحبارهم» [2]، ومن أوائل الكتب التي كتبها ونشرها، كتاب بعنوان "مناظرة عن الردّة"، ويعلق أحد الباحثين عن أسلوب ابن ميمون في الكتابات الدينية بقوله: «وأسلوب موسى العبري غني بالمفردات، دقيق في التعبير، وهو ليس بأسلوب الميشنا الخالص، كما أنه ليس بأسلوب الكتاب المقدس، وإنما هو خلق جديد خاص به قد أثّرت فيه الأساليب النثرية العربية المألوفة عند علماء المسلمين في عهده، وكان أسلوب موسى بن ميمون العبري قد أصبح المثل الأعلى لكلِّ من دوَّن في التشريع بالعبري»[3].

إنّ عقلية موسى بن ميمون وثقافته التي تشكلت وتأثرت بالبيئة العلمية التي تميزت بها الأندلس تحت حكم المسلمين، مكنته من الإبداع في كل ما كتب، ولا تزال مؤلفات ذلك الرجل من أمهات الكتب التي يرجع إليها علماء اليهود في الديانة والفقه اليهودي [4]، مما جعلهم يقولون فيه: «من موسى [النبي عليه السلام] إلى موسى [ابن ميمون] لم يظهر كموسى»[5].

وإذا نظرنا إلى الجانب التعليمي عند يهود الأندلس فنجده انتشر انتشارا كبيرا، لتأثر اليهود بالنهضة العلمية والأدبية عند المسلمين، فقد نعم يهود الأندلس بحرية وتسامح كبير في إقامة

---

[1]. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الجزري (ت: 668هـ)، شرح وتحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، ، بيروت، 1965: 582.

[2]. المصدر نفسه: 583.

[3]. موسى بن ميمون حياته ومصنفاته، إسرائيل ولفنسون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط 2، 1355هـ-1936م: 49.

[4]. اليهود في الأندلس، محمد بحر عبد المجيد:90.

[5]. موسى بن ميمون، إسرائيل ولفنسون: 26.

المدارس وتطوير مناهج التعليم واستقلالية شبه تامة في إدارة مدارسهم ومعاهدهم، خاصة وأنهم عاشوا داخل مجتمع متميز بشدة إقبال أبنائه على العلم والتعلم، والذي لم يقتصر التعليم بين أفراده على فئة معينة، أو على أبناء المدن الكبرى، وإنما شمل معظم أفراد المجتمع، ووصل إلى جميع أرجاء الأندلس، يؤكد ذلك العذري، وهو يتحدث عن مدينة شلب، حيث قال: «قلّ أن يرى من أهل شلب من لا يقول شعراً، ولا يتعانى الأدب، ولو مررت بالحراث خلف فدانه، وسألته الشعر لقرض في ساعته، أي معنى اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه صحيحاً»[1].

وكان من الطبيعي أن يتأثر يهود الأندلس بهذا المجتمع الذي كان أفراده إما عالم أو متعلم، ويقلدوه في الإقبال على العلم[2]، بعد أن عاشوا قروناً في هذه البلاد قبل مجيء المسلمين، بعيداً عن جميع العلوم والآداب، ودون أن يبرز منهم عالم واحد، وحتى القلائل المتعلمون لا يعرفون إلا العلوم الدينية التي يتناقلونها منذ قرون عدة دون زيادات أو إضافات تذكر عليها[3].

اتخذ يهود الأندلس بيعهم مدارس لتدريس أبنائهم الصغار، مثلما فعل المسلمون الذين كانوا يعقدون دروس العلم في المساجد، وكانت الدروس في هذه البيع تعقد في مصلى البيعة أو في غرفة جانبية داخلها[4].

وعلى ما يبدو فإنَّ هذه المرحلة من التعليم مستمدة من نُظم التربية الإسلامية التي تبدأ بتعليم الولدان القرآن الكريم[5]، لأنه كما قال ابن خلدون: «وصار القرءان أصلَ التعليم الذي

---

[1]. آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت،1969م:541.

[2]. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، س.د جوايتاين، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م:155.

[3]. الأدب العبري القديم والوسيط، ألفت جلال: 130.

[4]. اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، مسعود الكواتي، دار هومه، الجزائر، 2009، ط2: 150.

[5]. مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الفكر، بيروت لبنان، 2007: 588.

ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أنَّ تعليم الصّغر أشدَّ رسوخاً وهو أصلٌ لما بعده»[1].

وأوَّل عالمٍ لغوي ظهر في الأندلس برع في النحو العبري هو "مناحيم بن ساروق الطرطوشي (298-349هـ) الذي اتَّصل بحسداي بن شبروط وزير الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة وصار سكرتيراً له. وفي تلك المدَّة التي تمتَّع فيها مناحيم بعطف حسداي وتشجيعه أنتج إنتاجه الفكري الذي هيأ له مكاناً رفيعاً في تاريخ الفكر اليهودي، وأهم أعمال مناحيم اللغوية، المعجم العبري الذي يُسمى "محبريت" أي التفسيرات، ويُعدُّ هذا المعجم أوّل عملٍ لغوي في العبرية يغطّي جميع مفردات الكتاب المقدَّس. والكتابُ مقَدَّم بمقَدّمة طويلةٍ عن النحو العبري، وطريقته في التأليف هي طريقة نحاة العرب، وقد أفاد هذا الكتاب كثيراً العلماء اليهود في أوروبا، وكان سبباً في قيامهم بدراساتٍ لغويةٍ مستفيضة، لأنه كان الكتاب النحوي الأول الذي كتب باللغة العبرية، إذ أنَّ مؤلفات اليهود النحوية كانت تكتب وقتئذٍ باللغة العربية[2].

وكان الطُلاَّب اليهود ذوي الميول نحو العلوم والأدب، يدرسون على أيدي معلمين مسلمين. ومن هؤلاء اليهود إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي، الذي تلَّقى قواعد اللغة العربية على أيدي الأساتذة المسلمين أمثال أبي علي الشلوبين، وأبي الحسن الدباج، وأصبح شاعراً وباللغة العربية بارعاً. وكان الطلاب اليهود يجلسون في حلقاتِ العلمِ جنباً إلى جنب مع الطلاَّبِ المسلمين[3]. ويفاخرون بمعارفهم في النحو العربي، ويحرصون على إظهار قدراتهم فيه، يلاحظ ذلك في كثير من أشعار إبراهيم بن سهل، مثل قوله :

وَيَعْذِلُنِي العَـــوَاذِلُ فِيهِ جَهلًا عَـــــزِيزٌ مَا يَقُولُ العَـــاذِلَانِ

[1]. المصدر السابق: 588.

[2]. تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا: 488-489

[3]. أبو نواس الأندلس. ابن سهل الإسرائيلي .، محروس الجالي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م: 32-33.

فَقَالُوا: عَبدَ مُوسَى، قُلتُ: حَقًّا فَقَالُوا: كَيفَ ذَا؟ قُلتُ اشتَرَانِي

فَقَالُوا: هَل رَضِيتَ تَكُونَ عَبداً؟ لَقَد عَـــرَّضتَ نَف ــسَكَ لِلهَوَانِ

فَقُــلتُ: نَــعَم أَنَا عَبدٌ ذَلِــيلٌ لِمَن أَهـــــوَى فَخَلُّونِي وَشَ انِي[1]

وقوله:

جَعَـلَ الهَيمِنُ حُبَّ أَحمَدَ شِيمَةً

وَأَتَـــــى بِهِ فِي المرسَلِينَ كَرِيمَةً

فَـغَدَا هَـوَاهُ عَلَى القُلُوبِ تَمِيمَةً

وَغَدَا هُدَاهُ لِهَدِيهِم تَتْمِيمَا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسلِيمَا[2]

وأيضاً بقصيدته التي استحثّ فيها المسلمين للدِّفاع عن إشبيلية عندما اشتدَّ عليها حصار أعدائهم الإسبان سنة 645هـ، قال فيها:

يَا مَعشَرَ العَرَبِ الذِّينَ تَوَارَثُوا شِيمَ الحَمِيَّةِ كَـابِراً عَن كَـابِرِ

إنَّ الإِلَهَ قَد اشتَرَى أَروَاحَكُم وَيَهنكمو ثَــوَابُ المشـتَرِي

أَنـتُم أَحَقُّ بِنَصرِ دِينِ نَبِيِّكِم وَبِكُم تَمَهَّدَ فِي قَدِيمِ الأَعصُرِ[3].

ويروي الشنتريني أنَّ الشاعر الأندلسي الشهير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، كان أستاذاً ليهودي اسمه يوسف بن إسحاق يعلمه الشعر والأدب[4].

وظلَّ الطلاَّب اليهود يتلقون مختلفَ العلوم على أيدي الأساتذة المسلمين الأكفاء،حتى في المدن الأندلسية التي كانت تقع في قبضةِ النصارى الأسبان، وعن ذلك يقولُ المقَّري: «وكان

---

[1]. أبو نواس الأندلس، محروس الجالي: 79.

[2]. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ . 1988م: 445/7.

[3]. أبو نواس الأندلس . ابن سهل الإسرائيلي .، محروس الجالي: 113.

[4]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 1/1: 233 – 234.

محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرفِ أهل الأندلس بالعلومِ القديمةِ :المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب، فيلسوفاً طبيباً ماهِراً، آية الله في المعرفةِ بالأندلس، يُقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلّمها، ولما تغلَّب طاغية الروم على مرسية، عرف له حقَّه، فبنى له مدرسةً يُقرئُ فيها المسلمين والنّصارى واليهود» [1]. وكان في بياسة سنة 553هـ عالم غرناطيّ يدعى عبد الله بن سهل ، يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود[2].

وكما تغزّل الأندلسي المسلم بالفتاة النصرانية، كذلك لم يجد حرجا في التغزّل بالفتاة اليهودية، ولم يَحُلْ اختلاف الدّين من أن تتعلق قلوب بعضهم ببنات اليهود، وقد سجّل التاريخ أشعارا كثيرة تغزّل فيها الأندلسي بالمرأة اليهودية ولم يمنعه التقرب منها لكونها يهودية؛ ولم يشعر أنّه عائق يقف بينه وبين من أحبّ؛ ومنه قول شهاب الدّين بن الخلوف[3] في مقدّمة قصيدة طويلة له يقول فيها:

طَوْرًا أُرَى فِي كُلِّ سَرْحٍ[4] وَمَعْبَدِ ... وَطَوْرًا أُرَى فِي كُلِّ دَوْحٍ وَرَوْضَةِ

وَطَوْرًا أُرى فِي كُلِّ دَرْسٍ وَمَعْب ... وَطَوْرًا أُرَى فِي كُلِّ دَيْرٍ وَبَيْعَةِ

أَدِينُ بدينِ الحُبِّ فِي كُلِّ مَوْضِعِ ... وَأَصْبُو لِذَاتِ الحُسْنِ فِي كلِّ وِجْهَةِ[5]

---

[1]. نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، م4: 130.

[2]. المنّ بالإمامة وتاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م: 400.

[3]. هو الشّاعر:أحمد بن محمّد الحميري يعرف بشهاب الدّين بن الخلوف.فاسِيّ الأصل، قسنطينيّ المولد، تونسيّ الدار، كتب في الأدب نظما ونثرا وبرع فيه. توفّي عام 899هـ .("الضّوء اللامع"، السّخاويّ: 122/2، 102؛ الأعْلام، الزركليّ: 231/1)

[4]. السّرحة: دوحة واسعة يحلّ تحتها النّاس في الصيف ويبتنون تحتها البيوت وظلها صالح، وقيل هو كلّ شجر طال. (لسان العرب، ابن منظور، مادة[سرح]: 480/2).

[5]. ديوان شهاب الدّين ابن الخلوف ، تح: هشام بو قمرة، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1988م: 88.

تشير الأبيات إلى أنّ ابن الخلوف تنقّل باحثا عن الحبّ بين المعابد وأماكن الدّرس والتّعليم؛ فالشّاعر لا يرى الدّين حاجزا يمنع الوصول إلى جميلات الدّيانات الأخرى ومنهنّ اليهوديات.

. أثر اليهود في الغزل التّقليديّ:

تصدّرت قصائد مدح اليهود ع لى قلّتها بالغزل. فابن الفرّاء الأخفش بن ميمون [1] في مدحه ابن النغريلّة اليهوديّ يتغزّل في سهولة ناسبت كون الممدوح يهوديّا بقوله:

أَهْوَى الذِي تَيَّمَنِي حُبُّهُ وَمَا دَرَى أَنِّيَ أَهْـوَاهُ

أَكَادُ أَفْنَى مِنْ غَرَامٍ سِيَّمَا سَاعَةَ أَلْقَاهُ

وَاللهِ مَا يَذْكُرُنِي سَاعَةً وَلا وَحَقِّ اللهِ أَنْسَاهُ[2]

وظهر عكس هذا عند ابن خيرة المقتل في الممدوح نفسه، في قصيدة طويلة مطلعها[3]:

أُحَاجِيكُمُ هَلْ يَمَّمُوا الضَّالَ وَالسِّدْرَا أَبَى قَلْبِيَ المَعْمُودُ [4] أَنْ يَسْكُنَ الصَّدْرَا

فِي المَوْدَجِ المَزْرُورِ جُؤذُر رَمْلَ أَسِيلُ مَجَالِ القِرْطِ فِي حُرَّةِ الذَّفْرَى

نلاحظ أن الشاعر بدأ قصيدته بالنمط العربي القديم، بدأها بمقدمة طللية قصيرة تتحدّث عن الرّحيل وأثره على قلبه، ثمّ لاحق هودج المحبوبة بينما قلبه المريض بحبّه دائم الخفقة

---

[1]. هو:الأخفش بن ميمون القبذاقي المعروف بابن الفرّاء، ذكره الحجاري في "المسهب"،من حصن القبداق من أعمال قلعة بني سعيد، وتأدّب في قرطبة، ثُم عاد إلى غرناطة واعتكف بها على مدح ويرها اليهوديّ ابن النغريلّة.وكانت مهاجاة بينه وبين المنفتل شاعر إلبيرة الذي كان كذلك من مادحي الوزير اليهودي، وبعد قتل اليهوديّ وفد على ألمريّة ومدح رفيع الدولة بن المعتصم بن صمادح (المغرب، ابن سعيد: 182/2؛ نفح الطّيب، المقّريّ: 346/4) .

[2]. المُغرب في حلى المغرب،ابن سعيد المغربي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف : 2/ 182.

[3]. الذّخيرة، ابن بسّام: 2/1: 763 .

[4]. المَعمودُ:المريض، ويقَال له: ما يعمدك؟ أي ما يوجعك. وعمده المرض أي أضناه. (لسان العرب، ابن منظور، [عمد] 303/3) .

والخفقان يأبى السّكون لتفكيره براكبة ذاك الهودج، وكلّ هذا مقدّمة للغزل بالمحبوبة؛ ليصف بعد ذلك أثر الحبّ على قلبه، مستعرضا محاسن محبوبته، فيقول:

كَـــأَنَّ الثُّرَيَّا مَا بَدَا مِنْ وِشَاحِ ... وَقَدْ هَمَّتِ الأَرْدَافُ أَنْ تُسْلِمَ الخَصْرَا

يُذَكِّـــرُنِي شَكْلَ الهِلالِ سِوارُ ... قَدْ أَرْسَلَتْ مِنْ دُونِ هَوْدَجِهَا سِتْرَا

يَقُولُونَ إِنَّ السِّحْرَ فِي أَرْضِ بَابِلَ ... وَلَوْ عَايَنُوا أَجْفَانَهَا نَظَرُوا السِّحْرَا

يُرِيكَ طُلُوعَ البَدْرِ طَرْقُ شُعاعِهَا ... وَتَفْجَأُ مِـنْ إِيضَاحِ غُرَّتِهَا الشِّعْرَى

فَيَا لَكَ مِنْ نَحْـرٍ يُزَيِّنُ عِقْدَهَا ... إِذَا عِقْدُ مَـنْ شَجَى بِهَا زَيَّنَ النَّحْرَا[1]

فوشاحها المزيّن باللآلئ يشبه الثّريّا، وسوارها كالهلال، وسحر جفونها فاق سحر السّحرة ببابل. والعقد ازداد جمالا على النّحر الجميل، ثمّ وصف المنفتل أثر الحبّ عليه، فقال:

فَلا هَجَرَتْ عَيْنِي سَوَابِقُ أَدْمُعِي ... كَمَا أَنَّ لَيْلِيَ بَعْدَهُمْ هَجَرَ الفَجْرَا

فَقُلْ فِي شَجٍ قَدْ باتَ يَمْسَحُ دَمْعَهُ ... بِكَفٍّ وَأُخْرَى تحتَهَا كَبِدٌ حَرَّ

وَقَدْ ضَرَبَ الليلُ البَهِيمُ رِوَاقَهُ ... وَأَطْلَعَ فِي الآفَاقِ أَنْجُمَهُ الزُّهْر

كَـــأَنَّ سَمَاءَ الأَرْضِ بَحْرُ زَبَرْجَدٍ ... وَقَدْ نَثَرَ الغَـــوَّاصُ مِنْ فَوْقِهِ

لقَدْ طَالَ هَذَا اللَّيْلُ فالدَّهْـرُ بَعْضُهُ ... وَلَمْ أَرَ لَيْلاً قَبلَـهُ شاكَلَ الدَّهْرَا

ومَا اكْتَحَلَتْ عيْنِي بِمِثْلِ ابنِ يُوسُفَ ... أُحَاشِي الشَّمْسَ مِنْ ذَا وَلا [2] البَدْرَا[3]

ومن وصف دموعه الغزيرة المتساقطة دون انقطاع انتقل للحديث عن مخبأ هذه الدّموع وهو ليل العشّاق الطّويل. ولا همّ لدى الشّاعر إلا أن يمسح دموعه الغزيرة بإحدى يديه واليد الأخرى يضعها على كبد متألّمة ملتهبة لشدّة ألمه من الحبّ، وفي هذا تقليد لمن قال بأنّ أثر

[1]. الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 2/1: 764 .

[2]. أحاشي: أفزع من حاش يحيش حيشا إذا فزع، وأحاشي فلاناً: أبعده وأعزله. (لسان العرب، مادة[حيش] 181/14).

[3]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 2/1: 763 - 764 .

الحبّ يظهر على الكبد وليس القلب. ثمّ يصف اللّيل البهيم، وبتخلّص حسن ينتقل إلى الهدف من القصيدة وهو مدح ابن يوسف الذي جاء نوره كالقمر الذي يزيل سواد اللّيل، بل كان كالشّمس ش ديدة اللّمعان. فالأبيات السّابقة في الغزل وأثره وطول اللّيل ما هي إلا مقدّمات تقليديّة للمدح. ولم يتأثّر الغزل كثيرا بكون الممدوح يهوديّا سواء في أبيات الغزل أم في المدح بعده ا.

- شُعَرَاءَ مِنَ اليَهُودِ

لا بدّ أن لليهود شعرًا نُظم بالعربية ، لأنّ كثيرا م نهم تعلّم العربيّة، ونظم بها. وبشهاد ة العرب أظهر بعض اليهود نجابة في تعلّم النّظم؛ فهذا أبو عامر ابن شهيد يقول: إنّه جلس إليه يوما يوسف ابن إسحاق الإسرائيليّ- وكان أفهم تلم يذ مرّ به - وهو يوصي رجلا عزيزا عليه من أهل قرطبة عن كيفية نظم الشّعر، وطلب إليه أن يأتي الغداة عليه بشيء يصنعه يدلّ على أنّه فهم. وكان ذاك اليّهوديّ ساكتا يعي ما يقال، فغدا القرطبيّ فأنشد لأستاذه، ثمّ جاء اليّهوديّ، فأنشده:

أيَمَّــمَ رُكْبَانُهُمْ مَنْعِجًا وَقَد ضَمَّنُوا قَلْبَكَ الهَوْدَجَا[1]

واستمرّ إلى آخر قصيدته، فأتى بكلّ حسن، فقال القرطبيّ: شعر اليهوديّ أحسن من شعري[2].

ومن شعراء اليهود الذين أجادوا نظم الشعر بالعربية والعبرية ، نجد إسماعيل بن النغريلة ، فقد أنشد:

يَا غَايِبًا عَنْ نَاظِرِي لَمْ يَغِب عنْ خَاطِرِي رِفْقًا عَلَى الصَب
فَمَا لَـهُ فِي البُعْدِ مِنْ سلْوة وَمَا لَهُ سُـولٌ[3] سِــوَى القُرْبِ

[1]. المصدر السابق: 1/ 1 : 233 .

[2]. المصدر نفسه: 1/ 1: 233 – 234 .

[3]. سول الإنسان: أمنيّته أن يتمنّاها فتزيّن لطالبها الباطل وغيره من غرور الدنيا، وأصل السّول مهموز عند العرب استثقلوا ضغطة الهمزة فيه فتكلّموا به على تخفيف الهمز. (لسان العرب: مادة [سول] 350/11).

صُوِّرْتَ فِي قَلْبِي فَلَمْ تَبْتَعِدْ عَنْ نَاظِرِ الفِكْـــرَةِ بِالحُبّ
مَا أَوْحَشَتْ طَلْعَةُ مَنْ لَمْ يزل يُنْـــقَلُ مِنْ طَرْفٍ إِلَى قَلْبِ [1]

ومن اليهود الذين برزوا في الثقافة العربية وقول الشعر؛ إسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي الذي قال عنه صاحب المسهب على حدّ ما ذكر ابن سعيد، إنّه « أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، وكان لازم ابن باجة وأحسن الغناء بلسانه ويده ... وكان له نظم رائق»

قُمْ هَاتِ كَأْسَكَ فَالنَّسِيمُ قَدِ اتَّسَقْ وَالعُودُ عَنْ دَاعِي الهَمَسَرَةِ قَدْ نَطَقْ
وَلَدَيْكَ مِنْ حَثِّ الكُؤُوسِ أَزَاهِراً فِي الخَزِّ يَمْرَحُ كَالأَرَاكَةِ فِي الوَرَقْ
وَالــزَّهرُ زَهــرُ وَالرِّيَاضُ سَمَاؤُهَا وَالفَــجرُ نَهرٌ وَالشَّقَائِقُ كَالشَّــفَقْ[2]

لقد أظهرت التجربة الإسلامية في الأندلس. عبر التسامح الديني في شتى مظاهره. مدى التعايش الذي أتاحه الإسلام مع غيره من سائر الديانات والملل والنحل عامة بعقل وعلم، وبواقعية وتوازن واعتدال، دون إلزام أو إكراه، ودون خشية على العقيدة من التحرر الفكري مهما يكن تجرؤه وإطلاق العنان لنفسه، بعيداً عن الاكتفاء بإعمال النقل والتقليد، فضلاً عن التحجر والتعصب . وبفضل هذا التسامح وما أنتج من تلاقح عرقي، وتواصل ثقافي وحضاري، برزت طاقات للإبداع جعلت بلاد الأندلس تتميز عن سائر الحواضر العالمية . وتجدر الإشارة في إطار هذه المقارنة إلى الموقف المتسامح الذي كان للمسلمين مع اليهود، والموقف الاضطهادي الذي كان يعاينه هؤلاء في الممالك النصرانية، خاصة بعد الاسترداد الذي ألجأهم إلى الهجرة أو إلى إظهار التنصّر.

[1]. المغرب، ابن سعيد: 115/2 .
[2]. المصدر نفسه: 1/ 127.

الفصل الرابع:

الدراسة الفنية لأدب حوار الأديان.

لعلّ من أصعب ما يواجهه دارس الأدب تحليل النصوص وفق منهجية محددة المعالم، إذ إنه ليست هناك وصفة جاهزة للتحليل يمكن الاعتماد عليها والركون إليها أثناء تحليل خطاب ما، خصوصا إذا تعلق الأمر بالنص التراثي، فلعل من أبرز سمات النص التراثي وملامحه « تعدديته وبناءه المركب، وقيامه على آليات تشكيل تسمح بإعادة قراءته، ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجديد»[1]

وقد حاولنا في هذه الدراسة أن نعتمد على مقومات أدب حوار الأديان مظهرا ومخبرا مركزين على محاور أساسية، أبرزها حجاجية الدليل والأسلوب ثم أسلوبي السخرية والتهكم، ونعرج على توظيف الأمثال وأثرها على المعنى ، دون أن نهمل الحدّة والعنف في نصوص هذا اللون الأدبي وننهيه باستعراض مدى توظيف فنون البلاغة الثلاث البيان والبديع والمعاني.

[1]. أدبية النص السردي عند أبي حيان التوحيدي، حسن أبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، 2009: 05.

1/ حجاجية الدليل:

يحتكم المتحاورون في أي ميدان إلى أدلة مختلفة رغبة في تحقيق الإقناع المطلوب، إذ لا يمكن لأي طرف من أطراف الحوار أن يسلم لخصمه ما لم يأت بدليل مقنع سواء أكان نقليا أم عقليا.

ويعرف الدليل في الاصطلاح على أنه: « الحجة لإثبات رأي يقينا »[1]، ويعرفه الأصوليون بأنه:« ما صحّ أن يرشد إلى المطلوب ، وهو الحجة والبرهان والسلطان »[2]. وهكذا فالدليل حجة تؤدي إلى إثبات أمر ما، اختلف حوله المتحاورون، كما أن الأدلة «تشكل سلطة مرجعية معترفا بها، قادرة على تجاوز معارضة الخصم وانتزاع تسليمه»[3].

وبتتبع الدليل في المحاورات الدينية في الأندلس تبيّن لنا أن الأدلة التي توسل بها الأندلسيون وخصومهم كانت مزيجاً من المنقول والمعقول، غير أن الطابع الغالب عليها هو غلبة العقل والمنطق في سائر المحاورات، حتى تلك الأدلة النقلية من الكتب المقدسة عند كل طرف، غلب عليها جانب العقل والمنطق ، أو الاستشهاد من خلال النصوص المقدسة للطرف الآخر حتى يكفي نفسه مؤونة الإقناع، وهذا ما ستكشف عنه المحاور الموالية.

أ/ الأدلة النقلية:

من العلامات المميزة للحضارة الأندلسية ذلك التلاقح القائم بين مختلف مكوناتها مسلمين وذميّين، وقد أثمر هذا التلاقح حوارات متعددة بين مكوناته في ميدان الانتصار لدينِ كلّ ملّة،

---

[1]. المعجم المفصل في الآداب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، مصر، ط1414،2هـ/ 1993، ج2: 444.

[2]. المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 2001م: 11

[3]. خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي (مقاربة لآليات بلاغة الإقناع) أطروحة دكتوراه، عبد اللطيف عادل، إشراف عبد الواحد بن ياسر، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 1425هـ/ 2004م: 206

وعمل كل طرف على إفحام خصمه بنصوص من كتابه المقدس، نظرا لمركزية الكتب السماوية وقيمتها عند أهل ملتها؛ فقد كان مبتغى كل طرف هو البحث في نصوص الخصم عن آيات تدين الآخر، أو البحث في الكتاب المقدس لخصمه عن دليل الخطأ. فالدليل النقلي كان حاضرا بقوة داخل نصوص الحوار بين الأديان، فهو يدخل ضمن «مراعاة الحال الثقافي للمخاطب ، حيث يوظف المحاور داخل خطابه المرجعيات الثقافية التي تحظى بالنفوذ والمصداقية في الحقل الثقافي الذي ينتمي إليه المخاطب»[1].

ويمكن بيان ذلك من خلال الحوار الذي جمع بين ابن حزم وقاض نصراني حول مسألة وجود نِعم في الدار الأخرى، مثل نِعم الدنيا من ملبس ومشرب ومطعم ...، فقد كان النصراني ينكر هذا الأمر، لكن ابن حزم استدل على وجوده بالاستشهاد بنص من الإنجيل قائلا: « وعارضني يوما نصراني كان قاضيا على نصارى قرطبة في هذا، وكان يتكرر على مجلسي، فقلت له: أو ليس فيما عندكم من الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح، وفيها أُخذ بزعمكم، وقد سقاهم كأسا من خمر وقال: إنّي لا أشربها معكم أبدا حتى تشربوها معي في الملكوت عن يمين الله تعالى.

فهذا نص على أن في الجنة شرابا من ماء وخمر، فسكت النصراني وانقطع، وأما التوراة التي بأيدي اليهود فليس فيها ذكر لنعيم في الآخرة أصلا، ولا لجزاء بعد الموت البتة»[2].

يتبين من خلال هذا الاستشهاد، المسار الذي سلكه ابن حزم في الاستدلال ، فقد أورد الدليل النقلي المأخوذ من الإنجيل ، مع تحليله تحليلا علميا يدل على معرفة واسعة بهذا الكتاب «المقدس» عند النصارى، ثم يورد أدلة عقلية يبطل بها مزاعم خصومه ودعاويهم، مقارنا ما توصل إليه بما جاء في التوراة.

---

[1] . دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، حسن المودن ، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 1431هـ . 2010م: 252/1. (ندوة)

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: 261/2.

فمما لا شك فيه أن ابن حزم سلك هذا المسلك وهو يعلم أنه لا ألزم للخصم من أن يثبت له فساد عقيدته من عقيدته نفسها؛ لأن ما يظن أنه سلاحه إنما هو راجع عليه ومصوّب إليه.

ومن أمثلة حضور الدليل القرآني ما جاء في الحوار الذي جرى بين ابن رشيق الأندلسي (696هـ) والقس المراكشي ، حيث جاء في حديثهما: « ... أنتم تقولون: إن من أعظم معجزات نبيكم العظيم الذي بأيديكم .

قلت له: نعم.

قال : وأنا لا أتكلم معك في غيره، وأنتم تقولون : إن نبيكم تحدى به العرب قاطبة في أحفل ما كانوا من الفصاحة فعجزوا . وإن هذه النكتة هي أوضح نكت الإعجاز وأجلاها وأبقاها على الدهر. بحيث يقف عليها المتأخر، كما يقف عليها المتقدم، ويستوي في التوصل إليها الخاص والعام.

فقلت له: نعم. قال: وأنتم تقرؤون فيه : ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ ﴾[1]، وذلك في آية التحدي ومعرض التعجيز، وتقولون : إن نفي المستقبل الذي في قوله : ﴿ولن تفعلوا﴾ ، وهو النّص على أن ما كان من العجز عنه في الوقت باق فيما بعد ذلك إلى باق الدهر.

قلت :نعم.

قال: ثم لم يبق معارض واحد في الوقت، ثم مضت السّنون والأحقاب، وانقرض لسان العرب الصحيح، واستولى عليه الفساد، أقمتم الإعجاز وصح ذلك النّفي المتقدم ، وجود أو صدق الخُبْر الخبَر رأيتم أنه لم يبق للمعارضة مظنّة تقدير، وأن المتأخّر في هذا حصل على ثلج اليقين من المتقدم.

[1]. سورة البقرة: 24

فقال: اسمع الآن ما أقوله، ولا تفهم عنّي أنّي أريد به أحدا عارض القرآن ، أو أتى في ذلك بشيء يوقع في النّفس احتمالا والله، لا أقول ذلك، ولا أدعي ما لم يقل به أحد من أهل ملّتكم أو غيرها، ولكنّي أقول شيئا آخر. افهمه عني ... وذلك أن الكتاب المسمى بالمقامات قد أجمع أهل ملتكم على أن أهل الأدب عجزوا عن معارضته... ثمّ إنّ مؤلفه مع ذلك تحدى أهل اللسان قاطبة بشيء منها، رأى أنه لا يُؤتى بمثله، وزاد إلى ذلك بأن صرّح بنفي الإتيان بمثله في المستقبل تصريحا لا يمكن إنكاره ، وذلك في قوله: .....

سِـــــمْ سِمَةً يَحـــــسُنُ آثَـــارُهَا وَاشكُر لِمَن أَعطَى وَلَو سِمسِمَة

وَالمكـــرُ مَهمَا استَـطَعتَ لَا تَـأتِهِ لَتَـــلتَـــقِي السُؤدُدَ وَالمِـــكرُمَه »[1].

فالقس سلك مسلك المزج بين الأدلة، فجاء بالدليل المنقول والمتمثل في القرآن الكريم، ثم انتقل إلى الشّعر وشفّعهما بأدلة عقلية يصعب درءها أو الردّ عليها، حيث أراد بهذا الاستشهاد من القرآن الكريم تبيين أن بعض النصوص البليغة يمكن لها أن تشارك القرآن الكريم في صفته الإعجازية، لهذا فإن استحضاره لآية من كلام الله ﷻ يدخل في هذا النطاق.

وحُكي عن ابن عياش التجيبي والمنصور بن أبي عامر ما يلي: « أن أبا عبد الله الكاتب كتب يوما ليهودي، أورد فيه: ويحمل على البرّ والإكرام. فقال له المنصور: من أين لك أن تقول في كافر : يحمل على البرّ والكرامة. قال: ففكرت ساعة ، وقد علمت أن الانفصال يلزمني عما ذكرت. فقلت له: قال رسول الله ﷺ((إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه)) [2]، وهذا عام في الكافر وغيره. فقال لي: نعم، هذه الكرامة. فالمبرّة من أين أخذتها. قال: فسكتُّ لم أجد جوابا. قال: فقرأ المنصور: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم :﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

[1]. المعيار المعرب: 156/11.

[2]. رواه ابن ماجه في سننه، ج2: 1223 (نقلا من المكتبة الشاملة .shamela.ws/index).

وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ [1]. قال: فسررت بذلك كثيرا وشكرته عليه»[2].

فالمنصور استشهد بالآية القرآنية، ليستدل على جواز مخاطبة اليهودي بعبارة « ويحمل على البرّ والكرامة» ، لأن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي الذي استقى منه المسلمون عقائدهم الإيمانية.

ومن النماذج الحديثية عثرنا على ما أورده الخزرجي في قوله ﷺ «....قوله ﷺ:((بعثت إلى الأبيض والأسود والحرّ والعبد والذكر والأنثى)) [3] ، وهذا كتابه ينطق أنه مبعوث إلى الخلق كافة، فلو أمكنك أن تقول إنما ادعى أنه مبعوث إلى العرب خاصة لكانت لك حجة. فقال لا يمكنني ولا غيري دفع ذلك. وبذلك أخبرنا أسلافنا من اليهود...»[4]

ومما تحدث عنه الخزرجي مسألة الصلب، هل الذي صُلب عيسى عليه السلام كما تدعي اليهود والنصارى، أم المصلوب غيره . يهودا الأصخريوطي[5] . ، فجاءهم بمجموعة من البراهين النقلية من كتبهم، والتي تبيّن أن المصلوب ليس عيسى عليه السلام، فقال: «... جاء في الإنجيل أن المصلوب قد استسقى اليهود، فأعطوه خلا ممزوجا بمرارة ، فذاقه ولم يشربه، فنادى : إلهي !

---

[1]. سورة الممتحنة: 08

[2]. أعلام مالقة، أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، تقديم وتخريج عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي ودار الأمان للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999: 155.

[3]. مقامع الصلبان: 121 (والحديث رواه الدرامي في كتاب السير رقم: 2467)

[4]. المصدر نفسه : 121

[5]. يهوذا الإسخريوطي: هو واحد من تلاميذ المسيح الاثني عشر ويسمى أيضا بيهوذا سمعان الإسخريوطي، اسمه يهوذا معناه بالعبرية (الحمد) ومن لقبه الإسخريوطي نستدل لأنه كان من مدينة تسمى قريوط أو قريوت تقع في جنوب مملكة يهوذا والتي ذُكرت في العهد القديم ، على كل حال المقطع الأول من لقبه (إسخريوطي) هو إس أو إش بمعنى رجل فيكون (القريوتي) نسبة إلى قريوت وكان كتبة الأناجيل يركزون على ذكر لقبه لتمييزه عن الرسول يهوذا تدَّاوس. بحسب الأناجيل القانونية فإن يهوذا الإسخريوطي هو التلميذ الذي خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضة وبعد ذلك ندم على فعلته ورد المال لليهود وذهب وقتل نفسه . (نقلا عن ويكيبيديا آخر تعديل لهذه الصفحة كان يوم 21 أبريل 2017، الساعة 01:11).

إلهي ! لم خذلتني؟ والأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوي أربعين يوما وليلة ويقول للتلاميذ: إن لي طعاما لستم تعرفونه. ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وليلة ، كيف يظهر الحاجة والمذلة والمهانة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد ! هذا لا يفعله أدنى النّاس ، فكيف بخواص الأنبياء؟ أو كيف بالربّ تعالى ، على ما تدعونه ؟ فيكون حينئذ المدعى للعطش غيره ، وهو الذي شبه لكم»[1].

فالخزرجي يبيّن أن النّص الإنجيلي المستشهد به يشهد أن المصلوب ليس عيسى عليه السلام، وإنّما شخص آخر بدليل إنجيلي وهو قدرة عيسى عليه السلام أن يتحمل الطوى لأربعين يوما، كيف لا يصبر على الجوع والعطش ليوم واحد، فهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أن الشخص المصلوب ليس عيسى بن مريم عليه السلام .

ومن النماذج الأخرى توظيف الخزرجي لنص إنجيلي آخر لردّ ودحض ادعاءات القس من كتابه المقدّس، فتحدّث عن صدقيّة تواتر الإنجيل الذي بأيدي النصارى وبيّن أن هذه الكتب ليست متواترة بدليل أن عيسى على لسانه يشهد بأن شهادته غير مقبولة، فقال:

« وفي الإنجيل الذي بأيديكم عنه قال:

إن كنت أشهد فشهادتي غير مقبولة وغيري يشهد لي.

ثم في موضع آخر من الإنجيل أنه قال:

إن كنت أشهد فشهادتي حق ، لأنّي أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب.

أخبرني ! كيف تكون شهادته حقا وباطلا، ومقبولة وغير مقبولة؟

وكيف يجمع بين هذين في كتاب منسوب إلى الله تعالى؟»[2].

---

[1]. بين الإسلام والمسيحية، الخزرجي: 164.

[2]. المصدر نفسه: 146

إذن من خلال تعارض نصوص الإنجيل مع بعضها البعض في مسألة صدقيّة عيسى عليه السلام، فهو بزعمهم يطعن في شهادته لنفسه، وفي موضع آخر يشهد لنفسه بصدقيّته، وهذا تعارض بيّن ، فالنبيّ من شروط صحة رسالته أن يكون صادقا، بينما هو يطعن فيه.

نستخلص من هذه النماذج المعروضة موسوعية الفكر الأندلسي وإحاطة العلماء بالكتب المقدسة لكل طرف، مما سمح لهم باستثمار هذه المعرفة في محاوراتهم الدينية.

ب/ الأدلة العقلية:

ركّز أغلب الذّين دخلوا حلبة الحوار بين الأديان على الحجج والأدلة العقلية التي تتوافق مع العقل والمنطق، لأنها أكثر إقناعا وبرهانا على صحة ما يدعيه كل طرف، لأن المحاور الناجح يجب أن يعرف أن لكل مقام مقالا يناسبه، والحجّة التي تصلح له دون غيرها فلا يستخدم العقل في موضع النقل .. ولا يستدل بالنقل مع قوم لا يؤمنون إلّا بالعقل ولا يستخدم أحدهما دون الآخر في موقف يتطلب حجج المعقول والمنقول .. ويمكن أن نمثل لهؤلاء بمجموعة من نصوص أدب حوار الأديان في الأندلس والتي من أبرزها رسالة راهب فرنسا إلى ابن ذي النون، ثم ردّ الإمام الباجي عليها، حيث حاول كل طرف أن يقويّ موقفه بمجموعة من الأدلة المنطقية ليثبت صحة عقيدته وضلال عقيدة خصمه.

توظيف الأدلة العقلية عند الإمام الباجي: قال الإمام الباجي: «وإنّ الله خلق عيسى عليه السلام من غير أب ، كما خلق آدم ﷺ من تراب، وقد حملت بعيسى أم، ولم تحمل بآدم أنثى ولا ذكر، فإذا لم يكن آدم إلها ، وهو الأب الأول بل هو مخلوق فعيسى أولى أن لا يكون إلها وهو من ذرية آدم وولده»[1].

[1]. رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد عليها: 66

حاول الإمام الباجي أن يبرهن للقس أن ادعاء النصارى لألوهية عيسى عليه السلام باطلة بطلانا مطلقا، ذلك أن أسس الألوهية عندهم ، يمكن دحضها بأدلة عقلية بسيطة، فقد بنوا اعتقادهم في ألوهية عيسى عليه السلام فقط لأنّه ولد من غير أب، على خلاف جميع الكائنات الموجودة في هذه المعمورة التي تتناسل بالاجتماع بين الذكر والأنثى؛ ولكن الإمام الباجي جاء ببرهان ساطع دحض قولهم جملة، لأن هذا الادعاء يجعل من آدم أولى وأسبق في الظفر بالألوهية من عيسى عليه السلام لأنه خلق من غير أب وأم، فمعجزة مجيء آدم لهذه الدنيا أكثر إعجازا وعجبا من معجزة مجيء عيسى عليه السلام، وبالتالي لو اعتمدنا معيار النصارى لإثبات ألوهية عيسى عليه السلام لكان آدم أولى بها، خاصة أنه أبو البشرية جمعاء، وأن النصارى تؤمن أنه خُلق من غير أب وأم.

وأضاف الباجي قائلا: «وقد ظهر على أيدي سائر الرسل عليهم السلام من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة، مثل ما ظهر على يدي عيسى عليه السلام وأكثر، فلو جاز أن يدّعى لعيسى عليه السلام بشيء مما ظهر على يديه من إحياء ميّت، وإبراء أكمه وأبرص، بأنه ابن الله تعالى، لجاز أن يدعى ذلك لإبراهيم لما ظهر على يديه من سلامته من النّار، بعد أن قُذِف فيها، ولم ينج عيسى من عدد يسير من البشر راموا بزعمكم صلبه وقتله ؛ ولجاز ذلك لموسى عليه السلام لما ظهر على يديه من قلب العصا حيّة، وفلق البحر، ولجاز أن يدّعى ذلك لمحمد ﷺ لما ظهر على يديه من انشقاق القمر ونبع الماء من أصابعه، وتسبيح الحصى في يده ...»[1].

أضاف الباجي بأنه لو اعتبرنا أنّ الألوهية تجب لعيسى عليه السلام لمجرد ظهور المعجزات على يديه، فإبراهيم أولى بالألوهية منه، لما ظهر على يديه من المعجزات وكذا سائر الأنبياء، ثمّ إن إبراهيم عليه السلام نجا من النار وهي أوضح معجزة، في حين لم ينج عيسى عليه السلام من عدد يسير

[1]. المصدر السابق: 67

من البشر فقد قتلوه (بزعم النصارى). وينتقل الباجي ليبين تناقض كلام الراهب بعضه مع بعض، حتى أنه جاء برأي يخالف فيه جميع أهل ملته من النصارى؛ ذلك أنّ الراهب قال لا يجوز الإيمان بغير المسيح، لأن الأب اتحد بالابن، والأب عند النصارى لم يتحد بالناسوت بل باللاهوت، إذن فالأب منفصل عن الابن وبالتالي حسب ادعائه يجب الإيمان بهما معا الأب والابن، يقول الباجي: «وقد رأينا ما في كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملّتك ، فإنه ليس في فرق النصارى من يقول: إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه. بل هو الإيمان بالأب عندكم واجب؛ والأب لم يتحد بالناسوت عندكم وإنما اتحد به الابن، فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالأب، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله. وهذا نقض لقولك: إنه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو الابن»[1].

وفي موضع آخر يبيّن الباجي للقس بدليل قطعي أن عيسى عليه السلام ما هو إلاّ بشر ولا يتصف بصفات الإله التي منها القدرة وعلم الغيب، فيقول: « ولو كان عيسى عليه السلام إلها قادرا ، لما احتاج إلى ذلك ولخلقهم مؤمنين ، ولو شاء الله ألاّ يُعصى ، ما خلق الفتن ولا إبليس اللعين، لكن الله . تعالى . خلق للجنّة أهلا للجنّة بتوفيق الله تعالى يعملون، وخلق للنّار أهلا للنّار بخذلان الله يعملون ، ولو علم الغيب عيسى عليه السلام لما بذل دمه طمعا فيما يتم له، ولا حصل له منه شيء!»[2].

ثم يتعجب الباجي مفحما خصمه بدليل آخر هو اعترافهم أن عيسى الإله بدل دمه الطاهر لخلاص العباد، والدم من الأجسام المحدثة، فكيف للإله أن يكون له دم ويقدمه فداءً لبني البشر، قال: « ومن أغرب ما تأتون به قولكم : إنه بذل دمه في خلاص العباد! وكيف

[1]. المصدر السابق: 74

[2]. المصدر نفسه: 79.

يكون للرّب دم؟ والدم من الأجسام المحدثة المخلوقة! ولو حددتم الكلام ، لزعمتم أ نّه دم الناسوت ، دون اللاهوت ، وللزمكم أن تقولوا : إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله . تعالى . لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات !! وهذه صفة لا تصح إلا على صفة ابنه ، بل هو [هو] ، عند جماعة منكم!»[1].

ليصل لإقناع القس أن إلهه لم يستطع حتى حماية نفسه من أذى البشر (اليهود)، فكيف بعباد له هو خلقهم، قال: «فكيف يكون إلها قديما حيا، لم يزل ، من يجوز عليه الموت وعدمت حياته؟ وكيف لم يذُبَّ عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه عنها ، وأذهبه . بزعمكم . على ما ذكرته في كتابك ؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلها ، فما نمنع على هذا أن يكون كل من رأيناه أو سمعنا خبره . قديما . لم يزالوا آلهة ، وإن كان لهم أب أو ماتوا وفنيت حياتهم وعُدمت ...»[2].

ويستدرج الباجي محاوره لمسألة تبيّن تناقض أقوال النصارى؛ فبعدما ادعوا أن ليس لعيسى عليه السلام أب، وجدهم يقولون بأنه من نسل داود عليه السلام لأن يوسف النجار زوج مريم (والده كما يزعمون) من نسل داود عليه السلام ، وبالتالي أيهما أحق بالألوهية داود الجد الأكبر أم عيسى عليه السلام الذي جاء بعده بزمن طويل؟ « ... إن عيسى ابن الله (. تعالى الله عن ذلك !) وتقولون: «إنه من ولد داود »[3] عليه السلام، وهذا ثابت في إنجيلكم ومتلو من كتابكم ؛ وتزعمون أن جبريل ، إذ بشّر مريم به قال لها:

[1]. المصدر السابق: 81.

[2]. المصدر نفسه: 81.

[3]. المصدر نفسه: 83

« إنه يكون عند الله عظيما ويكون (الله لِ) اسمه ناشرا ويدعى بابن الله ويورثه الله ملك أبيه داود»[1].

ثم تقول النصارى إنه من ولد يوسف النجار ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم ، لأنها لم تكن من ذرية داود، وإنما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجا لمريم! فإذا كان عيسى من ولد داود ، وداود عبد مخلوق ، وُجِد بعد أن لم يكن ، ومات بعد أن حيي ، فكيف يكون عيسى الابن ، خالق داود . أبيه . وإلهه ؟ ! وكيف يكون ابنا لداود المخلوق وابنا لله الخالق؟!»[2].

ثم ساق الإمام الباجي مجموعة من البراهين على بشرية عيسى عليه السلام، وأنه يتعرض للفتن من قبل إبليس كما يتعرض لها سائر البشر، نافيا عنه كل صفة إلهية فقال: « إنّ إبليس عرض لعيسى . الإله . بزعمكم . ورقى به أعلى جبل وأراه زهرة الدنيا ، وقال له :

إن عبدتني ملّكتك جميع هذا ! فلما سمع المسيح من كيد إبليس اللعين ، عاذ من شرّه واستجار من فتنته بصيام أربعين يوما وأربعين ليلة ؛ فأمسك عنه إبليس »[3].

وبهذا يحاول الباجي أن يبرهن للقس أن عيسى مجرد نبي مرسل، تنطبق عليه الصفات البشرية ما ينطبق على جميع البشر؛ إذ كيف لإله يستجير من شرّ إبليس، بصيام أربعين يوما؟ فالأصل أن الإله يستطيع أن يسحق إبليس اللعين متى شاء وكيف شاء، فالإله هو الذي أوجد وخلق إبليس، فكيف يخاف من فتنته؟ وهل يُعقل أن يدعو إبليس ربّه لعبادته وهو ربّ

[1]. إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: 31

[2]. رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد عليها: 84.

[3]. المصدر نفسه : 88

السماوات والأرض، ويؤكد الباجي أن هذا ورد في أناجيل النصارى، بما لا يدع مجالا لدفع هذه الشبهة.

أما عن التحريف والتبديل في الأناجيل، فقد ساق إمامنا مجموعة من التناقضات فيما حوته من أخبار، من ذلك ما في الإنجيل من رواية متى حيث ورد: «إنّ بين إبراهيم ويوسف الذي تزعمون أنه زوج مريم اثنتان وأربعون ولادة ! وفي رواية لوقا: بين إبراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا، ليس فيهم من أسماء الذين في رواية متّى إلا عدد يسير.

ولا تكاد هذه الروايات تتفق في شيء ، والإيمان بها عندكم واجب . على اختلافها . لأن الإنجيل كتابكم ، وأصل شرعتكم!»[1].

فالكتب السماوية الأصل فيها أن تكون متفقة وإن اختلفت رواياتها، لأن مصدرها واحد، هو ربذ البريّة، ولكن أناجيل النصارى متضاربة في كثير من الأشياء فيما بينها، وأوضح مثال ما جاء به الباجي عن المدّة التي تفصل بين إبراهيم وعيسى عليهما السلام، وكذلك أسماء الرجال الذين يفصلون بينهما، وهذا دليل واضح على دخول التحريف في هذه الكتب.

توظيف الأدلة العقلية عند الإمام الخزرجي: افتتح الإمام الخزرجي كتابه بتقديم الاعتذار عن إجابة القس النصراني عن المسائل التي طرحها،حيث رأى أن الخوض في مسائل العقيدة النصرانية إهدار للوقت، ومضيعة للجهد، ذلك أن أيّ عقل إنسان سليم لا يقبل ما انبنت عليه عقيدة هؤلاء القوم. فقال : « في تقديم الاعتذار عن النزول إلى إجابتك، والاعتذار عن ذلك للاعتراف بأن الالتفات إلى ما لديكم يحل بعقول الإنسان ودينه»[2].

[1]. المصدر السابق: 88

[2]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان) الإمام الخزرجي: 122.

ليجد الإمام نفسه مُقحَمًا في ردّ شبهات هذا القسيس، فبدأ بأول مسألة وهي إنكاره لألوهية عيسى عليه السلام، وحجته في ذلك، ربما استقاها من ردود من سبقوه من العلماء، ذلك أن النصارى يقولون إن المسيح ابن الله تعالى، ويعللون ذلك بأنه نفخة من روح الله، فقال: «وتقولون إن المسيح نفخة من روح الله في رجل سوّاه الله تعالى من لحمة مريم »[1]؛ وبالتالي فإن ألوهية عيسى عليه السلام لا تختلف عن ألوهية آدم عليه السلام، ذلك أن آدم عليه السلام هو نفخة من روح الله:« فلحمه إذن بمنزلة ترابه، ونفخه من روح الله بمنزلة نفخة من روح الله، فلماذا أوجبت الألوهية لعيسى ولم توجبها لآدم، وأنت تقر له بروح من الله في حجاب من تراب»[2].

ومما يبيّن اطلاع الإمام الخزرجي على أناجيل النصارى، سؤاله للقس عن موضع في الإنجيل تحدث فيه عيسى عليه السلام عن ألوهيته، سواء بالتصريح أم بالتوضيح، ليجيب هو نفسه بالنفي، ويبيّن أن المسيح عليه السلام إنما اعترف أنه نبيّ مرسل، ثم استشهد بما هو موجود في كتب النصارى بما يثبت أنّه نبيّ مرسل من عند الله، وأنّه لم يدعِ الألوهية قط، فقال:« أخبرني أيها المسكين:

متى ادعى عيسى عليه السلام الألوهية تصريحا؟ أو متى ذكر الأقانيم التي تقولونها توضيحا؟

ألم تقرأ في إنجيلك الكائن بين يديك عن عيسى ، أنه قال حين خرج من السامرة ولحق بالجليل: أنه لم يكرم أحد من الأنبياء في وطنه؟ وفي الإنجيل للوقا: أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلونه؟»[3].

وفي إنجيل يوحنا ينفي عيسى عليه السلام ، يقرّ بأنه رسول؛ حيث قال لليهود:

«لست أقدر أن أفعل من ذاتي شيئا، لكنني أحكم بما أسمع ، لأنني لست أنفذ إرادتي ، بل إرادة الذي بعثني»[4].

---

[1]. المصدر السابق: 129

[2]. المصدر نفسه: 129

[3]. المصدر نفسه: 131.

[4]. المصدر نفسه: 133.

ويجيبهم الخزرجي بقوله: « لو كان أباكم لحفظتموني ، لأني رسول منه [أي من الله] خرجت مقبلا، ولم أُقبل من ذاتي، ولكن هو بعثني، ولكنكم لا تقبلون وصيتي، ...»[1].

ويعرج الإمام الخزرجي لمسألة مهمة، يجعل منها النصارى قاعدة على أن المسيح هو ابن الله (تعالى الله عما يقولون)، إنها مسألة إحياء الموتى، فبالنسبة لهم أن قدرة الله عظيمة، ومن هذه العظمة هو القدرة على إحياء الموتى، وكفى به دليلا على ألوهية عيسى عليه السلام، لأن المعلوم والمعروف أن جميع البشر وجميع الكائنات عاجزة عن إحياء الموتى، فهل استطاع النصراني أن يخرس هذا الصبي (الإمام الخزرجي)؟

ردّ الإمام الخزرجي على النصراني بأدلة واضحة، داحضاً بها كل أقاويل القس، معتمدا على أدلة من كتبهم لا تقبل التأويل ولا التحويل، فقال: « فإن كان المسيح من أجل إحياء ميّت هو الله فكل من أحيا ميّتا بزعمك فهو الله !

وبإجماع من جميع الملل الثلاث أن إلياس النبي أحيا الموتى، وكذلك اليسع فلم تظلمون بعضا دون بعض؟»[2].

فهذا الزَعْمُ مردود على النّصارى ، لأن عدّة أنبياء أحيوا الموتى فهل يجوز أو يعقل أن نصفهم بالألوهية ، ومثّل لذلك بإلياس عليه السلام واليسع عليه السلام، فالمنطق يقتضي إما منح صفة الألوهية لكلّ من أحيا ميّتا ، أو ننزعها عنهم جملة، ونعتبرها معجزة.

توظيف الأدلة العقلية عند ابن حزم الأندلسي: هو أبرز علماء الأندلس شغلا للنّاس بمحاوراته ومناظراته وردوده قديما وحديثا، فقد امتاز بقدرة عجيبة على إدارة الحوار وقوّة الإقناع واستحضار الحجة بالاعتماد على الدليل العقلي مستعملا في ذلك أسلوباً يهتم فيه بإبراز الحقائق العلمية، حتى قال أحد الباحثين في أسلوبه:«مسحة التنسيق والترتيب واضحة،

[1]. المصدر السابق: 134

[2]. المصدر نفسه: 137.

وطريقته في معالجة المواضيع طريقة منطقية صريحة لعله اكتسبها من ظاهريته، فهو لا يؤول كالباطنية، ولا يقيس كالحنفية، ولا يكني ولا يوري ولا يغمغم بل يمشي قدما واضحا صريحا لا يحمّل اللفظ أكثر مما يطيق من معنى، ولا يدعي دعوى إلا أرفقها بشاهدها وأيدها بمروي متسلسل الإسناد»[1] ، وفيما يلي بعض ذلك:

تحدّث ابن حزم عن ادعاء النصارى لألوهية عيسى عليه السلام، فأورد مقالتهم: «إنّ المسيح هو الله تعالى نفسه، وأن الله ـ تعالى عن عظيم كفرهم ـ مات وصُلب وقُتل، وأن العالم بقي بلا مدبّر، ثم قام ورجع كما كان، وأن الله تعالى عاد محدَثا، وأن المحدَث عاد قديما، وأنه هو كان في بطن مريم محمولا به»[2]، فابن حزم عدّد ادعاءات النصارى التي تُؤَلِّهُ عيسى في نظرهم ، فذكر أن عيسى عليه السلام هو الله تعالى نفسه وأن الله تعالى هو عيسى نفسه وأن هذا الإله صُلب وقُتل وبعد ثلاثة أيام قام من قبره وعاد إلهاً، ومعنى ذلك أن العالم بقي من دون مدبّر إلى أن قام عيسى الإله من قبره.

دحض ابن حزم هذا الادعاء بأدلة عقلية منطقية معتمدا على منهجه العقلي فقال: إذا كانت هذه حال عيسى عليه السلام فهو إذن مخلوق لأنه مُحدَث والمُحدَثُ لا بدّ له من مُحدِث، فإذن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، «... ولو كان كذلك لكان مخلوقا، والمحدَث يقتضي محدِثا خالقا له، ويكفي من بطلان هذا القول دخوله في باب المحال والممتنع، الذي أوجب العقل والحس بطلانه، وليس في باب المحال أعظم من أن يكون الذي لم يزل يعود محدِثا لم يكن ثم كان، وأن يصير غير المؤلف مؤلَّفا»[3]، لينتقل إلى حجة أبلغ وهي تساؤله عمن دبّر أمر الكون خلال المدّة التي كان فيها إلههم ـ كما يزعمون ـ في القبر، بما أنه الإله فقال:«ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا مَن دبّر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة أيام التي كان فيها ميتا؟! ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا».

---

[1]. حجة الوداع لابن حزم، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، 1418هـ ـ 1998م، الرياض: 08.

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 112/1.

[3]. المصدر نفسه: 112/1.

ثمّ يقال للقائلين بأن الباري تعالى ثلاثة أشياء: أب وابن وروح القدس، أخبرونا إذ هذه الثلاثة لم تزل كلها، وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأيّ معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى: أبا، والثاني: ابنا، والثالث: روح القدس، وأنتم تقولون: إنّ الثلاثة واحد، وأن كل واحد منهما هو الآخر فالأب هو الابن والابن هو الأب، وهما روح القدس، وليس روح القدس سواهما، وهذا عين التخليط، وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه «سأقعد عن يمين أبي»[1]؛ وإن كانت الثلاثة متغايرة . وهم لا يقولون بهذا . فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف ، أو من الحدوث، أو من النقص، به وجب أن ينحط عن درجة الأب»[2].

جمع ابن حزم مجموعة من البراهين العقلية ليثبت بطلان ادعاء النصارى بأن الأب هو الابن وهما روح القدس ، فثلاثة أشياء في شيء واحد وشيء واحد في ثلاثة أشياء، وهذا ما لا يقبله عقل ولا منطق، ويتساءل: فبما استحق الابن أن نطلق عليه هذه الصفة؟ وبأي دليل يمكننا أن نطلق على الأب تلك الصفة ؟ وهما في نفس الوقت شيء واحد، فالأصل أن الابن استحق صفة البنوّة لما فيه من الضعف فهو بحاجة لأبيه؛ وكيف لإله يدعو إلها ؛ ثم يأتي بنص من الإنجيل يعزز كل قاله عندما قال عيسى في زعمهم سأقعد عن يمين أبي، وهذا دليل على أنهما منفصلين عن بعضهما البعض.

وينتقل الإمام إلى مسألة عرض قضية المعجزات التي تدل على ألوهية عيسى، ويرد عليهم في نفس الوقت أن هذه المعجزات أتى بها الكثير من الأنبياء والمرسلين، وبالتالي هذا الادعاء باطل، قال: « ... فإن قالوا : إنه أتى بالعجائب. قيل لهم : والحواريون أيضا عندكم أتوا بالعجائب، وموسى قبله وإلياس وسائر الأنبياء عليهم السلام قد أتوا بمثل ما أتى به من إحياء الموتى وغيره ، فأي فرق بينه وبينهم»[3].

---

[1]. المصدر السابق: 112/1. والنص في إنجيل لوقا الإصحاح 69/22 ونصه: « منذ الآن يكون ابن الإنسان عن يمين قوة الله»

[2]. المصدر نفسه : 112/1.

[3]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 1/ 120.

«وأمانتهم التي ذكروا أنهم متفقون عليها موجبة أن الابن هو الذي نزل من السماء وتجسّد من روح القدس ، وصار إنسانا ، وقتل وصلب، فيقال لهم: هذا الابن الذي في أمانتكم أنه نزل من السماء وتجسّد من روح القدس وصار إنسانا، أخبرونا قبل أن ينزل من السماء أمخلوقا كان أو غير مخلوق؟ أم كان لم يزل، فإن قالوا : كان مخلوقا. فقد تركوا قولهم : لاسيما إن قالوا: إنه ليس هو غير الأب. بل يصير الأب وروح القدس مخلوقين.

وإن قالوا : كان قبل أن ينزل غير مخلوق. قيل لهم: فقد صار مخلوقا إنسانا. وهذا محال وتناقض»[1].

تبيّن هذه الفقرة حدّة ذكاء ابن حزم ، وحسن تدبيره في استدراج خصمه، ليُحكم إغلاق الدائرة عليه ولا يترك له أي خيار ، إلّا التسليم بتناقض عقيدته؛ ولا يكتفي ابن حزم بهذا بل يواصل حلقة الإغلاق فيقول: « ثم يقال لهم: أخبرونا عن هذا الابن الذي أخبرتم عنه بما لم تخبروا عن الأب، والذي يقعد عندكم عن يمين أبيه، ثم ينزل لفصل القضاء ، أله علم وحياة ، أم لا علم له ولا حياة.

فإن قالوا: لا علم له ولا حياة، فارقوا إجماعهم ولزمهم ضرورة إن قالوا مع ذلك إنّه غير الأب الذّي له حياة وعلم ، إذ ما لا علم له هو بلا شك غير الذي له علم ، والذي لا حياة له هو بلا شك غير الذي له حياة. وهذا ترك للنصرانية.

وإن قالوا: بل له علم وحياة لزمهم أن الأزليين خمسة. الأب وعلمه وحياته ، والابن الذي هو علم الأب وعلمه وحياته، وهكذا يسألون أيضا عن روح القدس، ولا فرق»[2].

توظيف الأدلة العقلية عند عبد الله الترجمان: أورد عبد الله الترجمان أدلة عقلية كثيرة تبيّن ضلال العقيدة النصرانية ولكننا سنقتصر على عرض ما لم يعرضه سابقوه؛ من ذلك حديثه عن التغطيس عند الأمة النصرانية، فقال:« اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن لوقا قال في إنجيله: ((إن عيسى عليه السلام قال من تغطس دخل الجنة، ومن لم يتغطس دخل جهنم خالدا فيها أبدا)).

---

[1]. المصدر السابق: 121/1.

[2]. المصدر نفسه: 121/1.

فمن أجل هذا النص، يعتقد النصارى أنه لا يمكن دخول الجنة إلاّ بالتغطيس.

فيقال لهم : ما تقولون في إبراهيم ، وموسى ، وإسحاق ، ويعقوب ، وجميع الأنبياء عليهم السلام هم في الجنة أم لا ؟ فلا بدّ أن يقولوا : هم في الجنّة، فيقال لهم : كيف دخلوها ولم يتغطسوا ؟ وهم يجيبون عن هذا بأن الاختتان أجزأهم عن التغطيس، فيقال لهم: ما تقولون في آدم ونوح (عليهما السلام) وذريته ما لصلبه ما، فإنّهم ما اختتنوا ولا تغطسوا قط وهم في الجنّة بنص أناجيلكم وإجماع علمائكم ، وليس لهم عن هذا جواب البتة»[1].

فاطلاع عبد الله الترجمان على عقيدة النصارى جعله يختار منها ما يعاكس العقل ، ولا سبيل للخصم إلاّ التسليم ، ذلك أن التغطيس عندهم أول مراتب الدخول في النصرانية ، وأن الذّي لا يُغطَّس لا يدخل الجنّة، فبتساؤل بسيط عدّد لهم أسماء الأنبياء والذين يؤمنون بنبوتهم وأنّهم في الجنّة ومع ذلك لم يغطّسوا، فإن بحثوا عن مبرر (الاختتان)، سألهم عن آدم ونوح عليهما السلام فهما لم يختتنا ومع ذلك هما في الجنّة بقول النصارى.

ثم لجأ إلى فضح ألاعيبهم بما أنه كان واحد منهم، فقال:« واعلموا أن هذا الماء الذي يضعه القسيس في أحواض الكنائس منه ما يبقى أعواما وأحقابا طويلة لا ينتن ، ولا يتغير ، فيتعجب عوام النصارى من ذلك ، ويعتقدون أنه من بركة القسيس ، وبركة الكنيسة ، ولا يعلمون أن ذلك من كثرة الملح ودهن البلسان[2] وهما اللذان يمنعان من تعفن الماء ، والقسيس لا يرمي ملحا ولا دهن بلسان إلا في الليل ، أو في وقت لا يراه أحد من عامة النصارى البتة»[3].

---

[1]. تحفة الأريب في الرّد على أهل الصليب: 79

[2]. بلسان: وطن بلسان بلاد الحبشة، وهو شجر يبلغ علوه 14 قدما، ذو ساق ناعمة وأوراق خضراء، وقد كان التجار يحملونه إلى مصر ويبيعونه لسكان البلاد الذين يحنطون موتاهم به. (تحفة الأريب: 83)

[3]. تحفة الأريب في الرّد على أهل الصليب: 84

ويعرض الترجمان على النصارى مسألة أخرى تبين عجز الابن علمه للغيب بنص أنجيلهم فقال: «ويلزمهم على مقتضى قولهم ـ أن المسيح ابن الله ـ أن تكون ذاته كذات الله ، وله علم وقدرة كعلمه وقدرته ، إلى سائر الصفات الأزلية، وهذا باطل.

وبيان بطلانه : ما قاله مرقس في الفصل الثالث عشر من إنجيله: « إن الحواريين سألوا عيسى عن الساعة التي هي القيامة، فقال لهم: إن ذلك اليوم لا تعلمه الملائكة الذين في السماء ، ولا يعلمه إلا الأب وحده» يعني الله تعالى.

فهذا إقرار من عيسى بأنه ناقص علم حتى عن الملائكة ، وأن الله تعالى هو المنفرد بعلم الساعة وقيامها»[1].

توظيف الأدلة العقلية عند الإمام الشاطبي [2]: ومما روي عن الإمام الشاطبي أنه تحاور يوما مع أحد اليهود، إذ أخذ هذا الأخير ينكر خلق عيسى عليه السلام من غير أب قائلا: « وهل يكون شيء من غير مادة؟ »[3]. فردّ عليه الإمام الشاطبي قائلا: « فيلزمك إذاً أن يكون العالم مخلوقا من مادة وأنتم ـ معشر اليهود ـ لا تقولون بذلك، فأحد أمرين لازم: إما صحة خلق عيسى من غير أب وإما بطلان خلق العالم من غير مادة»[4].

فقد استثمر الشاطبي ما ترسخ في عقيدة اليهود من أن العالم مخلوق من غير مادة، ليدحض ادعاء اليهودي ويبيّن معايبه.

---

[1]. المصدر السابق: 86.

[2]. هو إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحاق اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي صاحب كتاب الموافقات (الأعلام للزركلي: 71/1)

[3]. الإفادات والإنشادات، إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي، تح: محمد أبو الأجفان، دار مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ 1986م: 156.

[4]. المصدر نفسه: 156.

2/ حجاجية الأسلوب:

ظلت الأساليب إلى عهد قريب لا تبرح مجال البلاغة بمفهومها الجمالي الإمتاعي، لكن سرعان ما تبدلت الرؤية وتغيرت النظرة لهذه الأساليب ، فصارت تؤدي وظيفة إقناعية بدل الوظيفة الجمالية. إذ يتم عزل الأساليب البلاغية عن سياقها البلاغي لتجاوز الوظيفة الجمالية الإنشائية، إلى الوظيفة الإقناعية الاستدلالية.

يقول أحد الباحثين: « إن الأساليب تصطبغ بما تدافع عنه من دعاوى وأطروحات سواء أكان ذلك على سبيل التصريح أو الإضمار والاقتضاء»[1].

وسنستدل على الوظيفة الحجاجية للأساليب من خلال بيان حجاجية أساليب الشرط والنفي.

أ/ حجاجية أسلوب النفي: النفي خلاف الإثبات ويسمى كذلك الجحد، وهو من الحالات التي تلحق المعاني المتكاملة المفهومة من الجمل التامة والتعبيرات الكاملة، وكل معنى يلحقه النفي يسمى منفيا[2].

ويتحقق النفي بأدوات مخصصة لذلك وهي: ما، لا، ليس، لن، لم، وغيرها. إلا أنّ استعمال هذه الحروف في الحوار الحجاجي يتضمن قوة استلزامية تداولية تدعم هذه الأطروحة أو تلك[3].

---

[1]. مقاربة حجاجية لمناظرة أبي حنيفة مع الملحدين، الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق: 327/4 (ندوة)

[2]. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير نجيب اللبدي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، 1985، ط1: 227.

[3]. مقاربة حجاجية لمناظرة أبي حنيفة مع الملحدين، الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق: 329/4 (ندوة)

وبناء على ما سبق « يشتغل النفي بوصفه آلية للنقض، تفتت أسس الرأي المضاد أو تنزع عنه المصداقية وتثبت بدله الرأي المتبنى، وعليه فإن السياق الخاص الذي يوظف فيه النفي هو سياق الانتقاد والمنع والاعتراض»[1].

وقد توسع المتحاورون الأندلسيون في هذه الأغراض المؤسسة على إبطال الرأي المضاد وتفتيته ونزع المصداقية عنه، إلى أغراض أخرى سيتم تناولها فيما يلي:

قلب ادعاء الخصم والقطع مع ادعائه: استخدم أبو بكر الفهري الطرطوشي [2] حرف النفي «لا» لنفي دعوى خصمه التستري الحبر اليهودي، ومضمونها أن كل من جاء بعد موسى ليس بنبي.

فقد قال اليهودي أثناء عرض دعواه «اتفقنا على أن موسى نبي مؤيد بالمعجزات معلم بالكلمات، فمن ادعى أن غيره نبي فعليه الدليل.

فرد عليه الفهري بقوله: إن أردت بموسى الذي أيد بالمعجزات ، وعلم الكلمات، وبشر بأحمد. فقد اتفقنا معكم، وآمنا به وصدقناه وإن أردت به موسى آخر، فلا نعلم ما هو»[3].

فقد استثمر الفهري حرف النفي «لا » وهو حرف نسق ينفي الفعل المستقبل لإبطال دعوى اليهودي، ودحضها، وهذا ما تحقق فعلا،وكان نهاية الحوار شاهد على ذلك[4].

المراوحة بين الإنكار والإثبات: كما نلفي نماذج أخرى تتم فيها المراوحة بين الإثبات والنفي من قبل طرفي الحوار. وكمثال على ذلك ما عثرنا عليه عند الإمام الخزرجي عندما

---

[1]. خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي : 148

[2]. هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي، ويقال له ابن أبي رندقة: أديب من فقهاء المالكية، عاش في القرن 5هـ ، وله عدة مؤلفات منها: سراج الملوك، بر الوالدين، الفتن، الحوادث والبدع، مختصر تفسير الثعلبي....

[3]. قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، درسه وحققه: محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990م: 96.

[4]. ختم المناظر بقول الراوي:« فاستحسن ذلك الحاضرون وأطنبوا في الثناء عليه، وكانت نكتة جدلية عقلية قوية، فبهت الخصم وانقضى الحكم».

حاور أحد أحبار اليهود، إذ أنكر اليهودي مسألة بعث محمد ﷺ إلى الخلق كافة موظفا حرف «لم» في قوله: «سأقيم لبني إسرائيل؛ ولم يكن محمد إلاّ إلى العرب ...»[1].

فالحرف «لم» وظّف هنا لإبطال الادعاء السابق (بعث الرسول ﷺ إلى الخلق كافة)، لكن الخزرجي دافع عن أطروحته معتبرا أن ما على الأرض أحد يجهل أن محمد ﷺ قال: ((بعثت إلى الأبيض والأسود والحر والعبد والذكر والأنثى))[2].

إلاّ أن اليهودي أصر على الإنكار موظفا أدوات النفي فقال: « لا يمكنني ولا غيري دفع ذلك وبذلك أخبرنا أسلافنا من اليهود عنه أنه قال : ((بعثت إلى الخلق كافة)) إلّا فرقة من فرق اليهود يقال لها العيسوية تقول بنبوءته ومعجزاته وتنكر أنه بعث إلى غير العرب»[3].

لكن على الرغم من محاولات اليهودي إبطال دعوى الخزرجي عن طريق هذا التوظيف المكثف لأسلوب النفي، فقد تبين له أخيرا صدق دعوى خصمه المسلم، وهذا ما نستشفه من قوله: « ولسنا على شيء مما هم عليه»[4].

ب/ حجاجية أسلوب الشرط:

عرّف الشريف الجرجاني الشرط بقوله: «تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني. وقيل الشرط : ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجا عن ماهيته، ولا يكون مؤثرا في وجوده»[5].

---

[1]. مقامع الصلبان، الخزرجي: 121

[2]. المصدر نفسه: 121

[3]. المصدر نفسه: 122

[4]. مقامع الصلبان: 122. وقد ورد في خاتمة هذا الحوار أن خصم الخزرجي عطف على يهودي إلى جنبه وقال له : « إن أقل ما يجب أن نأخذه به أنفسنا النهي عن ذكره (الخزرجي) بسوء » انظر: مقامع الصلبان:122.

[5]. التعريفات، الشريف الجرجاني: 106

وهكذا فالشرط يستلزم وجود علاقة بين الطرفين (فعلين) الثاني منهما يترتب حصوله على حصول الأول أو هو جواب وجزاء له[1].

كما أن أسلوب الشرط سمة جوهرية للنص الحجاجي، « إذ يسهم في بناء الاستدلال وفق الوجهة التي يرغب فيها المحاجج ، ويقود الخصم إلى المشاركة في صوغ جواب يدعم الأطروحة المقترحة بطريقة حتمية»[2].

وقد وظّف العلماء في الأندلس أسلوب الشرط أثناء حوارهم مع علماء الديانات الأخرى، ومما روي عن أبي بكر الفهري الطرطوشي أنه تحاور مع أحد أحبار اليهود الذي ادعى أن كل من جاء بعد موسى ليس بنبي ، فرد عليه الفهري قائلا: «اتفقنا على أن موسى نبي مؤيد بالمعجزات ، معلم بالكلمات ، فمن ادعى أن غيره نبي فعليه الدليل» [3]، فاعترض عليه الفهري قائلا: « إن أردت بموسى الذي أيّد بالمعجزات، وعلم الكلمات ، وبشر بأحمد ، فقد اتفقنا عليه معكم ، وآمنا به وصدقناه ، وإن أردت به موسى آخر ، فلا نعلم ما هو»[4].

إذ لم يجد اليهودي بعد ورود هذه الجملة الشرطية بدا من التسليم بأن موسى بشر بمحمد ﷺ ومن ثمّ فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، لأن هذه الحجة أقوى من حجته. وقد توسل الفهري في هذا الاستشهاد بأداة الشرط «إن» ، وهي أمُّ أدوات الشرط[5].

فالفهري آثر أن يرد على خصمه اليهودي من جنس كلامه، لهذا وظّف الجملة الشرطية مع ما تكتنزه من طاقة حجاجية ليسفه ادعاء خصمه، فكان ردّه « نكتة جدلية عقلية قوية»[6].

---

[1]. معجم المصطلحات النحوية والصرفية: 114.

[2]. الحجاج في المناظرة: 329/4.

[3]. قانون التأويل، أبو بكر بن العربي: 96.

[4]. المصدر نفسه: 96.

[5]. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ ، 1992 م: 208.

[6]. المصدر نفسه: 96.

وفي إطار السياق نفسه يستثمر الخزرجي أسلوب الشرط للاعتراض على دعوى خصمه اليهودي في الحوار الذي جمعه حول مسألة بعث الرسول ﷺ إلى الخلق كافة.

فقد ادعى اليهودي أن الرسول ﷺ «لم يكن إلّا إلى العرب»[1]، فردّ عليه الخزرجي بقوله: « فلو أمكنك أن تقول إنما ادعى أنه مبعوث إلى العرب خاصة لكانت لك حجة»[2].

فوردت الجملة الشرطية المدعومة بحرف الشرط «لو » وهو حرف يدل على تعليق فعل بفعل ، ويلزم من تقدير حصول شرطها، حصول جوابها [3]. بعد أن استعرض الخزرجي جملة من الحجج التي وردت على لسان الرسول ﷺ ومنها قوله: ((بعثت إلى الأبيض و الأسود والحر والعبد والذكر والأنثى))[4].

فجاءت الجملة الآنفة الذكر لتضييق الخناق على اليهودي، وتقويض أسس أطروحته ومزاعمه التي يدّعي فيها أن محمدا ﷺ بعث إلى العرب فقط.

ج/ حجاجية أسلوب الاستفهام:

يعرف البلاغيون الاستفهام بقولهم:« هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل » [5]، »[5]، وللاستفهام ألفاظ معلومة، ولكن السؤال قد يخرج عن معناه الحقيقي الموضوع له، للدلالة على معان أخرى، فالاستفهامات المستعملة في الردود والمناظرات لا ترتبط بهذه الغايات (المعنى الحقيقي) ، بل يحمّلها المتحاوران أهدافا إقناعية فيغدو السؤال محركا للتناظر والاستدلال[6].

---

[1]. مقامع الصلبان: 121.

[2]. المصدر نفسه: 121.

[3]. الجنى الداني في حروف المعاني: 274.

[4]. مقامع الصلبان: 121 ، والحديث رواه الدرامي في كتاب السير رقم: 2467.

[5]. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت: 78

[6]. المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، حسين الصديق، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية ، لونجمان، 2000م ط1: 252 (بتصرف)

وقد وظّف الذين ولجوا عالم حوار الأديان في الأندلس الأسئلة في محاوراتهم، من مفتتحها إلى منتهاها، وسنعرض لبعض مظاهر الوظيفة الحجاجية للسؤال في بعض النصوص.

الاستفهام التقريري: وهو الاستفهام عن المقدمات البيّنة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل؛ وهذا النوع من أحسن جدل القرآن بالبرهان، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات أو تكون بيّنة معروفة فإذا كانت بيّنة معروفة كانت برهانية [1]، من ذلك ما أورده ابن حزم في كتاب الفصل ردا على اليهود القائلين بإنكار النسخ فقال:« ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم، أليس دماؤهم لكم حلالا وقتلهم حقا وفرضا وطاعة؟ فلا بد من بلى، فنقول لهم: فإن دخلوا في شريعتكم أليس قد حُرّمت دماؤهم وصار عندكم قتلهم حراما وباطلا ومعصية بعد أن كان فرضا وحقا وطاعة؟ فلا بد من بلى، ثمّ إن عدوا في السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضا بعد أن كان حراما؟ فلا بد من بلى ، فهذا إقرار ظاهر منهم ببطلان قولهم، وإثبات منهم لما أنكروه من أن الحق يعود باطلا، والأمر يعود نهيا، وأن الطاعة تعود معصية، وهكذا القول في جميع شرائعهم»[2].

بيّن ابن حزم أن النسخ واقع في جميع الشرائع، ولكي يصل إلى هدفه المسطر استخدم طريقة السؤال والإجابة في نفس الوقت لأن السؤال لا يقبل إجابة أخرى لهذه الفرضية المذكورة آنفا.

كما وظّف الإمام القرطبي في كتاب الإعلام هذا الأسلوب ليستدرج محاوره بطرح مجموعة من التساؤلات، ويبرهن لخصمه ضلال وتناقض عقيدته، فقال:« ومن عجيب أمرك . وأدل

---

[1]. مناهج الجدل في القرآن الكريم، زاهر الألمعي (رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين): 80 (نقلا من كتاب ابن حزم ومنهجه في مقارنة الأديان، محمود علي حماية، دار المعارف، 1983، ط1)

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 1/ 100

دليل على جهلك: أنّك تدعي أن كتابك نسخ شرع اليهود، وأنت بجهلك ترجع إليه في أحكامه، وهل هذا إلا تناقض ظاهر، وجهل فاحش؟

ثم قلت: « فإذا كاشف المجوسي اليهودي عما ادعياه أنكرهما. وقال: لم يأت بعد كتابي من الله كتاب» يا هذا. لقد قوّلت اليهود ما لا يمكنهم قوله، ولا يسعهم جهله، فإن اليهود يعترفون بأنه قد كان بعد موسى أنبياء كثيرون، جاءوا بصحف، وقرأوا على الناس كتبا كثيرة، هي بين أيديهم وأيديكم اليوم، تقرأونها وتحكمون بها. وها أنت قد استدللت بكثير منها في كتابك هذا. على إثبات نبوّة المسيح. فتلك الكتب التي نقلت منها. إما أن تكون من الله . أو لا تكون. فإن كانت من الله فقد أفحمت نفسك وأكذبتها، وصار كلامك ينقض أوله آخره. مع أن اليهود توافقك على أن تلك الكتب والصحف من الله. وعلى ألسنة رسل الله. على هذا جمهورهم، وأكثرهم . إن كانت تلك الكتب ليست من الله . ولا يساعدونك عليها . فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم بشيء ليس من كلام الله، ولا يسلمونه؟ فلقد مكنت من نفسك يا هذا: اليهود والمسلمين، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين»[1].

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام : 174.

3/ الحدّة في أدب حوار الأديان:

يقتضي الحوار الهدوء والسكينة حتى يتمكن المتحاوران من الوصول إلى الحق أو مقاربة الحق، أما إذا خرج عن هذا الإطار فإنّه يصير جدلا مذموما غير محمود. وأدب حوار الأديان في الأندلس لم يخلُ من استعمال الحدّة في الأسلوب بين المتحاورين وله أسبابه؛ ومن أوضح الأمثلة على ذلك ابن حزم الذي غلب عليه طابع الحدّة، وقد لخّص لنا ابن حيّان المؤرخ مشكلة ابن حزم خير تلخيص حين قال:« فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يزفه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل... »[1] ؛ بل أن هذه الحدّة هو نفسه كان يعترف بها؛ فقد أفصح في كتابه . مداواة النفوس . قائلا: « ولقد أصابتني عِلة شديدة ،ولدت علي ربوا في الطحال شديدا ،فولد علي ذلك من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق ،أمرا حاسبت نفسي فيه ،أذ أنكرت تبدل خلقي، فاشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح فاذا فسد تولد ضده »، ولا بأس في أن نعرض نماذج من ذلك:

يقول ابن حزم: « ... فهذه أقوال إذا تأملها ذو عقل علم أنها وساوس، أو جنون ملقى من الشيطان، لا يمتحن به إلاّ مخذول مشهود له ببراءة الله تعالى منه» [2] وقد أورد هذا الكلام بعد حديثه عن نص الأمانة التي اتفقوا عليها، فما إن بيّن تناقض كلامهم حتّى لجأ إلى أقصى عبارات التسفيه والحط من عقولهم فقد وصفهم بالجنون وأنها مجرد وساوس شيطان.

ثمّ يسرد مجموعة الأدلة التي تبين أن الابن ليس إلها وأنه ذات غير ذات الله تعالى، ليخلص إلى أن الجنون قد اعترى هؤلاء القوم ما يجعل عقيدتهم باطلة، قال: « وإن قالوا: لا هو هو ،

[1]. ابن حزم ومنهجه في مقارنة الأديان : 136.

[2]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 1/ 119.

ولا هو غيره . دخل عليهم من الجنون ما يدخل على من ادّعى أن الصفات لا هي الموصوف ولا هي غيره»[1].

كما نجد ابن حزم في حدّيته يستعمل ألفاظا قاسية وجارحة مثل كلمات: اللعين والسخيف والساقط وغيرها من الألفاظ الحادّة، وكمثال على ذلك: وصفه ليوحنا باللعين وهو من هو عند أمم النصارى ، قال:« وإلاّ فقد كذب يوحنا اللعين قائل هذا الكفر، وأهل الكذب هو»[2].

ويقول في ردّ على مسألة أخرى تخص فترة عذابهم وعبوديتهم قوله :« ورأيت لنذل منهم مقالة ظريفة، وهي أنه ذكر هذه القصة وقال: إنما ينبغي أن تعد هذه الأربعمائة سنة من حين خاطب الله ﷻ إبراهيم بهذا الكلام. .. وأراد هذا الساقط الخروج من مزبلة فوقع في كنيف عذرة، لأنه جاهر بالباطل وتعجل الفضيحة ونسبة الكذب إلى الله تعالى »[3]. فكلمة النذل والساقط تدل دلالة واضحة على حدّية ابن حزم في تعامله مع اليهود.

ولم يتورع الإمام الخزرجي في مخاطبة القس بعبارات قاسية فقال في بداية ردّه:« أيها الأعجمي الألكن، الطاعن في كتاب الله جهلا، ولا يعرف لخذابه فصلا، والملتمس له تأويلا، وأنت لم تؤت من العلم كثيرا ولا قليلا »[4]. فقد وصف القس باللكنة وهي نقيصة ثم أضاف نعته بالجهل، حيث حكم عليه بأنه لم يؤت من العلم لا قليلا ولا كثيرا.

أما الإمام القرطبي فإنّه مثل سابقيه لم يتورع في توظيف أقبح العبارات في حقّ النصارى، قال: « وهذا محض **الجراءة** على الله ، والافتراء على شرائع الله، ولم يصر قط أحد من

---

[1]. المصدر السابق: 1/ 120.

[2]. المصدر نفسه: 122/1

[3]. المصدر نفسه: 1/ 216

[4]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان)، الخزرجي: 127

المتشرعين إلى مثله،...»[1]. فلفظ الجراءة مشتق من الجرأة ولكنه يوظفها في جرأتهم على الله ، لأنه ينطلق من منطلق ديني ، وهؤلاء في نظره كفار وقد تألوا على الله بما ليس فيه. كما قال: « وأنا الآن أذكر ما ذكر في ذلك الكتاب ، ليقضي العاقل من **تواقحهم وجهلهم**: العجب العجاب. ويعلم أنهم مفترون، ويكذبون على ربّ الأرباب »[2] فلفظتا تواقحهم وجهلهم أقل حدّة من ألفاظ مشابهة، وكذلك قوله:« قال ذلك الجاهل بعد ذكر المحرمات: ....»[3]. وكرّر نفس اللفظة في قوله:« هذا مذهب النصارى أجمعين، ولا يأباه أحد منهم إلّا الأقلين، فينبغي لنا أن **نوبخ** هؤلاء **الجاهلين**...»[4].

ثم ينتقل إلى الحديث: «اعلم يا هذا: أن الله تعالى، أنطقك بشرح حالك . فإنك عبرت عن سوء مناظرتك ونظرت بركيك مقالك، فجهلت حتى توهمت أنك من أهل النظر، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر ، وادعيت دعوى عريضة لتخدع بها قلبا ضعيفا، ونفسا مريضة. ولا بدّ من سؤالك حتى يتبين حقك من محالك. فأقول لك: ما حدّ النظر وحقيقته؟ وما أصوله؟ وكم أقسامه؟ وما أحكامه؟ وما حقيقة المناظرة؟ وما شروطها؟ وكم هي؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة؟ وما حقيقة الدليل ؟ وكم أقسامه؟ وكم شروطه؟ وما وجه الدليل؟ وما المدلول؟ وكم أقسامه؟ فإن كنت تدعي المناظرة، فأجبنا عن هذه الأسئلة محاورة»[5].

وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا، ... فإما أنت الكاذب، أو كتابك هو المحرّف الباطل»[6].

---

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 395.

[2]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 397.

[3]. المصدر نفسه: 397

[4]. المصدر نفسه: 398.

[5]. المصدر نفسه:171.

[6]. المصدر نفسه: 173

«...فمن أين علمتموه أنتم؟ أشافهتكم بذلك الملائكة، أم أرسل إليكم بذلك رسل أخر؟ أم خلق لكم بذلك علم ضروري ؟ وكل ذلك لا تقدرون على ادعائه، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله، محرفون كتاب الله، متواقحون على الله، كاذبون عليه، ومتهاونون برسله...»[1].

فلو بصّر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه، لكان سترها وكتمناها أعظم مطلوبه. لكن جهل فقال، وحيث وجب أن يسجد بال.

ومن عجيب أمرك . وأدل دليل على جهلك: أنك تدعي أن كتابك نسخ شرع اليهود، وأنت بجهلك ترجع إليه في أحكامه، وهل هذا إلا تناقض ظاهر، وجهل فاحش؟

ولم يختلف عبد الله الترجمان عن سابقيه أيضا، فوجدنا عبارات قاسية استعملها في حقّ النصارى كقوله: «الباب الأول: في ذكر الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة وبيان كذبهم لعنهم الله»[2].

وكذلك قوله: « هذا كلام متى في إنجيله، وهو باطل وكذب وزور، وبيان ذلك: أن بيت لحم بينه وبين بيت المقدس خمسة أميال، فلو كان الملك رودس خائفا من هذا المولود باحثا عنه لسار بنفسه مع الثلاثة المجوس، أو يبعث معهم من ثقاته من ينصحه في البحث عن المولود على أتم الوجوه. فهذا دليل على كذب متى في هذه الحكاية»[3].

«... فهذه الحكاية كذب أو هي من خدع الشيطان»[4]

«فهذا هو التخليط، وفيه دليل كذبهم وبطلانهم (أبعدهم الله تعالى)»[5].

---

[1]. المصدر السابق: 399

[2]. تحفة الأريب في الرّد على أهل الصليب: 65

[3]. المصدر نفسه: 70

[4]. المصدر نفسه: 71

[5]. المصدر نفسه: 72.

«.... وعلى ما تقدم من قول متى أن عيسى قال إنه يبقى ثلاثة أيام ثلاث ليال، كما بقي يونس في بطن الحوت، فظهر كذب متى وتناقضه في نقله.

... وحسبك بهذا دليلا على كذبهم في هذا من أصله، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما قتل عيسى ولا دفن ولا قام من قبر بعد يوم ولا بعد أربعين يوما، فلعنة الله على الكاذبين»[1].

«واعلموا أن هذه القاعدة في التغطيس مما افتعلوه مكذوبا في أناجيلهم افتراء على الله ورسوله»[2].

«فهذه عقيدة كفرهم البارد الغثيث ودينهم المرذول الخبيث، كما مهد لهم أوائل شياطنهم، من غير استناد إلى دليل، ولا نقل عن نبي ولا رسول»[3].

4/ التهكم والسخرية في أدب حوار الأديان:

تشير مادة هكم إلى عدد من الدلالات اللغوية، يمكن إجمالها في:

هكم: الهاء والكاف والميم تدل على تقحّم وتهدّم، وهكم هكما: تقحّم على النّاس وتعرضهم بشّر، وتهكمت البئر تهدمت، وتهكم عليه من شدة الغضب مثل تهدم عليه[4].

وهو عند البلاغيين: الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في مكان اللوم، والمدح في معرض السخرية، ونحو ذلك[5].

---

[1]. المصدر السابق: 75.

[2]. المصدر نفسه: 82

[3]. المصدر نفسه: 91.

[4]. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2008م مادة: (هـ ك م): 610.

[5]. الربيع في أنواع البديع، علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: هادي شكر، دار النعمان، النجف، ط 1، 1389هـ 1969م : 185/2.

والتهكم من الأساليب البلاغية الفنية الصعبة، فهو يتم ضمن معيارية فنية هي تقديم النقد اللاذع بقالب هزلي ساخر ، ف يغدو سلاحاً يمتلكه الكاتب « لتهذيب الفرد والمجتمع ، والسعي بهما إلى مستوى أكثر تقدما ، وأرقى حضارة ؛ لأن الأديب حين يتهكم ، فإنه يربط ما بين الأشياء والأمور الواقعة ، وما يجب أن تكون عليه من مُثل الكمال؛ أي أنه يقابل الواقع على ما فيه من تخلف أو فساد ، أو نقص بالكمال ، الذي يراه الهدف والغاية» [1].

وقد عرّفه الحموي بأنّه: « نوع عزيز في أنواع البديع ، لعلو مناره ، وصعوبة مسلكه، وكثرة التباسه بالهجاء في معرض الجد، وبالهزل الذي يراد به الجد»[2]، ولهذا عرّفه علماء البديع بأنه: « ما كان جدا وباطنه هزلا»[3].

وهناك من يجعل التهكم والسخرية شيئا واحدا، إذ يقول: « هي طريقة في التهكم المرير ... الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان» [4]. ويقول آخر: « السخرية هي طريقة تهكمية تقول عكس ما نود تبليغه عبر بلاغة المعنى المقلوب »[5].

نستخلص من هذين المفهومين أن السخرية والتهكم كلاهما طريقة تعبر عما يريد أن يقوله بقول مضاد له، فتجيء بالذم في قالب مدحي، أو بالجدّ في قالب مازح.

وأدب حوار الأديان في الأندلس لم يخلُ من توظيف السخرية والتهكم لأغراض الإقناعية وإقامة الحجة الدامغة ، إضافة إلى بعده البلاغي؛ وسنعرض فيما يلي لبعض النماذج:

---

[1]. السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين ، سعيد أحمد عبد العاطي غراب، دار العلم والإيمان، مصر، ط1: 86.

[2]. خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (تقي الدين أبي بكر علي)، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2004، م1: 215.

[3]. السخرية في الأدب الجزائري الحديث 1925/ 1962م، محمد ناصر بوحجام، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر 2004م: 24.

[4]. بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية، عبد المولى أحمد عادل، مكتبة الآداب، القاهرة ، مصر، ط1 2009،: 116.

[5]. بلاغة الحجاج في سخرية الرحالين العرب من بلاد العم سام، عبد النبي ذاكر، علم الكتب الحديث ، إربد، الأردن،ط1، 2010: 241. (نقلا من أسلوب التهكم عند الإبراهيمي: 24)

الإمام الباجي: استعان الإمام بهذا الفن في رسالته إلى راهب فرنسا لمحاولة ثنيه عن تكرار رسائله وكشف مغالطاته التي احتوتها تلك الرسالة ، من ذلك قوله :« وقد كان ورد علينا قبل هذا كتابك، واقترن به من دعوى حامله المحال، الذي كان يجب أن لا يخاطب به من له أقل إحساس ، أو يختلج بخاطر من له أدنى فهم، [من إحياء أموات وأعظم رفات] »[1]. فالباجي يسخر من محتوى دعوة الراهب للأمير، ذلك أنه اعتبر دعواها يستحيل أن يقبلها أيّ عقل سليم؛ ثمّ يمعن في التعريض به فيقول:« فألنّا له القول وأولياه الإعراض والصفح، وجاوبناك من يعتقد حسب ما ظهر منك، وبلغنا عنك من خطرات الغفلة أنك أرسلتها دون تأمل وأظهرتها دون تحصيل ولا تحقيق، مع ظنك أنه يجوز على ضعفاء المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتكم، من تجويز محال وتصحيح ما هو في غاية الإبطال »، الإمام الباجي يضع الراهب في مرتبة الرعاع من الناس ذلك أن الإمام رفض حتى الإجابة عن رسالته لأنه اعتبر الإجابة عنها نقيصة، ويلتمس للراهب العذر بأسلوب ساخر وهو أن الراهب لم يقرأ ما كَتَبَ ولا فحص محتوى الرسالة؛ لأنه يعتقد أن عقول المسلمين مثل عقول النصارى تقبل كل شيء ولا تناقشه وهذا تعريض كبير بالراهب.

وبأسلوب المخالفة يسخر الباجي من الراهب حيث يحاول الإمام انتشاله من الدرك الذي وقع فيه لأن هذا الدرك بيّن بوضوح حقارة أفكاره وبعده عن العلم وأهله، فيقول: «... فإنما يستعمل الإغلاظ لمن يُتيقّن عناده ويتبين إصراره، ولم يرج انقياده ، ونحن نرجو أن نرفعك عن هذه المحطة ونخلصّك من هذه الوصمة ...

ولو تتبعنا ما في كتابك من التناقض وفساد الوضع ومستحيل القول لما سلم منه إلا اليسير الحقير، لكنا وفقنا الله وإياك ! حملنا ذلك منك على ما عهدناه من أهل ملّتك من قلة العلم،

[1]. رسالة راهب فرنسا ورد الإمام الباجي: 64

والبعد عن مقاصد المناظرة ، وترك المدارسة والمحاورة، مع تمويهات لا تصح ، وتلفيقات لا تثبت ولا تنصر....

وأرجو أن يوفقك الله ، بإرشادنا لك ، إلى ترك التمويه والتعلق بالمغالطة والكذب، ويعوضك علم الحقائق، وصحيح المقاصد، وأدب المناظرة ، التي تفضي بك إلى السبل اللائحة والحقائق الواضحة!»[1].

ولا يتوقف الإمام عند هذا الحدّ بل يدعوه للقدوم إلى حاضرة الأندلس ليتلقى العلم والفهم «... ولوددنا أن تصير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك ، ونتمكن من تفهيمك، ونبيّن لك من تحقق الكلام وتحرير وتفصيله وتوجيهه ... ما يزيل كل سخيفة من نفسك، ويطهّر من دنسها قلبك، ....

...وهل يصح أن يبلغ من الجهل الواضح وتجويز قلب الحقائق ودعوى المحال ، إلا من سقطت مقالته، واستحكمت جهالته، وعميت بصيرته ؟! فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ويندب إليه ؟!!»[2].

الخزرجي: لم يخلُ مؤلف الإمام الخزرجي من السخرية والتهكم فوجدناه يستعمل لفظة المسكين والمغرور والمخدوع في قوله: « أ خبرني أيها المسكين »[3] ، «أخبرني أيها المغرور! » ، «أخبرني أيها المخدوع!»[4] مع ما تحمله من معاني السخرية والتهكم.

وحين تحدث عن إلههم الذي يعتبرونه ابن الله يسرد مجموعة من الفقر بطريقة ساخرة وتهكم واضح تبين حقارة ما يدّعونه من ألوهية عيسى عليه السلام فقال:« وما الذي رأوا من العظمة التي لم يكونوا رأوها حتى ترتفع المعاذير؟ ألأجل أن رأوا يديه ورجليه مكتوفة ! .كما

---

[1]. المصدر السابق: 74

[2]. المصدر نفسه:75

[3]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان)، الخزرجي: 130

[4]. المصدر نفسه: 139

تظن من غير يقين . ، مصفوعا في قفاه، مبصوقا على وجهه بتاج من الشوك على رأسه مصلوبا على جذع مسمرة يداه ورجلاه فيه»[1].

«ولقد وجب [وحق الإنسانية] تنقيص تلك الألوهية بما لا يخفى على أحد [ولو كان صبيا]»[2]

«وأيم الله ! ما يعلم في معمور الأرض ديانة يتشرع بها إنسان تضاد الفلسفات والعقليات التي ادعيتم تجويز حالاتكم عليها مثل ملتكم»[3].

«...على من اعتقد أن الله تبارك وتعالى ، نزل من السماء عن كرسي عظمته ، ودخل في امرأة ، وأقام يتخبط تسعة أشهر في بحر بين بول وطمث ثم خرج بعد ذلك إلى لطم اليهود خديه وصفعهم في قفاه وبصقهم وجهه، ووضعهم تاجا من الشوك على رأسه وقصبة في يده استخفافا به ... ، وإيجابه تبارك وتعالى على نفسه اللعنة ، بذلك لأنه تعالى قال في التوراة : ملعون ، ملعون من تعلق بالصليب»[4].

ومن جملة تهكمه على القسيس أقسم الخزرجي أن تاريخ الطبري أصح عنده من إنجيل النصارى «... حتى أنّي أحلف بالذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلا من الإنجيل»[5]. ولا ينتهي الخزرجي من السخرية بالقس بل يمعن فيها حتى يصل به الحدّ إلى مناقضة البديهيات، قال:« صلب المسيح: لكن جميع ذلك خلاف الضرورة ، فيكون القول بالشبه محال ، كالقول أن الواحد نصف العشرة ، والمثلث هو عين المربع»[6].

---

[1]. المصدر السابق: 139

[2]. المصدر نفسه: 140

[3]. المصدر نفسه: 152.

[4]. المصدر نفسه: 153

[5]. المصدر نفسه: 157.

[6]. المصدر السابق: 165.

ابن حزم الأندلسي: تظهر سمة السخرية جلية في حوار ابن حزم مع أهل الكتاب، فقد أضفى ابن حزم على نقده اللاذع لليهود والنصارى سخرية عميقة تصل إلى درجة الاستهزاء والسبّ، ومن الأمثلة على سخرية أسلوب ابن حزم ما أورده في الفصل: « ... ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه ...لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع، السمج، السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلا يسع هذا الجنون ونعوذ بالله من الخذلان»[1].

حين أثبت له أن مدة استعباد اليهود أقل من أربعمائة سنة بسنين طويلة، بقوله:« ورأيت لنذل منهم مقالة ظريفة، وهي أنه ذكر هذه القصة وقال: إنما ينبغي أن تعد هذه الأربعمائة سنة من حين خاطب الله ﷻ إبراهيم بهذا الكلام.

وأراد هذا الساقط الخروج من مزبلة فوقع في كنيف عذرة، لأنه جاهر بالباطل وتعجل الفضيحة ونسبة الكذب إلى الله تعالى»[2].

وأثناء حديثه عن النصارى يورد: « وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن من يلعب بعذرة، وما يخرج من أسفله يصدق بشيء من هذا الحمق»[3].

الإمام القرطبي (الإعلام): كما وظّف الإمام القرطبي صاحب الإعلام السخرية والتهكم في كتابه، نجد ذلك في قوله:« اعلم أيها العاقل ـ وفقك الله ـ أن النصارى أضعف الناس عقولا، وأقلهم فطنة وتحصيلا. فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات ، وينكرون الضروريات ، ويستندون في أحكامهم إلى الخرافات. فتارة يسندون قضاياهم إلى منامة رأوها أو خرافة سمعوها، وأخرى تحكم فيهم " متقسس " جاهل ، بمحض الجهل والهوى والأباطل. من غير

[1]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 112/1 .

[2]. المصدر نفسه: 1/ 216.

[3]. المصدر نفسه: 83/2.

أن يستدل على جواز شيء مما يريد أن يفعل من الأفاعيل، لا بتوراة ولا بإنجيل بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ، ويتأولهما تأويل منسلخ عن الملين، وربّما تنزل بهم عظام النوازل فيجتمعون لها في المحافل ، فيتحكمون بأهوائهم، ويقولون فيها بآرائهم، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله»[1].

ومن مظاهر سخريته بالنصارى أن يشبه أذهانهم بالإناء المثقوب الذي لا يستطيع احتواء شيء ، ومع ذلك يدّعون أن فهمهم يزيد عن فهم موسى وعيسى عليهما السلام:« فيا للعجب ما أثقب أذهانكم ، وأصح أفهامكم، إذ قد فهمتم من كتاب رب العالمين، ما لم يفهمه أحد من النبيين، بل قد زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران، وعيسى عليهما السلام. إذ كانا قد عملا على تحريم ما فهمتم أنتم تحليله من الأحكام»[2].

ثم يطرح تساؤلات عديدة في قالب ساخر إذ يقول:« ...فمن أين علمتموه أنتم؟ أشافهتكم بذلك الملائكة، أم أرسل إليكم بذلك رسل أخر؟ أم خلق لكم بذلك علم ضروري ؟ وكل ذلك لا تقدرون على ادعائه، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله، محرفون كتاب الله، متواقحون على الله، كاذبون عليه، ومتهاونون برسله...[3]

فلو بصر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه، لكان سترها وكتمناها أعظم مطلوبه. لكن جهل فقال، وحيث وجب أن يسجد بال.

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبيّن عجزكم وجهلكم هنالك:

... وهذا أثر التقليد، والجمود عليه حملك، على الإعراض عن حجة خصمك، لعلك لا تسمع ما يؤدي إلى تبكيتك، ولطمك. ولقد كان ينبغي لك، . لو كنت من النظار والعارفين

[1]. الإعلام بما في دين النصارى في الأوهام : 4/ 393.

[2]. المصدر نفسه: 4/ 398

[3]. المصدر نفسه: 4/ 399

بأديانهم. أن تذكر حجج خصومك أحسن، .....، ولكن مع هذا نقبل عذرك ، ونعلم جهلك، فإنك واحد من المسيحيين الذين تشبثوا بالقسيسين، وفي مثلك ينشد:

فَسَدَ الزَّمَانُ فَسَدَت غَيرَ مُسَوَّدِ وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤدَدِ [1]

يا هذا لقد كثر غلطك، حتى يعجز الناظر فيه عن إحصائه، وعظم سقطك حتى لا أقدر على استقصائه.

فكيف جازفت في لفظك، وقلت على المسلمين والنصارى ما لا يرضون به، ولا يعولون عليه؟ وهل إطلاقك هذا إلا نتيجة جهلك، ومما يدل على نقص عقلك؟

فهذا المسيح قد اعترف أن له إلها، وتضرع إليه وشكر نعماءه وإجابته لدعائه، فكيف يقولون: إن عيسى هو الذي خلق السماوات والأرض؟ وهل يكون في العقول السليمة أشنع من هذا.

عبد الله الترجمان: لم يتخلف عبد الله الترجمان عن توظيف صيغ التهكم والسخرية مما يؤمن به النصارى، وهو الأدرى والأعلم بما تحويه ديانتهم ، ونجده قد عدّد من ذلك كقوله:

« ولا يشك ذو عقل سليم أن كل من له مسكة من العقل يجب عليه أن يحول نفسه عن اعتقاد هذا الإفك الغثيث البارد السخيف الرذيل الفاسدن الذي تتنزه عنه عقول الصبيان ، ويضحك منه ومنهم ذو الأفهام والأذهان»[2].

وكذلك قوله: «... وأين كان لاهوته لما مات ناسوته، لا سيما على قولهم إنهما اتحدا وتمازجا والتحما ؟؟ فما الذي فرق بينهما عندما ضرب جسده وناسوته بالسياط. على زعمهم. وعصب رأسه بالشوك ، وصلب على خشبة وطعن بالرماح حتى مات وهو يصيح جزعا وخوفا ؟؟»[3].

---

[1]. المصدر السابق: 2/ 166

[2]. تحفة الأريب في الرّد على اهل الصليب: 85

[3]. المصدر السابق: 87

وقوله: «هذه كلها دعاوى باطلة ، وهي من الكفر الركيك ، وفضايح لا يرخصها عقل سليم»[1].

5/ الدراسة البلاغية لأدب حوار الأديان :

أ/ السجع:

أخذ الكتاب الأندلسيون بالكتابة المتأنقة، وأكثروا بل وأسرفوا من استعمال المحسنات البديعية حتى غدت معيارا مهّما لتقييم أيّ أديب ، يبيّن به مقدرته اللغوية ، وقد كان السجع أكثر المحسنات البديعية شيوعا ، وهو سمة زخرفية لفظية تختص باللفظة المركبة في جملة تتوافق فيها بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد [2] ؛ وقد عدّه ابن الأثير ميزة محمودة ، وإلاّ لو كان مذموما لما ورد في القرءان الكريم [3] . ولقد أجاد الكتّاب الأندلسيون في استعمال السجع، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيه.

ولما صار السجع طبعا عاما بين جميع الكتاب ، ألفينا العلماء الذين ساهموا في الحوار مع أتباع الأديان الأخرى يوظفونه في محاوراتهم ، ولكن الملاحظ على هذا الفن من البلاغة عفويته ، حيث لم يكن مقصودا لذاته ، ربما لأن أكثر هذه الأدب تمّ بين أناس تختلف لغتهم وثقافتهم وموروثهم، ولكن قلنا أن نصوص هذا الفن لم تخلُ من السجع ، وسنعرض فيما يلي لبعض منه؛ ومن الأمثلة على ذلك قول الإمام الباجي: « ... تصفحت . أيها الراهب . الكتاب الوارد من قبلك ، وما مَتَتَّ به مودّتك ، وأظهرته من نصيحتك، وأبديته من طويّتك؛ فقبلنا مودّتك لما بلغنا من مكانتك ، عند أهل ملّتك ، واتصل بنا من جميل إرادتك

---

[1]. المصدر نفسه: 87

[2]. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير ضياء الدين ،تح: أحمد الحوفي . بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: ج1/ 192.

[3]. المرجع نفسه: 1/ 193.

.....»[1] ؛ ظهر السّجع واضحا في مفتتح الرسالة ، موظفا إيّاه على نغم واحد هو حرف الخطاب الكاف ، ولعلّ طبيعة الموضوع هو الذي دعا الإمام إلى الإكثار منه ، ليبيّن قدرته اللغوية ، ويستطيع إقناع خصمه ، ذلك أن طبيعة الموضوع تتطلب اهتماما كبيرا بالعبارات ، وصياغة متقنة للتعبير، حتى لا تؤوّل العبارات في غير مكانها.

وقد استمر مفتتح الرسالة على هذا النغم ، مما يبيّن قدرة الإمام الباجي اللغوية مع البعد عن الثقل والتكلّف والصنعة.

ومما وظّفه الباجي من السجع عند حديثه عن معجزات الرسول ﷺ التي كانت في أماكن متعددة جمّة وبحضور الأمة فقال: « وقد تتابع ذلك في مقامات جمّة ، بمعاينة جميع الأمة »[2]؛ ثمّ يردف قائلا:« من غير أن يُعْلم بمدارسة كتاب ، ولا مذاكرة أصحاب»[3].

ومن السجع الذي وظفه الإمام الباجي اقتباسه من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ ﴾[4]؛ فقال الإمام الباجي:« وأَكْلِ **الطعام**، والموت الذي كتب على جميع **الأنام**»[5] .

ومن الأمثلة على السجع في رسالته: «من ترجى **عودته** وتنتظر **إنابته**».

ومن العلماء الذين جاهدوا بلسانهم وقلمهم في ميدان الدفاع عن الإسلام ، ودخل في حوار عميق مع أحد القساوسة الإمام الخزرجي صاحب مقامع الصلبان، فلم يخل كتابه

---

[1]. رسالة راهب فرنسا وردّ الإمام الباجي: 63.

[2]. المصدر نفسه: 91.

[3]. المصدر نفسه: 91.

[4]. سورة المائدة : 75.

[5]. رسالة راهب فرنسا وردّ الإمام الباجي: 66.

كذلك من السجع، من ذلك قوله: « ولم أُقَدِم هذا الفصل قاصدا تبيان ضلالتك، لأن ذوائبها قد سارت مسرى **الشمس**، وبواطلها لاحت لعيون الجن و**الإنس** »[1].

«كواكب الإيمان بالله عندنا **تتجلى**، ونحن بالمسيح ابن مريم رسول الله **أولى**، قدّرناه حقّ **قدره**، وقلنا بفضله المعلوم و**فخره**، واعتقدنا بمنزلة تقبلها **الأفهام**، وتليق بالعقول و**الأوهام** »[2].

ما يلاحظ على سجع الإمام الخزرجي أنه ينوّع في فواصله، بعكس الباجي الذي كان يسير على نغم واحد.

ومن العلماء الذين ولجوا عالم الحوار مع الآخر ووظّفوا السجع بكثرة في مؤلفه ، نجد الإمام القرطبي صاحب كتاب الإعلام، ومما وثقه في كتابه من السجع نجد: « يا هذا **أسهبت فأطنبت**، وبحبة خردل ما **أتيت**. كثر **كلامك**، فكثر **غلطك**، وقلت فائدته، فظهر قصورك و**سقطك**، ومن كثر كلامه كثر سقطه، .... أعميت لجهلك بلحنه، ولم تتفطن لتثبيجه، فلقد استسمنت ذا **ورم** ونفخت في غير **ضرم**»[3]. «ولكن لا **عليك**، فإنما هو جنى **يديك**»[4].

«ثم قلت بعد ذكر كلام حاكيت به فعل السفلة **الطغام**، المعدودين في رعاع **الأعوام**، .....، يا هذا جهلت كل **الأنام** ، إذ زعمت أن التقليد دأب كل **الأقوام** ، ولو أنصفت **القضية**، وعدلت **بالسويّة**»[5].

«واستنهض العقول **للنظر**، وأوضح لها مسالك **العبر**»[6].

---

[1]. مقامع الصلبان: 124.

[2]. المصدر نفسه: 128

[3]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 165/2.

[4]. المصدر نفسه: 4/ 167.

[5]. المصدر نفسه: 2/ 169.

[6]. المصدر نفسه: 170/2.

وقوله: « اعلم أيها العاقل ـ وفقك الله ـ أن النصارى أضعف الناس **عقولا**، وأقلهم فطنة و**تحصيلا**. فهم لذلك يعتقدون في الله **المحالات** ، وينكرون **الضروريات** ، ويستندون في أحكامهم إلى **الخرافات**»[1].

ومنها ما جاء على لسانه:« ونحن نبين ذلك ونستدل عليه ـ إن شاء الله ـ على **الإنصاف** من غير **اعتساف**»[2]. وكذلك: «حتى صرفهم عن دين **المسيح** وقولهم من المذاهب والآراء كل **قبيح**»[3].

«فإن قالوا: إنما نحكم ب**المصالح**، وهي عندنا أصل **راجح**»[4].

«فأحللتم ما حرّم عليكم من غير **دليل**، وصرتم إلى **تأويل**»[5].

«إذ قد فهمتم من كتاب ربّ **العالمين**، ما لم يفهمه أحد من **النبيّين**»[6].

«ولقد كان لنا فيما قدمنا **كفاية**، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم إلى أقصى **غاية**»[7].

«لكن جهل **فقال**، وحيث وجب أن يسجد **بال**»[8].

ونختم بما عثرنا عليه في كتاب تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب الذي قال:« فكنت شديد الحرص على أن أضع في الردّ عليهم موضوعا بطريق النقل وحقيقة الإنصاف، الذي يجمع بين **النقل والقياس**، وتتفق عليه **العقول والحواس**»[9].

---

[1]. المصدر السابق: 393/4.

[2]. المصدر نفسه: 4/ 393.

[3]. المصدر نفسه: 393/4

[4]. المصدر نفسه: 394/4.

[5]. المصدر نفسه: 398/4.

[6]. المصدر نفسه: 399/4.

[7]. المصدر نفسه: 402/4

[8]. المصدر نفسه: 402/4.

[9]. تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب: 34.

وقوله:« ... ليسهل مطالعته على **الناظر**، ولا يمله **الخاطر**»[1].

وما يلاحظ أن هؤلاء العلماء وإن كان هدفهم وهمّهم إقناع الآخر أو ردّ شبهه التي يثيرها، إلاّ أن توظيفهم للسجع أضفى إيقاعا موسيقيا بليغا يدلّ على قدرة الكاتب على تأليف المفردات المناسبة، وتحقيق الانسجام بينها، مما يخدم المعنى المقصود، ويبرزه في ثوب الرّقة والجمال وقوة التأثير.

ب/ الجناس:

كان الجناس من الألوان الزخرفية التي استعملها كتّاب هذا الفن الأدبي لتنميق كلامهم، إلاّ أن عنايتهم بالجناس كانت أقل من عنايتهم بالسجع، وقد تباين استعماله وتفاوت من عالم إلى آخر، ولعل مردّ ذلك حرصهم على الابتعاد عن التكلّف ، واكتفاؤهم بالسجع، وما يحدثه من تنغيم وموسيقى وإيقاع يعوض عن استخدام الجناس.

ويظهر فن الجناس بين الفينة والأخرى، كقول الإمام الباجي في ردّه على راهب فرنسا: « ولما تكررت علينا **رسائلك ووسائلك** »[2]؛ فقد جانس الإمام الباجي بين لفظتي رسائلك ووسائلك على أنه جناس ناقص، هدف من ورائها إلى القول بأن الردّ لا قيمة له ولكن كثرة المراسلات وكثرة الطرق التي عبّر عنها بالوسائل هي التي دفعت الباجي ليرد على هذا الراهب.

ومن الجناس الناقص أيضا عند الباجي نجد قوله: « تعيّنت علينا **مفاوضتك** فيما رضيناه من مسألتك، **ومعارضتك** فيما اخترناه من منهجك في النصح »[3]، والتي حاول الباجي من خلالها أن ردّه سيكون على المسائل التي تحتاج إلى ردّ، بينما سيعارضه في المنهج الذي اختاره ؛ ذلك أن الباجي ردّ من باب أن هذا الراهب هو أحوج ما يكون من النصح من غيره.

---

[1]. المصدر السابق : 36

[2]. رسالة راهب فرنسا ورد الإمام الباجي: 65.

[3]. المصدر نفسه: 65.

ومن نماذج الجناس أيضا ما أورده الإمام القرطبي صاحب الإعلام في قوله: « هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل **المصالح**، فهل شرعوا العمل **بالمصالح** »[1].

وكذلك قوله: « ومن لم يقبلها عندهم فهو **كافر**، وليس له من ذنوبه **غافر**»[2]؛ عندما تحدث عن التعميد وغفران الذنوب.

«.. لكن الفصل يقع بينهما من جهة **البينات**، ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب و**الديانات**»[3].

«وعدلت في هذا الحكم عن **العدل**، فحاق عليك اللوم و**العذل**»[4].

وكذلك قوله: « فهو في كل حال **ينشد**، وأحواله **تشهد** »[5].

وقوله: « وتب للواحد **الخلاق**، واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال و**الأخلاق**»[6].

والملاحظ أن أغلب الجناس الموظف هو جناس ناقص.

ج/ الطباق:

يعدّ فنّ الطباق من أهم المحسنات البديعية التي استعملها الكتّاب في ميدان عنايتهم بالمعنى، واهتمامهم بالجمل التي تعبّر عنه، وتترجم مشاعرهم وعواطفهم.

وقد أجمع أهل البلاغة على أن الطباق في الكلام ، هو الجمع بين المعنى وضده في جزء من أجزاء النص . وهو نوعان طباق إيجاب ، إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظا ومعنى. وطباق السلب إذا تحقّق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام[7].

---

[1]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 394/4.

[2]. المصدر نفسه: 403/4.

[3]. المصدر نفسه: 2/ 167.

[4]. المصدر نفسه: 168/2.

[5]. المصدر نفسه: 168/2.

[6]. المصدر نفسه: 168/2.

[7]. التبيان في وجوه البيان: 170.

ويظهر للباحث أن صيغ الطباق تظهر بدرجات متفاوتة في أدب حوار الأديان، ومثال ذلك ما جاء عن الإمام الباجي:« الملك **الدائم** على الملك **الزائل**»[1]

« لا ينبغي أن يشركه **طائع** ولا **عاص، ولا برّ** ولا **فاجر**»[2]

« تتبع معانيه **أوّلكم** و**آخركم** »

« ولا تبين **الهدى** من **الضلال**»[3]

وكذلك وظّفه الإمام الخزرجي كقوله: «ثم لم تلبث أن **أوجبت** ما **نفيت** ، و**أقررت** ما **أنكرت**، وكنت **كالقائم القاعد** في الحال الواحد»[4]

«يضرب الأرض ضربا، فيقطعها **شرقا** و**غربا**».[5]

« وأخرى تبدل **المدح بالملام** » [6].

6/ الأمثال:

لجأ الأدباء الذين ولجوا عالم حوار الأديان في الأندلس إلى توظيف الأمثال لما يحمله من شحنة دلالية تغني عن توظيف كمٍ من الكلمات في عبارة موجزة، إضافة إلى أنها تعبر عن مظاهر الحياة في ذلك المجتمع ، لأنها عصارة حكمة الشعوب وذاكرتها قال ابن الأثير:« الحاجة إليها شديدة ، وذلك أن العرب لم تصغ الأمثال إلاّ لأسباب أوجبتها وحوادث

---

[1]. رسالة راهب فرنسا ورد الإمام الباجي: 66

[2]. المصدر نفسه: 70.

[3]. المصدر نفسه: 76.

[4]. مقامع الصلبان : 136.

[5]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 168

[6]. المصدر نفسه : 169.

اقتضتها ، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء» [1]؛ ولا بأس في أن نتقصى توظيف هذا الجانب في المحاورات بين الأديان.

وظّف الإمام الخزرجي بعض الأمثال في ردّه على القس بغية الازدراء من ذلك قوله:« والجهل الشنيع في وجوه من العذر التي هي أقبح من **الذنب**»[2].

ومن طالع كتبكم وأناجيلكم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن شرائعكم وأحكامكم ونقولكم قد **تفرقت تفرق أيدي سبأ**»[3].

أما الإمام القرطبي صاحب الإعلام فقد أسهب في توظيف الأمثال كقوله:« **يا هذا أسهبت وأطنبت ، وبحبة خردل ما أتيت**»[4].

«**ومن كثر كلامه، كثر سقطه**»[5].

«**فلقد استسمنت ذا ورم ونفخت في غير ضرم**»[6]

«**فمثلك مثل الباحث بظلفه على حتفه، والجادع مارن أنفه بكفه**»[7].

هذا ما جنى عليكم تأويلكم، إذ قد شككتم في مسيحكم. ففي مثلكم يضرب المثل: « **يداك أوكتا ، وفوك نفخ** »[8].

---

[1]. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 54.

[2]. بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان): 140

[3]. المصدر نفسه: 157

[4]. الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام: 165

[5]. المصدر نفسه: 165.

[6]. المصدر نفسه: 165

[7]. المصدر نفسه: 174

[8]. المصدر نفسه: 400

كما لم يغفل عبد الله الترجمان توظيف الأمثال، مثل قوله:« فإذا هي لا تخفى على من له أدنى تمييز، إلاّ **من لا يبصر بيض النعام من الشونيز**»[1]

قال رسول الله ﷺ:«**حبّ الدنيا رأس كل خطيئة**»[2].

وهكذا استطاع الأدباء والعلماء أن يوظفوا شتى ألوان فنون الكلام في تقوية حجتهم، وتعزيز موقفهم، نصرة للشريعة الحنيفية، وإعلاءً للسنة المحمدية.

[1]. تحفة الأريب: 31 .الشونيز: الحبة السوداء. (م.ن)

[2]. رواه البيهقي في الشعب 71 بإسناد حسن إلى الحسن البصري، وقيل حديث ضعيف.

الفصل الخامس:

تحليل مضمون رسالة

ابن حزم في ردّه

على ابن النغريلة.

1/ ترجمة ابن حزم الأندلسي:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الظاهري الأندلسي. ويعدّ جدّه خلف بن معدان، أول من دخل الأندلس من آبائه، وكان ذلك رفقة عبد الرحمن الداخل عندما فرّ إليها من وجه العباسيين. ويذكر المؤرخون أنه ولد بمدينة الزاهرة بقرطبة سنة 384هـ، في وسط مفعم بالعظمة والعزّ والجاه، فقد كانت أسرته غنية ذات مجد وحسب وعلم وأدب ، وكان أبوه وزيرا للمنصور بن أبي عامر ثم لابنه المظفر، واشتغل هو أيضا بالسياسة، حتى وصل إلى مرتبة الوزارة، غير أنّ هذه النعم لم تستمر معه طويلا، فاعتزل السياسة ثم عاد إلى الوزارة أيام هشام ، لكنه لم يلبث أن طلّق المناصب الوزارية واعتزل السياسة إلى غير رجعة، وانصرف إلى التأليف والكتابة. لا سيما بعد أن تقلبت به الأحوال، وتنكّرت له الرجال، بعدما أصبح ذا مزاج صعب المراس، وقد لخّص لنا ابن حيّان المؤرخ مشكلة ابن حزم خير تلخيص حين قال:« فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يزفه بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل، فينفر عنه القلوب ويوقع بها الندوب حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه وردّوا قوله، وأجمعوا تضليله وشنعوا عليه، وحذّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه من قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة ... وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به، يبث علمه فيمن ينتابه تلك من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف»[1].

وبقي كذلك ببلدة من بادية لُبْلَة يبث علمه في عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة، إلى أن أسلم الروح إلى بارئها عزّ وجلّ عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة

[1]. ابن حزم ومنهجه في مقارنة الأديان: 204

456هـ، تاركا وراءه تراثا ضخما من المؤلفات، دلت في الأصل على غزارة علمه، وتنوع ثقافته[1].

2. جهود ابن حزم في نقده لغير المسلمين (اليهود):

شغل ابن حزم العلماء بتفرداته الفقهية ومخالفته الكلامية ونقده الشديد لمعاصريه من الفقهاء والمتكلمين، وهو جانب ألقى الستار على كثير من دراسته واجتهاداته، والجانب الأهم الذي يستحق الدراسة هو الجانب النقدي لغير المسلمين ومجادلته لهم، ونقده لكتاب اليهود "التوراة المحرّفة"، فكان يجلس إلى اليهود ويجادلهم ثم يرجع إلى كتبهم ويكشف ما فيها من تحريف ويظهر ما فيها من تبديل ويدلل على التناقض فيها ، وكان ابن حزم في أغلب المواضع التي حاور فيها اليهود يعتمد على جهوده الشخصية.

كما كان صاحب فضل في بناء منهج الدراسة النقدية الموضوعية للتوراة وقد درسها دراسة نقدية على المستوى النصي والديني والمصدري والتاريخي والجغرافي والأخلاقي واللغوي والأدبي، فاعتمد عليه المستشرقون وعلماء العهد القديم في الغرب في بعث علم مقارنة الأديان.

ويأتي ابن حزم على قمة العلماء المؤسسين لنقد الأديان ويتصف بالشمولية في الموضوع والمنهج ، فقد غطت العملية النقدية كل اتجاهات النقد الرئيسة، وأهمها النقد النصي والمصدري والأدبي واللغوي والتاريخي والديني والأخلاقي ، وهي الاتجاهات نفسها التي قامت عليها حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب التي أسسها يوليوس فلهاوزن [2]، فهو يؤكد

---

[1]. ينظر: ترجمته في جذوة المقتبس: 290-294، والذخيرة: ج1/ 167.

[2]. ولد سنة 1844م وتوفي 1918 تخرج باللغات الشرقية على إيفالد في جونييف، يعد من أشهر تلاميذه وقد خلفه فيها من آثاره: تاريخ اليهود ، محمد في المدينة، السيادة العربية (المستشرقون، نجيب العقيقي ، دار المعارف، مصر، ط4: 386/2).

استفادته من نقد ابن حزم للكتاب المقدس واليهود، فالتشابه في نتائج نقد الكتاب المقدس بين الرجلين يؤكد قراءة فلنهاوزن لابن حزم، وتأثره به بشكل كبير .

كما أن النتائج التي توصل إليها ابن حزم وافقه عليها علماء المسلمين واليهود ، نذكر منهم:

إمام الحرمين الجويني (ت 478هـ) الذي قال :« إن التوراة التي كتبها عرزا الوراق بعد فتنتهم مع نبوخذا نصر »؛ وأردف : «وهذه التوراة كتبها عزرا قبل بعثة المسيح بخمسمائة وخمس وأربعين سنة»[1].

وقال د. سكندر كيدس وهو من كبار رجال الكنيسة المعتمدين في ديباجة الكتاب المقدس:

« ثبت لي بظهور الأدلة الخفية ثلاثة أمور جزما:

- الأول أن التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى.
- الثاني أنها كتبت في كنعان أو أورشليم يعني ما كتبت في عهد موسى، الذي كان فيه بنو إسرائيل في هذا العهد في الصحاري .
- الثالث لا يثبت تأليفها قبل سلطان داود فالحاصل أن تأليفها بعد خمس مائة سنة من وفاة موسى»[2].

ويقول الفيلسوف اليهودي اسبينوزا[3] :«فإنه لا أحد يستطيع أن يؤكد على حق أن

---

[1]. شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من تبديل، الجويني، تح: أحمد حجازي السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر، ط3، 1407هـ-1987م : 36.

[2]. إظهار الحق، رحمة الله الهندي: 116/1.

[3]. العالم والفيلسوف اليهودي باروخ اسبينوزا ، من أكبر الدارسين والناقدين للتوراة، ولد عام 1632م ، وتوفي عام 1677م، تعرض للنبذ والحرمان من الشعب اليهودي واتهم بالهرطقة والابتداع، كانوا يصبون عليه لعناتهم صباحا ومساءً، كان محور فلسفته العقل والأخلاق والدين والسياسة، (اسبينوزا، فؤاد زكريا، دار النهضة العربية، 1962: 362)

موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة ، بل العكس يكذب العقل هذه النيّة »[1]. ومن هذه الآراء يتجلى لنا دور ابن حزم الكبير في نقده ومجادلته لليهود ولكتابهم المقدس ، فاستفاد منه المسلمون وغير المسلمين أيضا، فهنا تكمن القيمة العلمية التي قام بها ابن حزم في حواره مع غير المسلمين من اليهود فهو كان السبّاق لكشف ما احتوته التوراة من التناقض والزيف والبطلان وهذا ما أكده ووضحه في رسالته الرّد على ابن النغريلة.

3. المصادر التي استقى منها ابن حزم ردّه على اليهود:

اعتمد ابن حزم في مناقشته ومناظرته لليهود على شيئين أساسين هما:

أ/ المبادئ العقلية المقررة في أوائل الحس وبداهة العقل:

وتتمثل فيما يلي:

- كان لديه عقلية منطقية مرتبة تحسن تقديم المقدمات وإنتاج النتائج، وتعرف كيف تسير في عرض موضوعاتها بطريقة منهجية منظمة.
- اتّسم بطابع الدقة والتنظيم مع مراعاة مقتضى الحال ، وليس أدل على ذلك من حرصه على تحديد معاني الألفاظ ، ونفوره من الحشو والغلو والاستطراد تجنبا للالتباس.
- الاستعانة بثقافته الواسعة وعلمه الفياض بعلوم التاريخ والأنساب في تأييد فكرته وتقوية اعتراضه، فيقوم بإحصاء دقيق واستقراء البديع.

[1]. رسالة في اللاهوت والسياسة، اسبينوزا، تر: حسن حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م: 266 (نقلا من كتاب في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1990م: 72)

ب/ النصوص المعتمدة عند من يناقشهم:

استطاع ابن حزم أن يستوعب ما توفر لديه من كتب الطرف الآخر على تنوعها ، ففي مناقشاته ومناظراته مع اليهود أقبل على ما يسمونه التوراة ، وسائر أسفار العهد القديم ، فبيّن أن له إحاطة دقيقة بها ، ولم يكتف بالعهد القديم بل درس شروحا له ، وثمة مصادر أخرى استقى منها مادته تتمثل في الحوار المستمر والجدال المتصل بينه وبين علماء اليهود وسائر أصحاب النزاعات والأفكار ، فكان يسأل بعض اليهود السؤال الواعي عما خفي عليه ، وبخاصة من تحول إلى الإسلام من أهل الكتاب ؛ فمنذ القديم كان علماء المسلمين يرون أن من دخل في الإسلام من أهل الكتاب صار مصدرا جديدا من المصادر لمعرفة ما في كتب الآخر وآرائه ، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه[1].

4/ منهجه في مناقشة اليهود ونقده لهم ولكتبهم:

كان ابن حزم في مناقشته لليهود يرمي إلى أمرين وهما:

- أن جمهور أهل الكتاب كانوا يرون أن التوراة التي بين أيديهم هي المنزّلة من عند الله على موسى عليه السلام، وأن موسى هو الذي كتبها وسلّمها إلى الأحبار من بني هارون ، ثم حفظت حتى وصلت إليهم فأراد ابن حزم إبطال هذا الإدعاء و إثبات الوضع والتحريف بأشكاله المختلفة لما في أيديهم.
- ثمة تلازم بين عقيدة كل قوم وكتابهم المقدس، فإذا ثبت بطلان الكتاب وتحريفه لزم من هذا فساد العقيدة التي تقوم عليه.

والمنهج الذي انتهجه في حواره مع أهل الكتاب ومجادلته لهم ما يلي:

[1]. توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي: 11-12.

النظر إلى النصوص من ذاتها و البحث عن مكامن التناقض والبطلان فيها وتضاده مع الواقع والمنطق الذي كشف عنه من داخل التوراة ذاتها ، فهو يحصي الاختلافات والفروق ، ويتتبعها بدقة، فإذا وجد خطأ كشفه ، ثم جعله دليلا على بطلان الكتاب وتحريفه ، واضعا نصب عينه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[1] .

وبهذا استطاع أن يبرهن لهم أن كتابهم المقدس التوراة يحمل بين طياته دليل هدمه وبطلانه . فهو نزيه في نقده يبحث عن أخطاء كتاب خصمه ، ولا يلتمس له الثغرات لينفذ إليه منها. فهو لا يناقش النصوص التي تحتمل وجهين أو أكثر ، وتختلف وجهات النظر في تأويلها، ويبتعد عن النصوص الغامضة، وإنّما يورد النصوص التي وضح فيها الخطأ أو ظهر التناقض بحيث لا يخفى على أحد، ولا يختلف فيه اثنان ، فتراه يتتبع الاختلافات بالشهور والأيام والأعداد .

فهو لا يترك شبهة إلاّ وعرضها وأجاب عنها ويذكر الوقائع الإسلامية التي يوهم ظاهرها تشابها مع موضع نقده ، ثم يزيل ما بها من لبس مبينا الفرق بينهما ، وعندما يتحدث عن الوقائع الواردة في توراتهم ، يذكر حديث القرآن عنها وتصحيحه لها ليظهر الفرق بين كلام الله تعالى وكلام غيره.

ويوضح مخالفة ما ورد في توراتهم للحقائق العلمية والوقائع التاريخية المقررة ، وبيّن أن جلّ ما فيها من تاريخ مؤلف، يضطرب كاتبه أو كتابه في عرضه ، فيقعون في أخطاء كثيرة، وجسيمة تخالف التاريخ وتجافي العقل، بالإضافة إلى النظر إلى العوامل التاريخية والظروف التي مرّت بها التوراة من وفاة موسى عليه السلام إلى أن فقدت نهائيا ، ثم جمعها وكتبها لهم عزرا

[1]. سورة النساء: 82.

الوراق : وهو يحدد بكل دقة من واقع كتابهم الأدوار التّي مرّ بها بنو إسرائيل، والردّات الشاملة التي داموا عليها مدد ا طويلة في بلد صغير ليس على دينهم وأتباع كتابهم غيرهم على ظهر الأرض.

وبعد أن يفرغ ابن حزم من نقد توراة اليهود بعرض بعض الكتب المنسوبة إلى الأنبياء وغيرها من الكتابات، فيؤكد تحريفها وبطلانها وعدم صحة نسبتها إلى من نسبت إليهم[1].

فهذه أهم سمات منهج ابن حزم في نقده للتوراة وتمحيصها، وعمدته ومصدره الرئيس في هذا القرآن الكريم في مواضيع التحريف والتبديل.

والواضح أن ابن حزم أثناء مجادلته اعتمد على مخزونه اللغوي والمعرفي، ولعل هذا كان تحدّيا لأهل الباطل والمشككين، وعلى اعتباره ظاهريا كان لا يميل إلى التقليد والقياس.

كما يلاحظ على ابن حزم أنه اعتمد على القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر القديم، وقد جاءت ألفاظه في حواره مع اليهودي متفاوتة في الشرح والتفسير وإبطال للأكاذيب والادعاءات ، فألفاظه وعبارته لا تخلو من أهميتها اللغوية، إذ يتضح من خلالها المبتغى الديني والفقهي والفلسفي واللغوي والأخلاقي وغير ذلك كثير ، فهو ذكيّ الفكر وقويّ الحجة له علم بالمنطق وجدله ، فهو يبدأ بذكر المقدمات ، ثم يبني عليها مناقشاته ؛ لديه ملكة النظر قويّة من حيث جملتها، أي بمعنى أنه يربط الأدلة مع بعضها البعض، وينظر إليها نظرة إجمالية من غير تناقض، وألفاظه سهلة بسيطة وواضحة ، فهو يبتعد كل البعد عن الغموض والتعقيد في مجادلاته، لكي لا يصبح هذا الغموض حجّة عليه فيما بعد، وهذا كله يعكس ثقافته الواسعة للغة وكل ما له صلة بها[2]. فابن حزم يعدّ من أنشط المفكرين المسلمين

[1]. توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي، عبد الوهاب عبد السلام الطويلة: 14-15.

[2]. رسائل ابن حزم الأندلسي ، إحسان عباس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1983، : 09/3.

عموما والأندلس خصوصا فهو الأديب واللغوي الذي لا يشق له غبار في الشّعر والنثر والفقه والمنطق والمؤرخ والدارس لأغوار النفس، فقد كان موسوعيا بعلمه ومعرفته.

5/ ترجمة ابن النغريلة[1]:

اسم ابن الغريلة عُرِف في دولة بني زيري بالأندلس، « وهذا الاسم إذا أطلق عنى أحد اثنين هما: صمويل بن يوسف (إسماعيل أو أشموال عند ابن حزم) المكنى بأبي إبراهيم، وابنه يوسف بن إسماعيل المكنى بأبي الحسن »[2]. ومن خلال استقرائنا للمؤلفات التاريخية، وجدناها تتضارب عمن ردّ ابن حزم؛ هل ردّ على الأب إسماعيل أم على الابن يوسف، غير أن أحد الباحثين[3] يرى أن صاحب الكتاب الذي ردّ عليه ابن حزم هو يوسف بن النغريلة (الابن)، معتمدا على جملة من الشواهد[4].

أمّا عن اللقب فاختلف في تحقيق اسم النغريلة [5]، وكيفية رسمه، « فسمّاه ابن حزم: أشموال بن يوسف اللاوي، المعروف بـ: ابن النغرال، ثمّ قال: ابن النغريلة، وذكره صاعد الأندلسي أبو إبراهيم بن إسماعيل بن يوسف المعروف بـ: ابن الغزال، وجعل الأمير عبد الله وابن الخطيب عائلته نغرالة، وجعلها ابن بسام النغريلي، وجعلها ابن سعيد نغرِلّة، وكتبها ابن

---

[1]. ممّا لا شكّ فيه أن هناك التباساً على من ردّ ابن حزم هل على إسماعيل (الأب) أم يوسف (الابن)، غير أن إحسان عباس رجّح القول بأن الردّ كان على يوسف الابن لا إسماعيل الأب، وحشد لذلك مجموعة من الاستنتاجات (المرجع نفسه: 08/3).

[2]. رسائل ابن حزم : 09/3.

[3]. هو إحسان عباس محقق نص الرسالة.

[4]. المرجع نفسه: 3/ 08 . 09.

[5]. الناغيد أو النغيد أو الناغد أو الناجد لقب خاص بالأمراء وقد منحه يهود قرطبة في عام 418هـ، ويعني بالعربية: المدبّر أو الأمير أو عميد القوم أو زعيم القبيلةأو القيّم على المعبد أو رئيس القصر (انظر: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، مريم قاسم طويل: 110)

عذاري نغزالة؛ وهي عند ابن خلدون نعزلة، وعند دوزي نغدالة، وعند آنخل بالينثيا: النغدلة»[1].

يعد الأب إسماعيل بن النغريلة من الطارئين على الأندلس، وقيل وُلد بماردة وقيل بقرطبة سنة 383هـ؛ درس إسماعيل (الأب) التلمود بقرطبة وتعلّم اللغة العربية وآدابها حتى أتقنها، دخل مالقة واستقر بها، وأقام حانوتا للعطارة بالقرب من قصر أبي القاسم ابن العريف وزير حبوس، وكان إلى جانب ذلك يقوم بكتابة الرسائل للذين يعملون في القصر، فأعجبت رسائله الوزير ابن العريف فقرّبه وعيّنه كاتبا ومستشارا، وعند وفاة الوزير ابن العريف نصح حبوس أن يتخذ إسماعيل وزيرا له، وكان ذلك حيث أصبح كاتبه وناصحه ومستشاره ووزيرا أولا للمملكة[2].

حمل إسماعيل ابنه يوسف على مطالعة الكتب وتعلم صنعة الكتابة، فجمع له المعلمين والأدباء وألحقه بخدمة بلقين بن باديس، حتّى تبوأ منصب الوزير الأول بعد وفاة أبيه[3]، يقول لسان الدّين بن الخطيب: « وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء من كلّ ناحية يعلمونه ويدرسونه وأعلقه بصناعة الكتابة ورشّحه لأول حركته، لكتابة ابن مخدومه بُلكين برتبة المترشح لمكانه تمهيدا لقواعد خدمته، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت أدناه باديس إليه، وأظهر الاغتباط به، والاستعاضة بخدمته عن أبيه»[4].

---

[1]. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، مريم قاسم طويل، مكتبة الوحدة العربية، دار الكتب العربية، بيروت، ط1، 1414هـ. 1994م: 109

[2]. المرجع نفسه: 111 (بتصرف)

[3]. الرّد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، ابن حزم الأندلسي: 12/3.

[4]. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين بن الخطيب: 1/ 439.

استغلّ يوسف هذا المنصب وسلّم بعض المناصب الهامة في الدولة بغرناطة لليهود وعلى رأسهم الشاعر ابن عزرا، وتمادى يوسف في سلطانه خاصة بعد قتله لبلكين بن باديس فانطوى باديس على نفسه وزهد في طلب البلاد، وفوّض أمر الدولة إلى يوسف، فسعى فيها هذا الأخير بما شاء أمرا ونهيا، وتحكم في مقاليد الحكم والسياسة، فتوسّع شأن اليهود وتسلطوا على المسلمين.

جعل هذا الوضع من يوسف الرجل القويّ في مملكة غرناطة، فدعته نفسه لأن يتطاول على القرآن ويسخر منه، وأقسم أن ينظم القرآن في موشحات يغنى بها، فقال:

نَقَشْتُ فِي الخَطِّ سَطْرًا مِـــنْ كِتَابِ اللهِ مَوْزُونُ

لَنْ تَـــنَالُوا البِـــرَّ حَتَّى تُـــنْـفِـقُـــوا مِمَـــا تُحِبُونَ [1]

فكان نتيجة لهذا الطغيان أن قتلته صنهاجة، بعد شيوع قصيدة شعرية لأبي إسحاق الألبيري، حرّض فيها صنهاجة على التخلص من اليهود ومن زعيمهم يوسف ابن النغريلة، جاء فيها:

وَإِنِّـــي احتَـلَلْتُ بِغَرنَـاطَةٍ فَكُـــــنتُ أَرَاهُمْ بِهَا عَابِثِينْ

وَقَـدْ قَسَّـمُوهَا وَأَعْـمَالَهَا فَمِنهُمْ بِكُـلِّ مَـكَانٍ لَـــعِينْ

وَهُمْ يَقْبِـــضُونَ جِبَايَاتِهَا وَهُمْ يَخْصِمُونَ وَهُمْ يَقْضِمونْ

وَهُمْ يَلبِسُونَ رَفِيعَ الكُسَا وأَنْـتُـمْ لِأَوْضَـعِـهَا لَابِسُونْ

وَهُمْ أُمَنَـاكُمْ عَلَى سِرِّكُمْ وَكَـيفَ يَـكُونُ خَؤُونٌ أَمِينْ ؟ [2]

فكانت سببا في إشعال ثورة عرفت بثورة الأتقياء.

---

[1]. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد: 2/ 114.

[2]. ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ. 1991م: 110

6/ سبب كتابة الرسالة التي ردّ فيها ابن حزم على ابن النغريلة اليهودي:

وجد اليهود في الأندلس في ظّل رحاب الإسلام ، منجاة لهم مما أصابهم من قهر واضطهاد على أيدي القوط إذ منحهم المسلمون سماحة وحريّة تامّة ، ومع مرور الزمن استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب هامة في الدولة، ولاسيما في القرن الخامس الهجري ، وكان في مقدمة الذين نالوا حظا وافرا إسماعيل بن النغريلة [1]؛ وهو من الطارئين على الأندلس لكنه استطاع بدهائه وحنكته أن ينال ثقة حكام المسلمين، ويحظى بإعجابهم حتى أصبح وزيرا للملك باديس بن حبوس يصرّف شؤون الدولة، ويشارك في دفة الحكم غير أنّه كان صاحب مطامع سياسية وعنصرية فكان يختار موظفيه من بني جلدته .

بعد وفاة إسماعيل بن النغريلة تولى المنصب ابنه يوسف ومع مرور الزمن نسي إكرام المسلمين لهم، فتطاول على الإسلام وشريعته وعقيدته، واشتد الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب فكثرت المناظرات والمحا دلات، وأخذت أشكالا جديدة من حيث السياسة والتغيّر الاجتماعي ؛ وزرع اليهود بذور الفتنة بين الحكام ، وعملوا على إيغار صدورهم ضد بعضهم ، واستهزؤوا بالإسلام.

فشهدت الأندلس في ذلك القرن ذروة الخلاف بين الأديان السماوية الثلاثة ، وكان اليهود والنصارى يدّعون أن ما عندهم هو الكتاب المقدّس الذي كان آخر ما أنزله الله على رسله ، وفيه آخر كلمة مرهم، وقامت معركة فكرية بين المسلمين واليهود ، تولى كبرها يوسف بن النغريلة فألف كتابا يطعن في الإسلام ويتطاول فيه على القرآن ؛ وفي خضم تلك الظروف وجد ابن حزم نفسه وجها لوجه أمام المجادلين والمتطاولين ، فلم يقف موقف المتفرج من تلك الأحداث بل شمّر لها وخاض غمارها . ولما كثرت المناظرات بينه وبين اليهود ، وأحسّ منهم الكذب والتقوّل على التوراة التي بين أيديهم ، رأى أن الإطلاع على كتبهم

[1]. توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي ، عبد الوهاب عبد السلام الطويلة: 05.

يقوّي موقفه، فقرأ الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام قراءة دقيقة وواعية، واطلع على الأسفار الأخرى، واقفا عند كل نص ليعرف معناه ويدرك مرماه، قال في معرض حديثه عن كذب اليهود ونسبتهم إلى توراتهم ما ليس منها: « وكم عرض لنا هذا مع علمائهم في مناظراتنا لهم قبل أن نقف على نصوص التوراة»[1].

ونتج عن هذا الاحتكاك والمحاورات الكثيرة والمناقشات مع اليهود والنصارى وغيرها كتب نفسية، كان في مقدمتها كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل و رسالة الرّد على ابن النغريلة اليهودي ، التي تعد من أهم الرسائل التي كتبها ابن حزم في محاورة ومجادلة اليهود ؛ وعن سبب كتابتها قال: « فلما اتصل بي أمر هذا اللعين ، لم أزل باحثا عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله عزّ وجلّ عليه من نصر دينه بلساني وفهمي، أو الذبّ عن ملذته ببياني وعلمي ... فأظفرني القدر بنسخة ردّ فيها عليه رجل من المسلمين، فانتسخت الفصول التي ذكرها ذلك الرّاد عن هذا الرذل الجاهل، وبادرت على بطلان ظنونه الفاسدة بحول الله تعالى وقوته ...»[2]؛ على أن ابن حزم ناظر الكثير من اليهود ومنهم الطبيب الإسرائيلي بن يونس ودعاه للإسلام، ودليل ذلك قوله رحمه الله:« ولقد ضربت بهذا الفصل وجوه المعترضين منهم للجدال في كلّ محفل» [3]. لكنّنا سنقتصر على دراسة وتحليل مضمون ردّ ابن حزم على ابن النغريلة، لنكتشف المدى الذي وصل الحوار بين ابن حزم كعالم مسلم وابن النغريلة كناغد يهودي.

7/ ردّ ابن حزم على ابن النغريلة اليهودي:

كتب ابن حزم رسالة طويلة ردّ فيها على مزاعم الوزير اليهوديّ ابن النغريلّة، بدأها ابن حزم بحمد الله ربّ العالمين والصّلاة على سيّدنا محمّد، وقبل أن يبدأ بمخاطبة ابن

[1]. المرجع السابق: 07.

[2]. الردّ على ابن النغريلة اليهودي: 46

[3]. الفصل في الملل والأهواء والنحل: 233/1.

النغريلة،شكا إلى الله حال حكّام المسلمين حوله لأ نه م مكّنوا اليهود وأهل الذمّة من المسلمين، بضعفهم وانشغالهم بالتّرف واللهو، فقال: « اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم، وعن حياطة ملتهم [بها] عزوا في عاجلتهم وبها يرجون الفوز في آجلتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة [1] والذمة، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء والحمية للملة الغراء، ثم هم متردون بما يؤول إليه إهمال هذا الحال من فساد سياستهم والقدح في رياستهم، فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاء أبواب، والله اعلم بالصواب »[2]، وأشار إلى أنّ فئة اليهود هذه قليلة العدد إلا أنّها عصابة خبيثة خطرة تكيد للمسلمين، ثمّ استدلّ ببيتين من الشّعر على خطورة الصّغير أحيانا، فقال: « وقد قال علي بن العباس:

لا تَحْقِرَنَّ سُبَيْباً كَمْ جَرَّ أَمْراً سُبَيْبُ[3]

[1]. ص: العلة.

[2]. رسالة في الرّدّ على ابن النغريلة، ابن حزم: 41/3.

[3]. ديوان ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح، تح: حسين نصار، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط3، 2003م: 146

وقال أبو نصر ابن نباتة:

فَلَا تَحْقِرَنَّ عَدُوًّا رَمَـــاكَ وَإِنْ كَانَ فِي سَاعِدَيْهِ قِصَرْ

فَإِنَّ السُيُوفَ تَجِذُّ [1] الرِّقَابَ وَتَعْـــجَزُ عَمَّا تَنَالُ الإِبَرْ [2]

لاسيما إن كان العدوّ من عصابة لا تحسن إلا الخبث مع مهانة الظاهر فيأنس المغتر إلى الضعف البادي، وتحت ذلك الختل والكيد والمكر، كاليهود الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل [3] ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة وإنما شأنهم [4] الغش والتخابث والسرقة، على التطاول والخضوع، مع شدّة العداوة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﷺ »[5].

ثمّ أبدى رأيه في ابن النغريلّة، فقال:« وبعد فإن بعض من تقلى قلبه [6] للعداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه الرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله على المرتسمين بها، واستقر غضبه عز وجل [على] المنتمين إليها، أطلق الأشر لسانه، وأرخى البطر عنانه، واستشمخت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر [7] الذهب والفضة عنده همته الحقيرة، فألف كتاباً

---

[1]. ربما تجزّ لأنها أقرب للصواب.

[2]. أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة السعدي (317 – 405) من مقدمي شعراء عصره؛ انظر ترجمته في اليتيمة: 2/ 380 وابن خلكان: 3/ 190 وتاريخ بغداد: 10/ 466؛ وقد نشر ديوانه (بغداد 1977) بتحقيق عبد الأمير الطائي والبيتان فيه (703/2) وفي اليتيمة: 2/ 395 ، والإعجاز والإيجاز: 235 وحماسة الظرفاء: 201 ونهاية الأرب: 3/ 108.

[3]. الحيل: كذا، ولعله: الحول.

[4]. ص: ياتهم.

[5]. رسالة في الرّدّ على ابن النّغريلّة اليهوديّ: 41 – 42 .

[6]. ص: فعلى ولبه.

[7]. ص: نوافر.

قصد فيه، بزعمه، إلى إبانة تناقض كلام الله عزّ وجل في القرآن اغتراراً [1] بالله أولاً، ثم بملك ضعفة[2] ثانياً، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً، ثم بأهل الرياسة في مجانة[3] عوداً»[4].

على أننا يجب أن نشير إلى أنه كانت فترة زمنية معتبرة بين كتابة ابن النغريلة لرسالته وكتابة ابن حزم ردّه عليها، بدليل أن أحد المسلمين ردّ عليها قبل ابن حزم؛ ولكن لم تحفظ لنا كتب التاريخ اسم هذا المسلم، ي قول:« فأظفرني القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين، فانتسخت الفصول التي ذكرها ذلك الراد عن هذا الرذل الجاهل، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة بحول الله تعالى وقوته؛ ولعمري عن اعتراضه الذي اعترض به ليدل على ضيق باعه في العلم، وقلة اتساعه في الفهم على ما عهدناه عليه قديماً، فإننا ندريه عارياً إلا من المخرقة، سليماً إلا من الكذب، صفراً إلا من البهت؛ وهذه عقوبة الله تعالى المعجلة لمن سلك مسلك هذا الزنديق اللعين مقدمة، أما ما أعد الله له ولأمثاله من الخلود في نار جهنم [فهو] المقر لعيون أولياء الله عز وجل فيه وفي ضربائه، وبالله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[5].

بلغ مسامع ابن حزم تطاول ابن النغريلة واستخفافه بالدّين الإسلامي، فبذل جهدا في البحث عنها ولكن تعذّر عليه ذلك واكتفى بالاعتماد على ردّ أحد المسلمين عليها؛ فقال: «فلما اتصل بي أمر هذا اللعين لم أزل باحثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله عزّ وجلّ عليه من نصر دينه بلساني وفهمي، والذبّ عن ملته ببياني وعلمي، إذ قد

---

[1]. ص: اعتزازاً.

[2]. ص: يملك ضعفه.

[3]. ص: مكانة.

[4]. رسالة في الرّدّ على ابن النّغرِيلّة اليهوديّ: 42

[5]. المصدر نفسه: 42

عدمها، والمشكى إلى الله عزّ وجلّ ووجود الأعوان والأنصار على توفية هذا الخسيس الزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المكفن بتابوت اليهودية في ظاهره، حقه الواجب عليه من سفك الدماء واستيفاء ماله وسبي نسائه وولده، لتقدمه طوره وخلعه الصغار عن عنقه، وبراءته من الذمة الحاقنة [1] دمه، المانعة من ماله وأهله، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل»[2].

وكان اليهودي ذكر مجموعة من الشبهات سمّاها ابن حزم اعتراضات، يزعم فيها بتناقض آيات القرآن الكريم بعضها مع بعض، فردّ ابن حزم عليها رداً علميا داحضا جميع شبهات اليهودي منطقيا وعقليا.

ولم يتوقف ابن حزم عند ذلك فقط ، بل أورد مجموعة المعتقدات اليهودية ، وبيّن فيها أوجه الفساد، حيث أنه ينتقد التوراة والأخبار الواردة فيها على نمط وطريقة ابن النغريلة في نقده للقرآن، حيث حرص ابن حزم على مشاكلة منهج ابن النغريلة وذلك بجمع مختلف الأخبار والمرويات في نصوص التوراة التي يناقض بعضها بعضا بشكل لا يستطيع ابن النغريلة دفعه.

وسنحاول فيما يلي عرض اعتراضات ابن النغريلة ورد ابن حزم عليها.

❖ الاعتراض الأول:

كان أول ما اعترض به هذا اليهودي على القرآن، أن ذكر قوله ﷻ: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ ﴾[3]، فأنكر في هذه الآية تقسيم القائلين بأن ما أصابهم من حسنة فمن الله، وما أصابهم من

[1]. ص: الخافتة

[2]. رسالة في الرّدّ على ابن النّغريلّة اليهوديّ: 42

[3]. سورة النساء: 78.

سيئة فمن محمد، وأخبر أن كل ذلك من عند الله؛ ثم قال في آخر هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1]؛ قال هذا الزنديق الجاهل: فعاد مصوِّباً لقولهم ومضاداً لما قدّم في أول الآية.

فردّ عليه ابن حزم بقوله: « وكلّ ذلك من عند الله تعالى جملة، فأحد الوجهين وهو الحسنات فضل من الله تعالى مجرد ، لم يستحقه أحد على الله تعالى إلاّ حتى يفضل به عزّ وجلّ من أحسن إليه من عباده، والوجه الثاني: وهو السيئات من الله تعالى أوجبه على المصاب بها تقصيره عما يلزمه من واجبات ربه تعالى»[2].

فالكفار كانوا يقولون إن الحسنات الواصلة إليهم هي من عند الله ﷻ ، وأن السيئات المصيبة لهم في دنياهم هي من عند محمد ﷺ ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، وبيّن وجه ورود حسنات الدنيا وسيئاتها على كل من فيها، بأن الحسنات السارة هي من عند الله بفضله ومنّه على النّاس، وأن كل سيئة يصيب الله تعالى بها إنسانا في دنياه فمن قبل نفس المصاب بها بما يجني على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى الذي لا يقوم به أحد، وكل ذلك من عند جملة، وهي العقيدة التي يؤمن أغلب المسلمين.

ويبيّن أن الآية الكريمة إنما أنكر الله تعالى على الكفار في الآية المتلوّة قولهم للنبي ﷺ: إنّ ما أصابهم

من سيئة فهي منك يا محمد، وأخبرهم عزّ وجلّ أنها من عند أنفسهم، وأن كل ذلك من عند الله تعالى. فلم يفرق اليهودي بين ما أوجبه الله تعالى من أن كل من أصابته سيئة فمن نفسه، وبين ما ذكر الله تعالى من قول الكفار للنبي ﷺ: إن ما أصابهم من سيئة فمنك يا محمد! فأي ظلم يكون أعظم من ظلم من جهل أن يفرق بين معنى هذين اللفظين؟![3].

---

[1]. سورة النساء: 79.

[2]. رسالة ابن حزم في الرّد على ابن النغريلة : 48

[3]. المصدر نفسه: 48

– إثبات التناقض والتحريف في توراة اليهود:

لم يقتصر جهد ابن حزم على إزالة الالتباس الذي زعمه ابن النغريلة بين الآيتين بل تعدى ذلك إلى إثبات التناقض في الكتاب الذي يدّعون أنه التوراة ، إذ يقول في السفر الرابع عن موسى عليه السلام أنه قال مخاطبا المولى عز وجل:« الرّب وديع ذو حن عظيم، يعفو عن الذنب والسيئة، وليس ينسى شيئا من المآثم، الذي يعاقب بذنب الوالد، الولد في الدرجة الثانية والرابعة» ويقرأون أيضا في أول السفر الأول:« إنّ قاين ابن آدم عاقبه الله في السابع من ولده»[1]. وقد ورد في توراتهم الحالية بخصوص هذا« إنّ الله تبارك وتعالى قال لموسى: لا تقتل الآباء لأجل الأبناء، ولا الأبناء لأجل الآباء، ألا كل واحد يقتل بذنبه»[2].

فلو تفكّر هذا اليهودي بعظيم التناقض عنده لشغله عظيم مصابه عن أن يظنّ بقول الله تعالى الذي هو الحق الواضح غير المختلف :﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾[3]؛ وعليه لا تناقض في القرآن الكريم ، إنّما التناقض المحض ما نسبوا إلى موسى عليه السلام من أنّه طلب من ربّه أن يغفر الذنب لفاعله، ويعاقب بذلك الذنب من كان من ولد المُذنب في الدرجة الرابعة ، ثم يقول في مكان آخر: أن لا تقتل الأبناء لأجل الآباء، ولا الآباء لأجل الأبناء، هذا مع إقرارهم بأنه ليس في التوراة ذكر عذاب ولا جزاء بعد الموت أصلا، وإنما فيها الجزاء بالثواب والعقاب في الدنيا فقط، فهذا هو التناقض المجرد الذي لا خفاء به[4].

---

[1]. المصدر السابق: 50

[2]. المصدر نفسه: 50

[3]. سورة النساء: 78 . 79.

[4]. الرّد على ابن النغريلة: 51.

❖ **الاعتراض الثاني:**

وكان مما اعترض به أيضا أن ذكر قول الله ﷻ:﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ ﴾[1] .. قال: فذكر في هذه الآية أن دَحْوَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها كان بعد رفع سمك[2] السماء وبعد بنائها وتسويتها وإحجام ليلها ونهارها، ثم قال في آية أخرى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩ ﴾[3]. قال ابن النغريلة: فذكر في هذه الآية ضد ما في الأولى، وذلك أن التسوية للسماء كانت بعد خلق ما في الأرض.

ردّ ابن حزم على تأويل اليهودي بقوله: « والقول في هذا كالقول في التي قبلها ولا فرق، وهو أن بظاهر هاتين الآيتين يُكتفى عن تطلب تأويل أو تكلّف مخرج، وهو أنه تعالى ذكر في الآية أولاً أنه ﷻ بنى السماء ورفع سمكها ، وأحكم الدور الذي به يظهر الليل والنهار، وأنه بعد ذلك أخرج ماء الأرض ومرعاها، وأرسى الجبال فيها. وذكر تعالى في الآية الأخرى أن تسويته تعالى السّموات سبعا وتفريقه بين تلك الطوائف السبع التي هي مدار الكواكب المتحيّرة والقمر والشمس كان بعد خلقه كل ما في الأرض، فلم يفرق هذا اليهودي بين قوله

---

[1]. سورة النازعات: 27 . 32.

[2]. سمك السماء: عن ابن عباس، قوله: (رَفَعَ سَمْكَهَا) يقول: بُنيانها. (تفسير الطبري . جامع البيان عن تأويل آي القرآن . ، أبو جعفر عبد الله محمد بن جرير الطبريّ، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، جيزة، ط1، 1422هـ . 2001م: 89).

[3]. سورة البقرة: 29.

ﷻ: إنه سوى السماء ورفع سمكها، وبين قوله ﷻ: إنه سواهن سبع سموات، وإنما أخبر تعالى أن تسوية السماء جملة واختراعها كان قبل دحو الأرض، وأن دحوه الأرض كان قبل أن تقسّم السّماء على طرائق الكواكب السبع، فلاح أن الآيتين متفقتان، يصدق بعضهما بعضا»[1].

- **إثبات التناقض والتحريف في التوراة:**

يذكر ابن حزم اليهودي بما عندهم في التوراة من التناقض فيقول: «ليذكر هذا الجاهل على ما يفتتحون به كذبهم المفترى وبهتانهم المختلق الذي يسمونه (التوراة) ، إذ يفترون أن الله ﷻ خلق إنسانا مثله ولم يكن انفرد عنه تعالى إلاّ بشيئين : علم الشر والخير، ودوام الخلود والحياة. وأن آدم عليه السلام أكل من الشجرة التي فيها علم الخير والشر، فلما خالفه عظم ذلك عليه؛ قال: هذا آدم أكل من الشجرة التي بها يكون علم الخير والشر فسوانا في ذلك، فإن أكل من شجرة الحياة حصل له الخلد فكان مثلنا لا فضل لنا عليه، فجعل يخرجه من الجنّة وفي يده سيف يذود به عن شجرة الحياة، حتّى إن جماعة منهم قالوا: إن الخالق لآدم كان إنسانا من نوع الإنس الذي نحن منه، حصل على أكل شجرة الحياة فزاد بهاؤه وحصل له الخلد.[2]

❖ **الاعتراض الثالث:**

ومما اعترض به ابن النغريلة أنه ذكر قول الله ﷻ: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾[3] إلى منتهى قوله في الآية نفسها: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ

[1]. الرد على ابن النغريلة: 52.

[2]. المصدر نفسه: 52.

[3]. سورة فصلت: 09.

أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1]. قال: فذكر في هذه الآية خلق الأرض في يومينن وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، فهذه ستة أيام، ثم ذكر قوله ﷻ:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[2] إلى منتهى قوله ﷻ:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3].

قال ابن حزم: « والقول في هذه الآية كالقول في التي مضى فيها الكلام ولا فرق، وهي أنها تكتفي بظاهرها عن تكلف تأويل لها، وأنه لا يظنّ في شيء من هذا كله اختلافا إلاّ عديم العقل سليب التمييز، لأنه تعالى إنما ذكر خلق الجميع من السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فسّر لنا ﷻ تلك الأيّام الستّة، فمنها يومان خلق فيهما الأرض، ومنها أربعة أيام قدّر في الأرض أقواتها، وأنه تعالى قضى السّموات سبعا في يومين، وقد صحّ بما تلونا قبل أن تسويته تعالى السموات سبعا كان بعد خلقه لما في الأرض جميعا، فاليومان اللذان خلق الله تعالى فيهما السموات سبعا هما اليومان الآخران من الأربعة الأيام التي قدّر فيها أقوات الأرض، لأن التقدير هو غير الخلق، فالخلق هو الاختراع والإبداع وإخراج الشيء من ليس إلى أيس؛ بمعنى من لا شيء إلى أنه يكون شيئا موجودا، وأما التقدير فهو الترتيب وإحكام الأشياء الموجودات بعد إيجادها، وهذه معان لا يعلمها إلاّ من أعزّ الله تعالى نفسه من ذوي الهمم الرفيعة، المعايش القاصدة إلى طلب المعاني الفاضلة والحقائق المؤدية إلى معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ﷺ.

– إثبات التناقض والتحريف في التوراة:

يذكّر ابن حزم ذلك اليهودي بما في كتابهم الذي يسمونه (التوراة) قائلا: ليت هذا اليهودي الذي اعترض بهذا الاعتراض على هذه الأنوار الساطعة والحقائق الظاهرة انشغل في

[1]. سورة فصلت: 10.
[2]. سورة فصلت: 11.
[3]. سورة ق : 38.

التفكير فيما يقرؤونه من هذيانهم المخترع، وزورهم المفتعل الذي يسمونه (التوراة)، إذ يقولون: إن الله تعالى خلق الخلق في ستّة أيام ، واستراح في اليوم السابع؟ فهل تكون الراحة إلاّ لتعب ونصب قد خارت قواه وضعفت طبيعته؟»[1].

وفي نسبة التعب إلى الله تعالى تشبيهًا بمخلوقاته وإضافة صفات النقص له، والمولى تبارك وتعالى منزه عن أي صفة من صفات النقص.

❖ الاعتراض الرابع:

ذكر ابن النغريلة قوله ﷻ: ﴿ هَـٰذَا وَلَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2]، وقوله ﷻ: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[3]، فيه تناقض عظيم، فعن يوم البعث تتحدّث الآيات ، مرّة نجدها تقول . لا ينطقون . ومرة أخرى تقول . تأتي كلّ نفس تجادل عن نفسها .

ردّ ابن حزم على هذا الافتراء أن المنع من النطق المذكور في الآية إنّما هو في بعض مواقف يوم القيّامة، وإن الجدال المذكور في الآية الأخرى هي موقف آخر يتلو ذلك اليوم نفسه، وهذا قول صحيح ، يبيّنه المولى تبارك وتعالى قبل الآية المذكورة، إذ يقول: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4]، هكذا نصّ الآيات متتابعات لا فصل بينها، فيصح أن اليوم الذي لا ينطقون فيه بعذر إنما هو يوم

---

[1]. الرّدّ على ابن النغريلة: 54

[2]. سورة المرسلات: 36.

[3]. سورة النحل : 111.

[4]. سورة المرسلات: 36.

إدخالهم النار ، وهو أول اليوم التالي ليوم القيامة الذي هو يوم الحساب، وهو أيضا يوم جدال كل نفس عن نفسها، وهذا بيان لا إشكال فيه أصلا، وها هنا وجه آخر وهو إتباع ظاهر الآيتين دون تكلف تأويل، إلاّ أن يأتي بالتأويل نص آخر أو إجماع، إن هاتين الآيتين بيّنتان، لا اختلاف بينهما أصلا، وإن النطق المنفي عنهم في الآية الأولى والمعذرة التي لم يؤذن لهم فيها إنما ذلك فيما عصوا فيه خالقهم. تعالى. كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [1]، فلا عذر لكافر ولا لعاص أصلا ولا كلام له، وأما الجدال الذي ذكر الله تعالى حينئذ عن نفسها ، فإنّما هو في طلب الناس مظالمهم بعضهم من بعض، فإن الله تعالى لا يضيع شيئا من ذلك على ما صحّ عن النبي ﷺ (من أن في يوم القيامة يقص الشاة الجماء من الشاة القرناء) [2].

وبيان ذلك أن المعذرة إنّما هي إلى الله تعالى ولا عذر يوم القيّامة لمن كفر بالله تعالى أو بنبي من أنبيائه وخالف

❖ الاعتراض الخامس:

يقول ابن حزم رحمه الله: « ذكر هذا الجاهل قوله ﷻ:﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ ﴾[3]، ثمّ قال في آية أخرى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ﴿٦﴾ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[4]، قال: وهذا تناقض؛ أي مرة لا يسأل عن ذنبه يوم القيامة وفي الآية الأخرى سيسأل الجميع.

---

[1]. سورة يس : 65.

[2]. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، تحريم الظلم، حديث 2581، 4/ 1997.

[3]. سورة الرحمن: 39.

[4]. سورة الأعراف: 06.

تفسير ابن حزم: قال رحمه الله: لو فهم هذا المائق الجاهل أدنى فهم لم يجعل هذا تعارضا. أما قوله ﷻ:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1] فإن ما بعد هذه الآية متصلا بها قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [2]؛ فصحّ بهذا النّص أن هذا إنّما هو في حين إيرادهم جهنّم التي هي إن شاء الله دار هذا الخسيس ذي الظهارة اليهودية والبطانة الدهرية، ولا ريب في أنه إذا أخذ بناصيته وقدميه ليهوى بها في نار جهنّم، فإنه لا يسأل عن دينه يومئذ ، وأما قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [3]، فإنما ذلك في أول وقوفهم يوم البعث وحين المسألة والحساب فارتفع التناقض الذي لا مدخل له في شيء من القرآن ولا في كلام النبي ﷺ [4]».

– **إثبات التناقض والتحريف في التوراة:**

قال ابن حزم: « لكن هذا الوقاح المجنون لو تدبّر ما في كذبهم المفترى الذي يسمونه (التوراة) في السفر الثاني منه أن الله تعالى قال لموسى بن عمران: إنّي أرى هذه الأمة قاسية الرقاب، دعني لأعقب غضبي عليهم لأهلكهم وأقدمك على أمة عظيمة. ثم ذكروا أن موسى عليه السلام دعا ربّه تعالى وقال في دعائه: تذكر إبراهيم وإسرائيل وإسحاق عبيدك الذين

[1]. سورة الرحمن: 39.

[2]. سورة الرحمن: 40 . 45.

[3]. سورة الأعراف: 06.

[4]. الرّدّ على ابن النغريلة: 57.

حلفت لهم بذلك وقلت لهم سأكثر ذريتكم حتى تكونوا كنجوم السماء، وأورثهم جميع الأرض التي وعدتهم بها ويملكونها أبداً، فحنّ السيّد ولم يتم ما أراد إنزاله بأمته من المكروه.

قال أبو محمد: هذا نص هذا الفصل عندهم. وهذه صفة لا يوصف بها الإنسان ضعيف النفس، وفيه البداء، وأنه تعالى لم يتم ما أراد أن يفعل، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا»[1].

ربط ابن حزم في تشكيك ابن النغريلة في تناقض آيات القرآن الكريم التي تصف يوم القيامة، وبيّن ما نسب لله ﷻ مما لا يمكن نسبه حتى إلى إنسان تافه، فضلا عن ربّ قادر مقتدر، وهو البداء أي يتخذ موقفا ثم يعود عنه.

❖ الاعتراض السادس:

يقول ابن حزم: « ثم ذكر هذا الجاهل قول الله تعالى مخاطبا نبيّه ﷺ:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[2]. قال هذا الجاهل: فهذا محمد كان في شك مما ادعاه.

ردّ ابن حزم على ابن النغريلة بقوله: « كان يلزم هذا الجاهل أن لا يتكلم في لغة لا يحسنها، ولكن أبى الله تعالى إلاّ أن يكشف سوءته ويبدي عورته. وليعلم أن (إنّ) في هذه الآية ليست التي بمعنى الشرط، لأن من المحال العظيم الذي لا يتمثل في فهم من له مسكة أن يكون إنسان يدعو إلى دين يقاتل عليه ، وينازع فيه أهل الأرض ويدين به أهل البلاد العظيمة، ثم يقول لهم: إنّي في شكٍ مما أقاتلكم عليه أيّها المخالفون ولست على يقين مما أدعوكم إليه وأحققه لكم أيها التابعون .. إلى مثل هذا السخف الذي لا يتصور إلاّ في مثل دماغ هذا المجنون الجاهل.

---

[1]. المصدر السابق: 58

[2]. سورة يونس : 94.

وإنّما معنى (إن) ها هنا الجحد، فهي هنا بمعنى (ما) وهذا المعنى هو أحد موضوعاتها في اللغة العربية، كما قال تعالى آمرا نبيّه ﷺ أن يقول: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ [1] بمعنى: ما أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون ، كما ذكر الله ﷻ عن الأنبياء أنهم قالوا: ﴿ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [2] ، وكما قال ﷻ مخبرا عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام فقلن: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ ﴾ [3] بمعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وكما قال تعالى: ﴿ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾ [4] أي ما كنّا فاعلين؛ فعلى هذا المعنى خاطب نبيه عليه السلام: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، ثمّ قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ ﴾ [5]. بمعنى: ولا أعداؤك الذين يقاتلونك من الذين أوتوا الكتاب من قبلك ما هم أيضا في شك مما أنزلنا إليك، بل هم موقنون بصحة قولك وأنك نبيٌ حق رسول ﷺ لا شك عندهم في أن الذي جاءك الحق؛ ومثل هذا أيضا قوله ﷻ:﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦ ﴾ [6] ، تهوينا له، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١ ﴾ [7]، بمعنى ما

---

[1]. سورة الأعراف: 188.

[2]. سورة إبراهيم: 11.

[3]. سورة يوسف: 31.

[4]. سورة الأنبياء: 17.

[5]. سورة يونس: 94.

[6]. سورة إبراهيم: 46.

[7]. سورة الزخرف : 81.

كان للرحمن ولد فأنا أول الجاحدين لا يكون له ولد، فوضح جهل هذا المعترض وضعف تمييزه»[1].

- **إثبات التناقض والتحريف في التوراة:**

قال ابن حزم:« لو أن هذا الجاهل تدبّر ما في باطلهم المبتدع وهجرهم الموضوع الذي يسمونه (توراة) إذ يقول: إن موسى عليه السلام راجع ربّه إذ أراد إرساله وقال: من أنا حتى أمضي إلى فرعون أرسل من تريد أن ترسل، وأغضب ربّه بذلك . وهذا محال من نبي من أنبياء الله الذين اصطفاهم على العالمين، والذي لم يعلق عليه ابن النغريلة.

❖ **الاعتراض السابع:**

قال ابن حزم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2] في وصف العسل: إنّ فيه شفاء للنّاس. فقال ابن النغريلة: وكيف هذا وهو يؤذي المحمومين وأصحاب الصفراء المحترقة؟

ردّ ابن حزم بقوله:« لو كان مع هذا الجاهل أقل معرفة بطبائع الإنسان أو فهم في مخارج اللغة العربية لم يأت بهذا، أما اللغة فإن الله تعالى لم يقل: العسل شفاء لكل علّة. وإنما قال تعالى: فيه شفاء للناس، وهذا لا ينكره إلاّ سليب العقل والحياء، لأن منافع العسل وشفاؤه في إسخان المبرودين ، وتقطيع البلغم، وتقوية الأعضاء، حتى صار لا يطبخ أكثر الأشربة إلاّ به، ولا يعجن جميع اللعوقات إلاّ به، وما وصف (جالينوس وبقراط) وهما عميدا الطب طبخ شيء من الأشربة إلاّ به جملة، وما ذكرا قط أن يطبخ شراب بسكر ، وكيف ينكر هذا الأنوك أن يكون العسل شفاء محضا ، فكيف أن يكون به شفاء!»[3].

---

[1]. الردّ على ابن النغريلة: 61.

[2]. سورة النحل: 69.

[3]. الرّدّ على ابن النغريلة: 62.

ومن خلال استعراض ردود ابن حزم يلاحظ الباحث سعة علم وثقافة هذا العالم الجليل سواءً العلمية أو اللغوية أو الطبية، وما استدلاله بعميد أهل الطب جالينوس وبقراط لإفحام الخصم وكذلك إلزامه لنفسه بمنهج ثابت في ردوده على هذه الشبهات لهو دليل على ذلك.

- **إثبات التناقض والتحريف في التوراة:**

نقد ابن حزم خصمه في هذه المسألة من خلال ما يؤمن به فقال:«وهم يصفون عن نبي من أنبيائهم أنه شفى أكلةً في عضو إنسان بتين مدقوق وجعله عليه .. فإذا كان في التّين شفاء من بعض العلل، فكيف ينكر هذا اليهودي أن يكون في العسل أشفية كثيرة؟ وقد وجدنا في اختلاطهم الذي يسمونه (توراة) عن الله تعالى في عدّة مواضع أنه إذا بلغ الغاية في مدح أرض القدس التي وعدهم بها قال: إلاّ أنها أرض تنبع عسلا ولبنا، ووعدهم فيها بأكل عسل الصخور. أفترى إذ ليس في العسل شفاء أصلا، إنّما وعدهم تعالى بما فيه الداء والبلاء لا بما فيه الشفاء، هذا مع إنكار العيان وجحد الضرورات في منافع العسل»[1].

❖ **الاعتراض الثامن:**

زعم ابن النغريلة أن الماء ليس مباركا دائما ففي قوله ﷻ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا ﴾[2]، قال كيف يكون مباركا وهو يهدم البناء ويهلك كثيرا من الحيوان؟

ردّ ابن حزم على هذا الافتراء بقوله:« أما درى هذا الجاهل أنه لولا شرب الماء لم يكن في الأرض حيوان أصلا لا إنسان ولا ما سواه؟ وأن عناصر جميع المياه الظاهرة على وجه الأرض والمختزنة في أعماقها إنما هي من مواد القطر النازل من السماء؟ أما رأى هذا الجاهل أن الأمطار إذا كثرت غزرت العيون وفهقت الأنهار وطفحت البرك وامتلأت الآبار، وسالت

[1]. المصدر السابق: 63.

[2]. سورة ق: 09.

السيول وتفجرت في الأرض الينابيع؟ حتى إذا قلّت الأمطار وضعفت العيون ونقصت الأنهار وخفت البرك والآبار وانقطعت السيول وغارت الينابيع، خشنت الصدور وفسد الهواء؟ ! أما رأى أنّه لا نماء لشيء من النبات كلّه منزرعة وصحراوية وجميع الشّجر بساتينها وشعرائها إلاّ بالماء النّازل من السماء ؟ !

لقد سخّر الله كل ما في الكون لمنفعة الإنسان وخدمته ولكن أيّ نعمة من هذه النعم يمكن أن يقلبها الله لتصبح نقمة وتكون جندي من جنود الله يسخرها لإهلاك الإنسان أو لتأديبه، ومن ذلك الأمطار والريّاح والبحار والحيوانات الأليفة، فكل هذه وأخرى ما هي إلاّ جنود تأتمر بأمر الله ﷻ، فماء السّماء الطاهر المبارك في نفسه، حيث أن أهميته وفوائده لا تعد ولا تحصى وهو لا غنى عنه لحياة الإنسان والحيوان والنبات هذا لا يمنع أن يسخره الله في الإهلاك بالفيضانات وكذلك البحار التي تمدنا بالأسماك واللؤلؤ وتسهل المواصلات ربما يسخره الله في الإغراق كما حصل مع فرعون، ومن هنا فلا تعارض مع الآية أن ماء السّماء مبارك دائما ، ولكن قد يحوله الله إلى نقم وكل ما في الكون يسير بإرادة الله.

❖ إثبات التناقض والتحريف في التوراة:

واجه ابن حزم خصمه بدليل من توراتهم المحرّفة، فقال:« أما قرأ في هذيانهم الذي يسمونه (توراة) امتنان الله تعالى في صفة الأرض المقدسة بأنها لا تسقى من النيل كما تسقى مصر، لكن من ماء السماء؟ ! أتراه إنّما منّ عليهم بضد البركة لا بالبركة؟ ! إنّ هذا لعجب ! أما علم أن الأمطار ترطب الأجسام، وأن بالماء الذي عنصره ماء السماء تزال الأوساخ وتطيب الروائح، ولولاه ما عمر العالم ؟ ! فحسبكم أيّها الناس بمقدار هذا الخسيس وجهله وهو عميد اليهود وعالمهم وكبيرهم[1].

[1]. الردّ على ابن النغريلة:64.

أما الجزء الثاني من الرسالة فقد عالجه ابن حزم بطريقة مختلفة، فقد خصّه لإبطال معتقدات اليهود، وبيان أوجه الفساد في أخبارهم ونصوصهم، ولم نعرض له لأنه لم يكن في إطار الحوار مع ابن النغريلة، وإنّما في أمور عامة لم يثبت أن اليهودي أثارها، وهي:

. حديثه عن اعتقاد اليهود أن الملائكة لا تتكلم إلاّ بالعبرانية.

. حديثه عن نسبة اليهود الزنا إلى الأنبياء عليهم السلام.

. حديثه عن واقعة يوسف عليه السلام مع إخوته وأبيه يعقوب عليه السلام.

. حديثه عن مفهوم النكاح عند اليهود وطريق السلالة النبوية.

. حديثه عن اعتقاد اليهود بأن السحرة فعلوا بسحرهم مثل ما فعل موسى من معجزات.

. حديثه عن اعتقاد اليهود بأن فرعون له صنم يطلعه على أخبار بني إسرائيل.

. حديثه عن نسبة اليهود جريمة عبادة العجل إلى هارون عليه السلام.

. حديثه عن نسبة اليهود بعض الروايات الشنيعة إلى الله تعالى.

. حديثه عن تشبيه اليهود الخالق بالمخلوق.

هذه خلاصة رسالة ابن حزم في حواره مع ابن النغريلة، والملاحظ أن هناك طريقان سلكهما ابن حزم في ذلك، الطريقة الأولى: نقض وإبطال عقائد اليهود عقب مناقشة كل اعتراض لابن النغريلة مباشرة، والطريقة الثانية: تخصيص الجزء الثاني لنقض بعض عقائد اليهود.

8/ أهمّ سمات رسالة ابن حزم في الرّدّ على ابن النغريلة:

الرّسالة طويلة، فيها أربع وستون فقرة، وتنقسم الرسالة على قسمين:

الأوّل منهما عرض فيه المزاعم التي أثارها ابن النغريلة وردّ ابن حزم عليها مزعما مزعما، وهذه عبارة عن ثلاث وثلاثين فقرة ، الأولى وتقع في ثمانية فصول .كما سماها ابن حزم . ولا يكتفي ابن حزم بالرّدّ فحسب، بل ينتقد بعض المسائل التي وردت في التوراة كأّنه يريد أن يقول لليهودي: قبل أن تفتري على القرآن، انظر في توراتك المحرّفة وما بها من سخافات.

وناقش ابن حزم في القسم الثاني بعضا مما يسميه " الطّوام" التي وردت في كتب اليهود، وهو الجانب الذي توسّع في الحديث عنه كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، واعتذر ابن حزم في ختام الرّسالة عن إيراد شُنع اليهود، بقوله: « قد أوردنا في هذا الكتاب من شُنعهم أشياء تقشعر منها الجلود، ولولا أنّ الله تعالى نصّ علينا من كفرهم ما نصّ .... لما استجزنا ذكر ما يقولون لشُنَعتِهِ وفطاعته. ولكنّنا اقتدينا بكتاب الله ﷻ في بيان كفرهم، والتحذير منهم ». فكانت حجّته أنّ الله تعالى قصّ علينا شيئا من كفرهم، فاقتدى هو بكتاب الله في ذكر مزاعمهم.

يلاحظ على الرّسالة أسلوب المجادلة والحوار، وقد يكون ابن حزم بهذا متأثرًا بأسلوب القرآن في المحاورة، فجاء بمزاعم اليهود وردّ عليها مركزا على التّناقض في أقوالهم، فذكر من عجائبهم: « قولهم في السّفر الثاني من كتابهم (ثمّ صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون رجلاً من المشايخ، ونظروا إلى إله إسرائيل وتحت رجله كلبه زمرّدي فيروزي) [1] . وفي بعض الفصول أنّ موسى ﷺ قال أو يعقوب: (رأيت الله مواجهة وسلّمت نفسي)[2]، مع

---

[1]. سفر الخروج 9/24-10، يلاحظ أنّ الترجمة تختلف عن الترجمة التي بين أيدينا اليوم، ففيها : "ثمّ صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشّفاف". (نقلا من الرّدّ على ابن النغريلة: 70)

[2]. التّوراة، سفر الخروج 20/33 . وهي : "وقال لا تقدر أن ترى وجهي.لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش". (نقلا من موقع www.st-takla.org).

قولهم إنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: (مَنْ رَأَى وَجْهِي مِنَ الآدَمِيِّينَ مَاتَ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ تَرَانِي، لَكِنْ سَتَرَى مُؤَخّرِي)[1]. فهل في التناقض أعظم من هذا: مرّة يقول : من رأى وجهي مات، ومرّة يقول رأيته مواجهة وسلّمت نفسي، وكلّ ما ذكرنا في كتابهم الذي يسمونه "توراة" لا في نقل ضعيف ولا غيره». وقد نصّ ابن حزم على تأثره بالقرآن في نهاية رسالته بقوله: «ولكنّنا اقتدينا بكتاب الله عزّ وجلّ في بيان كفرهم، والتحذير منهم».

ويلاحظ فيها كثرة الأمثلة المؤيّدة لما يقول، ولأن الرّسالة موجّهة لمن كتب مزاعم عديدة عن القرآن امتلأت بالآيات القرآنية والأحاديث، وهذا واضح في كلّ الرّسالة. كما ظهر فيها اهتمام ابن حزم بقواعد اللغة العربية، فجاء في الرسالة:« وليعلم أنّ "إنْ" في هذه الآية ليست التي بمعنى الشرط، ....وإنّما معنى "إنْ" ها هنا الجحدُ؛ فهي هنا بمعنى "ما" وهذا المعنى هو أحد موضوعاتها في اللغة العربية، كما قال عزّ وجلّ آمرا نبيّه ﷺ أن يقول: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾[2] بمعنى ما أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون، كما ذكر الله عزّ وجلّ عن الأنبياء أنّهم قالوا: ﴿ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾[3] وكما قال عزّ وجلّ مخبرا عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام، فقلن: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ ﴾[4]، بمعنى: ما هذا إلاّ ملك كريم، وكما قال عزّ وجلّ ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ٧١ ﴾[5] ... وَقَوله تعال :﴿وَإِنوَقَدۡ كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦ ﴾[6] تهوينًا له، وكذلك قوله

---

[1]. التّوراة، سفر الخروج 23/3 .وهي: " ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائي.وأمّا وجهي فلا يرى".(نقلا من موقع www.st-takla.org).

[2]. سورة الأعْراف: 188 .

[3]. سورة إبراهيم: 11 .

[4]. سورة يوسف: 31

[5]. سورة الأنبياء: 17

[6]. سورة إبراهيم: 46

تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1] بمعنى ما كان للرّحمن ولد فأنا أوّل الجاحدين ... فوضُحَ جهل هذا المعترض وضعف تمييزه». لذا كان رأي ابن حزم أنّه:« يلزم هذا الخسيس أن لا يتكلّم في لغة لا يحسنها».

وركّز ابن حزم على أنّ التوراة التي بين أيديهم محرّفة مبدّلة، فهزئ من « هذيانهم الذي يسمونه توراة، وهزئ مما يقرؤونه في هذيانهم المخترع ووزرهم المفتعل الذي يسمونه التوراة »، ومثلها قال: «لو تدبّر ما في كذبهم المفترى الذي يسمونه التوراة»، وفي فقرة أخرى ذكر «ما في باطلهم المبتدع وهجرهم الموضوع الذي يسمونه توراة »، وكذلك «ما يفتتحون به كذبهم المفترى وبهتانهم المختلق الذِي يسمّونه التوراة»، وفي غيرها قال: «ليس في حماقاتهم المبدّلة التي يسمونها التوراة ذِكرُ أجر ولا ثواب لمحسنٍ بعد الموت ». وفي أخرى تحدّث عن:« ما يقرؤونه في كفرهم المبدّل وإفكهم المحرّف بأخرق تحريف وأنتن معان ... في كتابه الذي يسّمونه التوراة»، وأكّد تبديل توراتهم بقوله« والذي لا شكّ فيه عندي أنّ من بدّل توراتَهم وأدخل فيها مثل هذا، إنّما قصد إلى إبطال النّبوّة جملةً». ولم يقف الأمر عند الاستشهاد بالقرآن وبتوراتهم، بل استشهد بأبيات شّعريّة ثلاث مرّات. وأظهرت الرّسالة ثقافة ابن حزم المنوّعة؛ فاستشهد في الرّسالة بوصفات طبّيّةٍ لعميدي أهل الطّبِّ وهما جالينوس وبُقراط وأشار إلى منافع العسلِ وذكر بعضاً من مضارّه، وبعدها تحدّث عن منافع التّين في الشّفاء من بعض العلل.

واستهزأ ابن حزم بكثير من معتقداتهم موضّحا موطن التّفاهة فيها، فقال: « أفيسوغُ في عقل من له أدنى مُسْكَةٍ[2] أن يكون نبيٌّ يعمل عجلاً للعبادة من دون الله تعالى ويأمر قومه أن يعبدوا له، ويرقص هو وهم تعظيما للعجل على أنّه إلههم الذي من مصر؟ وإذا جاز أن يكون عجلاً وثناً ويعبدونه، جاز لنبيٍّ آخر أن يزني، فكيف يصدقُ في شيء من كلامه».

[1]. سورة الزخرف: 81.

[2]. مُسْكَةٍ : رأي وعقل يرجع إليه (لسان العرب، ابن منظور، مادة مسك: 488/10).

وأظهرت رسا لة ابن حزم كذلك شيئا من عادات ال يه ودِ وتقاليدهم فذك ر أنَّ من عجائبهم أنّهم يلتزمون أكل الفطِير في وقتٍ مذ كورٍ في كلِّ عام ولا يلتزمون أكل الخ روف فيه.

وفي الحديث عن طوامِّهم عمّم الحديثَ عن اليهودِ، ونعتهم بأقبح النُّعوت، فقال: «فمن طوامِّهم أنّ علماءهم يقولون: إنّ أولاد يعقوب لعنوا كلّ من ينقل إلى أبيهم أنّ يوسف حيٌّ. قالوا: فدخل الله تحت هذه اللعنة إذ أطلع يعقوب على حياةِ يوسف، تعالى الله عن إفك هؤلاء المجانين لكفرهم، وا غوْثاه من عظيم هذا الحمق! أفيكون في البقر والح م ير أو الكلاب أضلُّ من قومٍ هذا مقدار عقولهم، أن يجيزوا أن تكون لعنة مخلوقٍ تلحق الخالق؟».

ومن أهمِّ الملاحظات على الرِّسالة كثرة الألفاظ البذيئة والمهينة في مخاط بة ابن النغريلّة؛ فنعته بالزِّنديق المستتر باليهوديّة وبالزِّنديق الجاهلِ، وبالزِّنديق المائق والجاهل والأنوك والخسيسِ، الشّقيِّ الوقّاحِ، والمجنون والوقح، وقد بان فيه كلّه زوره وجهله واغتراره ، و«جهله أعمى بصيرَته وطمس إدراكه ». ولم يفصله عن أبناء ملّته، فهو «عميد اليهود وعالم هم وكبيرهم، وهذا مبلغه من الجهل والسّخف ».وقال إنّه : « عديم العقل سليب التمييز مطموس عين القلب ظليم الجهل،.... لم يقطع دهره إلا بالسّرقة ولا أ فنى عمره إلا بالخيانة والغشّ».

وجاءت ألفاظ الرّسالة سهلة وعلى معانيها الحقيقيّة؛ تختفي منها المعاني المجازيّة إلا ما جاء في بدء الرّسالة وما احتوته الأشعا ر المضمّنة فيها، واستعمل ابن حزم أسلوب الشرط كثيرًا، فأكثر من استخدام "لو" فيه، وامتازت الرّسالة بطول العبارات في كثير من الأحيان، منها قولهِ:« ليس في حماقاتهم المبدّلة التي يسمّونها "التّوراة" ذكر أجر ولا ثواب لمحسن بعد الموت ولا عقابٌ لمسيء في الدّنيا أصلا ولا في الكتب التي ينسبونها إلى أنبيائهم من هذا قليل ولا كثير. فلو نظر هذا المجنون فيما ينسبونه إلى سليمان عليه السلام في تصويبه داء امرأة

دعت لهـ،فقالت: ولا زالت أرواح أعدائك يدور بها الفلك؛ وهذا إبطال الثّواب والعقاب إلا على معنى التّناسخ لما ذ كروه عن غيره من الأنبياء إنَّ هنالك نارا ونعيما؛ ومثل ما ينسبونه إليه عليه السلام كذلك، أنه قال مرّة: إنّ العالم لا أوّل له، وأنّه قال مرّة أخ رى: أنا كنت مع الله تعالى حين خلق الأرض والسّماء. فلو أنّ هذا الجاهل الشّقيَّ اشتغل بم ثل هذا وشبيهه من كذبهم وافترائهم لكان أولى به من تكلّف ما لا يحسن ولا يدري، ممّا قد فضحه الله فيه عاجلاً، ويخزيه آجلاً» ، ومثلها قوله: «ولكنّ هذا الوقح المجنون لو تدبّر ما في كذبهم المفترى الذي يسمّونه "التّوراة" في السِّفر الثَّاني منه أنَّ الله تعالى قال لموسى بن عمران: إنِّي أرى هذه الأمّة قاسية الرِّقاب، دعني لأعقب غضبي عليهم لأهلكهم وأقدِّمك على أمّة عظيمة. ثمّ ذكروا أنَّ موسى عليه السلام دعا ربّه تعالى وقال في دعائه: تذكّر إبراهيم وإسرائيل وإسحاق عبيدك الذين حلفت لهم بذلك وقلت لهم سأكثر ذ رّيّتكم حتّى تكونوا كنجوم السّماء وأورثهم جميع الأرض التي وعدتهم بها ويملكونها أبدا، فحنّ السّيّد ولم يتمّ ما أراد إنزاله بأمّته من المكروه»[1].

وتكاد رسالة ابن حزم تقترب في أسلوبها من أسلوب النثر التّأليفيِّ الذي تكتب فيه المؤلّفات الدّينيّة والعلميّة؛ فقد اعتمد على الأفكار الواضحة والأدلّة والبراهين المؤيّدة، وابتعد عن الصّور البيانيّة والتّشبيهات، كما ابتعد عن فنون البديع التي كانت شائعة في كتابة الرّسالة، إلاّ ما جاء عفوا دون تكلّف.

كما أنَّ مناقشة اليهود في دينهم كانت واردِة عند الأندلسيّين، وأنّها لم تقف عند الرّسائل كما حصل مع ابن حزم، بل وضعت مؤلّفات تشير إلى هذا الصّراع الدّائر بين أصحاب الدّيانات في الأندلس؛ يذكر ابن الخطيب مثلا في "الإحاطة" في ترجمته لمحمّد بن

[1]. الرّدّ على ابن النّغريلّة :51 .

عليٍّ الشّقوريّ أنَّ له كتابا بعنوان "قمع اليهود عن تعدّي الحدود" قال ابن الخطيب إنَّ صاحبه "أحسن فيه ما شاء"[1].

كما استخدم ابن حزم في رسالته أسلوب المشاكلة، حيث وظّف ذات الأسلوب الذي اعتمده ابن النغريلة، وفي ذلك حجة بالغة؛ حيث يقارع ابن حزم خصمه بالمنهج والطريقة التي استخدمها ووظفها في هجومه على النصوص القرآنية، إلاّ أن منهج ابن النغريلة مبني على التوهم وحمل الآيات على محامل تفسيرية ولغوية ذكرها العلماء بخلاف التعارضات التي أوردها ابن حزم على ابن النغريلة، ففيها دقة وإحكام وتعارض جلي يعجز ابن النغريلة عن ردّها.

[1]. الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب: 179/3.

9/ الدراسة الفنية للرسالة:

تعد الدراسة الفنية إبحارا في عالم النص للوقوف على تميّز مبدعه وتفرده في الأداء عن وعي الاختيار، كما أنها تمتلك القدرة على إبراز الدلالات المختلفة التي يشحن بها المبدع خطابه، ولكن ما يميّز هذه الرسالة موضوع الدراسة، أنها لا تعكس المستوى الذي كان عليه ابن حزم من البلاغة والفصاحة، أو تعكس روح ذلك العصر الذي يعد من أزهى العصور الأدبية الأندلسية، ذلك أنه غلب عليها كثرة الاقتباسات القرآنية، والتضمينات المأخوذة من التوراة المحرّفة، وبالتالي لم يترك ابن حزم لنفسه حيّزا كبيرا ليطعم رسالته بالجانب الفني الذي سلكه في مؤلفاته الأخرى، أو لأسباب أخرى، قد يجتهد الباحثون في الوصول إليها؛على أننا اجتهدنا في استنباط بعض السمات الفنيّة منها.

أ/ الحقول الدلالية:

اهتمت الدراسات القديمة والحديثة بالمعجم اللغوي من حيث التركيب والدلالة ، وخصّت الدراسة النقدية الحديثة المعجم باهتمام خاص « لأن المعجم اللغوي هو لحمة أي نص أدبي وهو المخزون اللغوي الكامن في حافظة المبدع »[1].

إن اختيار الكاتب للكلمات الملائمة التي تخدم فكرته التي يؤدي عرضها لفهم المتلقي، كما أننا نستطيع من خلاله ا فهم ما يدور بخلد الشاعر أو الأديب ، والتعمق في أعماق ذاته فلا يمكن الوصول إليها إلاّ بالنفاذ إلى مخزونه المعجمي ، حيث إن التدقيق في خواص المعجم اللغوي يكشف لنا الكثير من اتجاه حركة المعنى الداخل لابن حزم ، كما يكشف داخل المحور الذي تدور فيه وفي نفس الوقت يقودنا إلى اتصال المعنى بالعناصر التي تحيط به .

[1]. قراءة ثانية في شعر امرئ القيس ، محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان، بيروت ، ط1، 1996: 299 .

فنظرية الحقول الدلالية تقوم على أساس تصنيف الألفاظ التي تربط فيما بينها ارتباطا دلاليا يقسم إلى مجموعات مختلفة لنتمكن من وصفها وتحليلها « فوضع اللفظ في مجاله الدلالي الخاص بقيد في النظر إليه بين جيرانه مرتبطا بهم ومتميز عنهم في آن واحد»[1] .

وعليه قمنا بتحديد بعض الحقول الدلالية التي رام ابن حزم أن يبث بها الرعب في نفس خصمه، وهو أكثر الناس علما بالنفوس، يتجلى ذلك من خلال مؤلفيه مداواة النفوس وطوق الحمامة، من هذه الحقول:

. الحقل الدلالي لكلمة الموت:

فالموت حقيقة محتومة وأمر لابد من حلوله، وقد وظّف ابن حزم كلمة الموت والمفردات المقاربة لها لما في نفسية اليهود من خوف وكراهية للموت، فابن حزم مؤمن إيمان جازم أن اليهود هو أحرص الناس على الحياة الدنيوية مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾[2]، وكذلك لما قرأ في كتبهم الدينية ولعله ، كان يبغي بثّ الرعب في قلب خصمه، وتنحصر مفردات الموت في الكلمات الآتية: « المآثم، انقراض ، البلاء ، يتغمد، عاجلة ، نكبة ، تقتل، الموت ، تابوت ، أهلكهم ، مصيبة، أقاتل ، ينازع الموت ، أباد ، أهلك ، يذبح، القاتل، مقبرة».

نلاحظ أن مفردات الموت لم تكن بالقليلة في الرسالة فدلالة هذه الكلمات أن الموت حقيقة مؤكدة على الإنسان أن يعمل خيرا ليختم حياته بخاتمة خير في الدنيا والآخرة ذلك أنها دار البقاء، فلا حياة بعد الموت إلاّ في الجنة أو في النّار ، فالإنسان مسؤول عن عمله في

[1]. الخطاب الشعري عند محمود درويش . دراسة أسلوبية . ، محمد صلاح زكي أبو حميدة ، مطبعة مقداد، غزة، ط 1، 1421هـ ـ 2000م : 210.

[2]. سورة البقرة: 96.

الدنيا التي تضمن له الفوز أو الخسارة في الآخرة ، فكأن ابن حزم يذكر اليهودي بأنه يوجد الموت والحساب والعقاب في الآخرة ، ويقوم بتحذيره من نهايته بطريقة غير مباشرة .

. الحقل الدلالي لكلمتي الثواب والعقاب:

تدعي فرق من اليهود أنه لا ثواب ولا عقاب في الآخرة [1] ، وإنّما الثواب والعقاب في الدنيا ، وقد كان ابن النغريلة بحسب ابن حزم من أتباع الدهرية فقد قال في رسالته:« هذا الخسيس الزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المكفّن بتابوت اليهودية في ظاهره» [2]؛ وبالتالي حاول ابن حزم أن يجر ابن النغريلة إلى الإقرار بالثواب والعقاب يوم القيامة، ومن الكلمات التي وظفها على ذلك في رسالته قوله:؛ « معادهم، دار قرارهم ، آجلتهم، الفوز، العقوبة ، السيّئة ، يحبني تقصيره ، حقّ ، الجنّة ، النّار ، عفو ، الذنب، عذاب، الجزاء، الثّواب ، العقاب ، الخلود ، الخير ، الشّر ، الكفر، الإيمان ، إدخال النار ، الحساب، نعيم، الهوى»، وهذه كلمات تدل على إيمان ابن حزم وتمسكه بالعقيدة ، وإيمانه بأن هناك الثواب والجزاء في الآخرة، وكل نفس وما عملت في دنياها ، فالثواب والعقاب حقيقة لا مفرّ منها في الآخرة .

. حقل الصراع والجدال:

الصراع والجدال سنّة من سنن الحياة، ولا يوجد كائن حيّ إلاّ ويعيش هذه السنّة الحياتية إما غالبا أو مغلوبا، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾[3].

---

[1]. ينظر الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط 1، 1996: 38.

[2]. الرّدّ على ابن النغريلة: 47

[3]. سورة البقرة: 251.

فلا يمكن للإنسان أن يبقى منعزلا عن حلقات الصراع والجدال مهما حاول أن يتجنب ذلك، وعند استعراض حقل الجدال والصراع في الرسالة نجده أكثر الحقول اتساعا، ومن أهم كلمات هذا الحقل : « أعداء، العداوة، عصابة، القوّة ، سفك، سبي، خلعه، عتقه، دمه، اعتراض، ضيق باعه، قلّة اتساعه ، عقوبة، الساقط، الضعيف، الأعمى، الجاهل، المصاب، أنكر، تمردا، الحق، التناقض، يفرق، كذاب، البهتان، السخف ، الكلام، القول الضعيف، شرر اللهب، الجدال، بيان، إشكال، خالف، أبطل، افتراء، تعارض، ينكر، يهدم، زور، الحذر، سخط، اليقين ، الشك ».

الملاحظ في هذا الحقل سخرية ابن حزم رسالته للردّ على الشبهات التي اختلقها اليهودي على القرآن الكريم .

فالرسالة تقوم على درء شبهات اليهودي أساسا ، فهو يدافع عن العقيدة التي يؤمن بها، والدّين الذي شرّفه الله به ، وكثرة هذه الكلمات ترجع إلى ثقة ابن حزم في نفسه واعتداده بآرائه ، فهو يقول أنه ساق الآيات التي تدلّ على طلب الجدال ، بالإضافة إلى هذا تمكن اليهود في بلاد الأندلس وتطاولو هم على الإسلام، إلى درجة تجاوزوا فيها قدرهم ، وتعدوا حدود الأدب والوقار.

. الحقل الدلالي للسخرية والتهكم:

يعدّ هذا الحقل من أكبر الحقول في هذه الرسالة، ذلك أن ابن حزم مشهور بحدّة لسانه، فقد كان حادّ المزاج عنيف اللهجة في النقد، ولا سيما إذا أحسّ بالمراوغة والتمادي في الباطل، فلا يكتفي بالتصريح المجرد بالحق وبيان الدليل، بل يوظّف في مناقشاته عبارات قويّة لاذعة، تحمل من السخرية والتهكم ما ينسف آراء الخصم، ويجعله أضحوكة الناس؛ وهذا ما حدا بابن العريف إلى القول بأن لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا شقيقين. غير أننا نلتمس له العذر في هذه الرسالة موضوع البحث، لأن ابن النغريلة شحن رسالته بالتحامل

والسخرية من القرآن الكريم، مستهدفا إثارة الشكوك والشبهات في كلام الله تعالى، ومن جملة ما قال:

« الختل، الكيد، المكر، شأنهم الغش، التخابث، السرقة، أذل الملل، أرذل النحل، الأشر، نفسه المهينة، همته الحقيرة، الكتاب الخسيس، الزنديق، الرذل الجاهل، عاريا من المخرقة، سليما إلاّ من الكذب ، صفرا من البهت، اللعين، الوقاح، الأنوك، الذليل، المائق، العدوّ ، المغتر ، الخبث ، الختر، العداوة ، التطاول، الخضوع ، المهين ، الكذاب، البهت ، الساقط، كلب ، الهجين ، اللعنة، المهانة، المائق، سليب ، الأعمى ، مطموس، الخزي، الظليل ، قاسية الرقاب ، الهوان ، الشنيع ، الحبقة».

ب . **السياق التركيبي:**

يعتبر العمل الأدبي لوحة فنية لا ينظر لجانب فيها دون آخر، وكل أديب له الحرية في عملية التوزيع والاختيار ، فالأديب يعرف بأسلوبه الفني الخاص به ، من خلال سمات خاصة به وحده والأديب فنان أيضا يرسم لوحاته اللغوية بالكلمات ومن الطبيعي أن يكوّن لنفسه نمطا من اختيار المفردات ثم يوزعها بطريقة خاصة به « إذ أن الخطاب في حقيقته مكوّن من بُنَى لغوية، وبقدر ما يستطيع الشاعر والأديب أن يؤلف بينها بخصوصية منفردة، يمتلك ناصية الجمال الفني والسمو في إبداعه »[1].

ومن الظواهر الملفتة للنظر في رسالة ابن حزم حسن توظيفه لأزمنة الأفعال؛ فقد جاء توظيفها في متن الرسالة متوافقا مع كل مرحلة تحدّث عنها ابن حزم؛ ففي بداية الرسالة وأثناء حديثه عن الفترة المعاصرة له ، أي زمن الطوائف نجده أكثر من توظيف المضارع،

[1]. الخطاب الشعري عند محمود درويش دراسة أسلوبية، محمد صلاح زكي أبو حميدة، مطبعة المقداد ، غزة ، ط 1، 1421هـ/2000م: 227.

دلالة على الحالة التي تعيشها الأندلس، فوظّف جملة من الأفعال المضارعة ، منها: نشكو، تشاغل، يتروكونها، يرجون، يؤول، تحسن، يأنس، يحسنون .....

كما نجده غلّب الأفعال في الرّسالة بصيغة الماضي فيما قال ابن النغريلّة ؛ فمنها: استمرت، استقر، أطلق، أرخى، استشمخت، أطغى، ألّف، اتصل، ردّ، بادرت، اعترض، قال، أنكر، عاد، طمس، أخبر، تطيّر..... وكأنّه يريد القول إنَّ ابن النغريلة قال ما قال عن القرآن وسينتهي قوله بهذا الرَدّ المفحم.

أمّا في الجزء الثاني من رسالته ، فوجدناه يوظّف الفعل المضارع في الحديث عن ما يسميه الطّوام، مثل: يعتقدون، يحصون، لا يفقهون، يحسنون، يكتب، يقولون، لا يستحيون، ينسبوا، يبيحون، يقرون، يلتزمون ..... وكأنّ ابن حزم يوحي إلينا بأنّ أقوال الطّوام يتوارثها اليهود جيلا بعد جيل ولا يستطيع ابن حزم إيقاف أقوالهم لأ نّها مِن صميم دينهم رغم تناقضها الواضح، ورغم سخفها.

كما أنّه لم يهمل توظيف التقديم والتأخير، الذي يعد من المسالك التي تدل على مهارة الأديب وقدرته على التفنن في استخدام المفردات والتراكيب ، لأن فيه خروجاً عن المألوف والمعتاد ، ويصفه بعضهم بقوله: « إنّه تيار هوائي أو مائي يحدث خلخلة وارتباكا في الهدوء العام الذي كان مسيطرا فيما سبق »[1]. ومن الأمثلة على ذلك: ترتيب أسلوب الشرط؛ فهو يبتدئ بأداة الشرط ، ففعل الشرط ، فجوابه ، لكن ابن حزم خالف هذا النظام الترتيبي المألوف في بعض المواضع مقدما جواب الشرط على أداته وفعله لأغراض أراد إيصالها ، ولعل الاقتراب من بعضها يوضح ذلك الغرض:

« هذا الزنديق إذا اعترض » فالترتيب الطبيعي لها: ⟵ « إذا اعترض هذا الزنديق الأنوك »

[1]. نظرية اللغة في النقد العربي ، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1980 : 213.

«والذليل الجائع إذا عزّ وشبع» فالترتيب الطبيعي: ⟵ « إذا عزّ وشبع الذليل الجائع »

« وكلب إذا ذلّل ونشط » فترتيبها الطبيعي: ⟵« إذا ذلّل ونشط الكلب»

فالتقديم هنا جاء لأسباب يقتضيها سياق المقام وسياق القول، فنرى هذا التعبير جاء متسقا ومتناسقا مع غيره من التعابير، كأنّه لوحة فنيّة واحدة مكتملة متكاملة، والملاحظ أن ابن حزم أكثر من استخدام أداة الشرط "إذا" مقارنة بالأدوات الأخرى « لو، لوما، لولا » وساهم هذا النوع من التقديم والتأخير في أهمية الموضوع الذي يتناوله ابن الحزم في دفاعهعن العقيدة الإسلامية.

أما عن الحذف الذي اعتبره الخطيب القزويني : «بأنه من طرق التعبير عن المعنى تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عليه لفائدة »[1].

فالحذف لا يدل على نقص في دلالة أو خطأ في التركيب ولكنه يحدث لغرض فني لا يتحقق بالعدول عنه ، وكما يفهم الحذف من خلال سياق الكلام ، والحذف في رسالة ابن حزم الأندلسي جاء في مواضيع ليست بالكثيرة ومن هذه المواضع ، افتتاح هالرسالة بالدعاء إلى الله ونداءه لم يذكر الأداة فقال :

« إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك ⟵ والتقدير يا الله إنا نشكو إليك شاغل أهل الممالك».

فهو يقوم بشكاية أهله من الممالك الذين حادوا عن طريق الله وابتعدوا عن تعاليم الدّين، واهتموا بالسلطة وجمع المال وتركوا من يتطاول على الدين والإسلام .

«اعملوا أيها الناس ⟵ وتقديرها اعملوا يا أيها الناس».

[1]. الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبديع، الخطيب القزويني جلال الدّين محمد بن عبد الرحمن، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني ،ط4، 1975: 281

« الله م إنا نحمدك على توفيقك إيانا بالإسلام وهدايتنا إليه ←—— وتقديرها يا الله إنا نحمدك على توفيقك إيانا بالإسلام وهدايتنا إليه » .

فالحذف عند ابن حزم وظيفته الإيجاز والاختصار التي اعتمدها في أسلوبه لسرعة توصيل فكرته.

ج . **الجانب البلاغي:**

يأنس العرب منذ القديم إلى الكلام الجميل الذي يهز عواطفهم وتطرب له نفوسهم فيفتخرون بكل من له طلاقة في لسانه وطلاوة في ألفاظه وحلاوة في معانيه ، ولعل من رأس أفنان البلاغة فن البديع ، فقد اهتم الشعراء والأدباء اهتماما شديدا به من زمن مبكر على الرغم من بعض القيود التي وضعها بعض المتأخرين لمفهوم البديع كعلم قائم بذاته له شروطه، ومصطلحاته التي تمنعه من التداخل مع بعض الفنون الأخرى ، ونشير إلى أننا اقتصرنا على دراسة المحسنات البديعية الثلاثة المشهورة (**السجع الجناس،الطباق**) وهذا لأنها السمة الغالبة في الرسالة .

➢ **السجع:**

وظّف ابن حزم السجع توظيفا عفويا في ردّه، ولم نحس أنه تكلّف وتصنّع في ذلك، ولهذا لم يغلب على رسالته طابع السجع، فمن ذلك:

انشغال أهل ملتنا **بدنياهم** عن إقامة **دينهم**.

وبعم ارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في **معادهم** ودار **قرارهم**.

وبجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض **أعمارهم** وعونا **لأعدائهم** عليهم ، وعند حياطة ملّتهم التي (بها) عزّوا في **عاجلتهم** وبها يرجون الفوز في **آجلتهم** » .

فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاء **أبواب**.

أطلق الأشر **لسانه**، وأرخى البطر **عنانه**.

نصر دينه بلساني **وفهمي**، والذبّ عن ملته ببياني **وعلمي**.

الذليل **الجائع** إذا عزّ **وشبع**

نستنتج أن السجع زينة الأسلوب العربي وارتبطت به الكتابة العربية منذ العصر الجاهلي إلى عصرنا الحاضر وهنا أراد ابن حزم من خلال توظيفه للسجع ليس التنميق والزخرفة والزينة الشكلية للرسالة إنما المعنى الذي أراد ابن حزم إيصاله أدى إلى اختيار هذه الكلمات وبالتالي المعنى هو الذي يقود إلى السجع.

- **الطباق**:وهو ما لا يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا[1]؛ ومن أمثلته:

ضيق باعه في العلم وقلة **اتساعه** في الفهم على ما عهدناه. **اتساع ≠ ضيق.**

لكن جهله أعمى بصيرته وطمس إدراكه. **إدراك ≠ جهل**

إنّ الحسنات الواصلة إليهم من عند الله عزّ وجلّ ، وإنّ السيّئات المصيبة لهم في دنياهم من عند محمد. **السيئات ≠ الحسنات**

ليس في التوراة ذكر عذاب ولا جزاء بعد الموت أصلا وإنما الجزاء بالثواب والعقاب في الدنيا فقط.

العقاب≠الثواب

يظهر الليل والنهار **النهار≠الليل**

لا تكون الراحة إلاّ لتعب ونصب وقد خارت. **التعب≠الراحة**

وهذا لايعرى منه مؤمن ولاكافر. **كافر≠مؤمن**

بنو بها إلى أبنائهم من هذا القليل ولا الكثير. **القليل≠ الكثير**

[1]. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، المكتبة العصرية، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.: 303.

هنالك نارا ونعيما . **نعيما≠نارا**

نخلص إلا أن ابن حزم وظّف الطباق في رسالته، وهذا من أجل توضيح أكثر للمعاني ، ولأنّه بصدد مخاطبة اليهود؛ فالطباق يكشف عن خبايا الكلمة ويدعمها بعكسها فيزيدها وضوحا وبالتالي يسمح للمتلقي من فهم المعاني التي أوردها فإن تعذر عليه فهم معنى سيدّركه بعكسه ويمكنه من تدعيم أفكاره وتقوية حجبه .

- **. الأساليب**:

يندرج الأسلوب ضمن علم المعاني وتحديدا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعروفة ب الخبر والإنشاء ، وينقسم على قسمين:

أ / **الأسلوب الإنشائي**: هو كلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته وما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلآ إذا تلفظت به [1]؛ والأسلوب الإنشائي نوعان طلبي وغير طلبي.

ومن الأمثلة عن الأسلوب الإنشائي غير طلبي في الرسالة:

الأمر: . فلو تفكر هذا الوقاح الزنديق في هذا وشبهه **لزجره** عن العرض لما لا سبيل له.

النداء: . اللهم إن نشكو إليك شاغل أهل الممالك .

الله م إنا نحمدك على توفيقك إيانا بالإسلام وهدايتنا إليه

الاستفهام: فهل بعد هذا العمى عمى، وهل بعد هذا الجهل جهل؟

كيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم المخاطب بهذا الخطاب مقصرا ؟

وهل تكون الراحة إلا لتعب ونصب قد خارت قواه وضعفت طبيعته؟

فكيف أن يكون به شفاء ، وهم يصفون عن نبي من أنبيائهم أنه شفى أكلة في عضو إنسان بتين مدقوق وجعله عليه؟

[1]. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط 17، 1426هـ 2005م: 28.

التمني : وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همّنا .

. ليت شعري أين كان هذا الخسيس المارق إذا اعترض بهذا الاعتراض ؟

ومن أمثلة الأسلوب الإنشائي غير الطلبي في الرسالة :

. القسم: ولعمري أن اعتراضه الذي اعترض به لبدل على ضيق باعه في العلم .

ما يتضح لنا من خلال استعمال ابن حزم لهذه الأساليب الإنشائية بنوعيها، هو الموضوع الذي تناوله في رسالته في الردّ على ابن النغريلة التي تستدعي التنويع في الأساليب لتنوع ردود الفعل التي وردت في الرسالة هذا لأنه ليس من الممكن أن يكون الموضوع عن القرآن وتكون ردة الفعل تلزم طابعا واحدا وجامدا .

ب/ **الحدّة والتهكم:**

غلب في رسالة ابن حزم أسلوب الحدّة والتهكم بشكل لافت، وإن كان له ما يبرره، فقد استطاع اليهود أن يسيطروا على كثير من مفاصل الممالك آنذاك، ما جعلهم يتطاولون على كتاب الله ، الذي هو دستور المسلمين وعماد دينهم، وهذا ما يفسر سبب حنق ابن حزم وغيره من المسلمين على اليهود، لا باعتبارهم يهودا ، ولكن بالنظر إلى أفعالهم الشنيعة تجاه المسلمين وعقيدتهم، فابن حزم عايش تطاول اليهود بالأندلس ، وخيانتهم للعهد مما ترك على أسلوبه الجدلي ، الذي اتسم بالغلظة وهم الذين سمحوا لهم بالعيش بين ظهرانيهم، وتركوا لهم مطلق الحرية في ممارسة طقوسهم؛ ومما ورد في الرسالة، قوله:

. « أطلق الأشر لسانه ». شبّه ابن حزم لسان ابن النغريلة بالأشر [1] المنشار الذي يقطع الأشياء كناية عن أن يا يقوله لا يمت للعلم ولا للعقل بصلة فهو فقط، ينفث ما اختلج في صدره من حنق وحقد على المسلمين.

[1]. لسان العرب، مادة أشر: 158/1.

. « وأرخى البطر عنانه » البطر هو الطغيان والتكبّر[1]، وهذه صفة ذميمة ألحقها ابن حزم بابن النغريلة، وقد علّل لها بكثرة أمواله وجاهه.

. إمعانا في حدّيته وسخريته، حشد ابن حزم مجموعة من الصفات الذميمة ، ليصف بها اليهودي فقال:

. «فلما اتصل بي أمر هذا اللعين».

. «توفية هذا الخسيس الزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المكفن بتابوت اليهودية في ظاهره».

. «ضيق باعه في العلم، وقلة اتساعه في الفهم».

. «عاريا من الا من المخرقة، سليما إلا من الكذب صفرا إلا من البهت».

. «مستغنية ببادي ألفاظها».

. «ولكن جهله أعمى بصيرته وطمس إدراكه».

. « وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذا اعترض بهذا الاعتراض كان سكران الخمر ، وسكر عجب الصغير إذا كبر، والخسيس إذا أشر، والذليل الجائع إذا عزّ وشبع، والسفلي إذا أمر وشط، والكلب إذا دلّل ونشط».

. «هذا الاعتقاد الساقط لكان أحظى له، .... ويؤجل له الخلود بين أطباق النيران المعدة له ولأمثاله».

. «مما قد فضحه الله عاجلا ويخزيه آجلا».

وهذا الأسلوب كان غالبا على جميع مناظرات ومحاورات وجدالات ابن حزم، وقد أرجع ذلك إلى مرض أصابه، ولكن تعريضه باليهودي ابن النغريلة كان أشّد مقارنة مع جميع الذين تصدى لهم ابن حزم؛ لا تصنعا وتنميقا ولكنّه تعبير عن نفس حزينة، مليئة بالأسى والهم والغمّ مما ألحقه ملوك الطوائف بمسلمي الأندلس.

[1]. المصدر السابق: مادة بطر: 1/ 441.

خاتمة.

فهرس المصادر والمراجع

اكتملت فصول هذا البحث، وارتسمت نتائجه، مبيّنة أن أدب الحوار بين الأديان في الأندلس حقيقة واقعة بين مختلف الطوائف المشكلة لذلك المجتمع، وقد سمحت لنا هذه الدراسة بالوقوف عليه عن كثب، ويمكن أن نلخص أهم النتائج التي خرجنا بها من هذه الدراسة في الأفكار الآتية:

1. ليس الغرض من حوار الأديان البحث عن الأرضية المشتركة مع الآخر المخالف دينيا مزايدة فكرية لتجاوز ثقافة الإقصاء ، ولا انسياقا وراء مشاريع كفرية وتفريطا في مبادئ عقدية ثابتة وموالاة لمن لا تجوز له الموالاة، وإنما هو بمقتضى الأمر القرآني بدعوة أهل الكتاب إلى الكلمة السواء في قوله ﷻ:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾[1].

2. من خلال استقرائنا لتاريخ الأندلس قبل الفتح الإسلامي، لاحظنا أن الحوار بين الأديان كاد ينعدم، نظرا للسطوة التي حازها الملوك، فلجأ بعضهم إلى أشد أنواع التنكيل باليهود، بل أجبروهم على اعتناق المسيحية، وهو نفس الفعل الذي وقع للمورسكيين بعد سقوط الأندلس الإسلامية.

3. كشفت المؤلفات التي حوت حوار الأديان ، ومن تاريخ العلاقات بين الأديان في الأندلس عن الحوافز العقدية التي أفضت إلى ازدهاره ونجاحه، وبانت بالمقابل أصول البلاء وجذور الأزمات التي مرّ منها.

[1]. سورة آل عمران: 64.

4. نشأة حوار الأديان في الأندلس كانت عفوية ، فلم تقم برعايتها لا الهيئات الدينية ولا السياسية ، والسبب في ذلك هو تغلغل الدّين في نفوس المجتمع، وكلّ طرف كان يحاول أن ينتصر لدينه، ويثبت صدقيته.

5. عمل المسلمون في الأندلس إلى حدّ بعيد على تجسيد التسامح واحترام الآخر، ذلك أن النصارى واليهود ورغم تطاولهم الشديد على الإسلام، إلاّ أن المسلمين قابلوهم بالفكر والحجة؛ وليس غريبا ذلك الفعل فالمسلمون طبقوا تعاليم دينهم الحنيف وصحيفة المدينة أكبر شاهد على ذلك.

6. غلبة الدراسات التي تناولت الحوار الإسلامي المسيحي، وقلتها بين المسلمين واليهود، نظرا ربما لانكفاء اليهود على أنفسهم.

7. كشفت الدراسة عن جانب مهم من جوانب الحياة الدينية والاجتماعية التي كان يحياها المسلمون واليهود والنصارى في الأندلس، والعلاقات التي كانت قائمة بينهم في المجال العقائدي.

8. يعد ابن حزم الأندلسي من أكثر علماء المسلمين مناظرة لليهود، فالذي يقرأ كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل يطالع العديد من المناظرات التي كانت تدور بينه وبين اليهود.

9. أفاد العلماء من جهود ابن حزم في مجال ردّه على أهل الكتاب، ونقل عنه بعضهم النصوص كما هي أو بتصرف.

10. حاول علماء الأندلس الالتزام بالمنهج الذي ي تخذ من العقل والمنطق أداة في الحجة والإقناع أثناء محاوراتهم للقساوسة والأحبار.

11. التزم العلماء المسلمون في محاوراتهم ومناظراتهم لأهل الكتاب بالأمانة العلمية، فلم يوظفوا النصوص المقدسة التي تحتمل أكثر من وجه.

12. وظّف علماء المسلمين المنهج التركيبي والمنهج التحليلي، وزاوجوا بين المنهجين، وكانت طريقتهم في الحوار تبدأ بمرحلة تحليل النص أو الفكرة، يعقب ذلك ثلاث مراحل هي على التوالي: التركيب ثم التحليل ثم التوليف.

13. اتّضح من خلال استعراض أدبيات الحوار بين الأديان عند المسلمين في الأندلس أن كتابات العلماء المسلمين ومناظراتهم يغلب عليها أمران: الأول يتمثل في الدفاع عن الدّين الإسلامي عقيدةً وشريعةً ونبوّةً دفاعاً علمياً دقيقًا وهادئًا.

الأمر الثاني يتلخص في المحاولات الناجحة لنقض العقائد الدينية اليهودية والنصرانية؛ وكانت المحاورات تتم في الغالب بصورة كتابية.

14. وأهم القضايا التي استأثرت باهتمام الأطراف المتحاورة هي ما يلي: دحض حجج أهل الكتاب المتعلقة بمذاهبهم المتعددة، ومن ثم البرهنة على بطلانها. وبيان فساد مذاهب النصارى المتعلقة في القول بفكرة الاتحاد والحلول. والبرهنة النقلية والعقلية من كون التوراة والإنجيل محرفين لا يشبهان ما أنزل على النبيّين موسى وعيسى عليهما السلام. والخلوص إلى إثبات نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، والمقارنة الشرعية والنقلية والعقلية بين العديد من الشعائر الإسلامية وما يقابلها في النصرانية واليهودية، والخلوص إلى أن الشعائر في الديانتين اليهودية والنصرانية قد دخلها كثير من الزيادة والنقصان، وأصبحت لا تتواءم مع الشرع الإلهي والعقل الإنساني، ولهذا تبقى الشعائر الإسلامية هي الصحيحة.

15. لقد أصبحت المحاورات الجدلية بين أتباع الديانات السّماوية الثلاث في الأندلس نبراساً يقتفي أثرهعلما ء ما بعد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكذلك بعد سقوط الأندلس النهائي، نجد مصداق ذلك في محاورات الموريسكي محمد الكازر التي دونها في كتاباته. بل إن المحاورات والمجادلات الدينية بالأسلوب الأندلسي قد انتقلت إلى البرّ المغربي، حيث سجّل أبو العباس أحمد بن القاسم بن أحمد بن الفقية قاسم بن الشيخ الحجري الذي

هاجر سنة 1598م من الأندلس ؛ وسجّل قصة فرارهفي كتاب وصلنا مختصره فقط هو : " رحلة الشهاب إلى الأحباب " كما ألّف كتاباً آخر لم يصلنا ، عنوانه: " العزّ والرفعة والنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" نقل فيه محاورته مع راهب نصراني مكاتبة وهو الأسلوب نفسه الذي كان سائد ا في الأندلس قبل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ولم يكتف الشهاب الحجري بالبرّ المغربي لأننا نجده قد شدّ الرّحال مجادلاً ومحاوراً علماء النصرانية في عقر دارهم في فرنسا وهولندا. ودوّن ملخصً ا لمحاوراته ومجادلاته في كتاب سماه: " ناصر الدين على القوم الكافرين".

16. من خلال استقراء النصوص التي حوت حوار الأديان في الأندلس نجد أن قمة المحاورة والمجادلة الدينية بين علماء الأديان السّماوية الثلاث وقعت في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ولعل ذلك راجع إلى روح التسامح الديني، التي سادت مدن الأندلس قاطبة، وليس من المستبعد أنه راجع أيضاً لنشاط حركة التنصير. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن زيادة عدد الداخلين في الإسلام من شباب النصارى واليهود نتيجة للمحاورات الدينية، وعلى الأخص شباب نصارى إشبيلية الذين اعتنق مجموعة منهم الإسلام.

17. أن مؤلفات أولئك العلماء، خصوصاً مؤلفات الإمام ابن حزم قد بُنيت على قواعد صلبه، أدت إلى نشوء علم اسمه: علم مقارنه الأديان وقواعده. لقد كان ابن حزم رائداً في ميدان النقد التاريخي، ورائداً في ميدان الفلسفة والعقليات ، ويكفي أنه أول من نص على دور بولس الرسول في تحريف الإنجيل، وهو قول سبق به علماء النصرانية واللاهوت النصراني في العصر الحديث. وكان ابن حزم أكثر علماء الأندلس مجادلة ومناظرة لعلماء اليهود.

18. شكلت النقاشات الحامية التي جرت بين علماء الأديان الثلاثة مقدمة ضرورية. ورصعت صفحات ناصعة في ميدان الحوار الديني، وكانت الروح المتسامحة السائدة بين

المتحاورين هي ما شجع عدداً من العلماء من مختلف الطوائف للدخول في دائرة الجدل الديني، طالما أنهم لن يتعرضوا للمساءلة أو العقاب من قبل المسؤولين الحكوميين، لدرجة أن بعض القضاة الذين يشهدون المحاورات الدينية يصمون آذانهم عندما يتلفظ أحد المتحاورين من أهل الكتاب بما يعد قذفاً في جنب الإسلام أو نبيه، وذلك خشية أن يوقع عليه العقوبة المشروعة.

19. الحوار بين الأديان السّماوية الثلاث شكل سمة من سمات الحوار الحضاري الذي عرفته الأندلس، وهو حوار حضاري، أنتج العقلية الأندلسية المتفتحة، وأدى إلى لقاء الثقافات المختلفة على صعيد واحد، وأدي إلى تلاقح العقول، وهو حوار حضاري ما أحوجنا اليوم لمثله، فقد أثبت التجربة الأندلسية أنه إذا ما توفرت الأجواء الصحيحة والتسامح فإن الدّين لا يشكل عقبةأمام الحوار الحضاري. والحوار بين الأديان كما اتضح من التجربة الأندلسية، حوار قائم على قبول الرأي والرأي الأخر، وعلى فتح باب الخيار أمام المت حاورين وغيرهم، وعدم إجبارهم على قبول مالا يرضون، أو التقليل من شأنهم، ولم يرد في المصادر ما يشير إلى أن المتحاورين من أتباع النصرانية أو اليهودية قد تعرضوا للضرب أو السجن، ناهيك عن القتل. وهذا هو الحوار الديني المطلوب. الحوار الذّي يؤدي إلى حوار حضاري.

وفي الختام ؛ أرجو الله تعالى أن يهيئ سبل الاستفادة من صحيح هذا العمل وتقويم سقيمه، وأن يكون ما بذل فيه خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1394هـ . 1974م، ج1.

2. الإسلام وحوار الحضارات، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1425هـ . 2004م، المجلد3.

3. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط2، 1393هـ، 1973م.

4. إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، تح: محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، 1410هـ . 1989م، ج 1.

5. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، الإمام القرطبي، تح: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، 1980م.

6. الإفادات والإنشادات، إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي، تح: محمد أبو الأجفان، دار مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ . 1986م.

7. أبو نواس الأندلس . ابن سهل الإسرائيلي .، محروس منشاوي الجالي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986م.

8. آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، دار صادر، بيروت،1969م.

9. أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، محمد صالح منصور، الناشر جامعة قاريونس، 1996م.

10. الأثر العربي في الفكر اليهودي، إبراهيم موسى هنداوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م.
11. آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تح: سعود بن عبد العزيز العريفي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.
12. أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبد النبي فلاح القيسي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1409هـ . 1989م.
13. الأدب العبري القديم والوسيط، جلال أُلفت محمد، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس، 1978م.
14. أدبية النص السردي عند أبي حيان التوحيدي، حسن إبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، 2009م.
15. أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني بجدة.
16. الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1996م.
17. الأصوات اللغوية ، عبد القادر عبد الجليل، دار الصفاء ، عمان، ط1، 1998م.
18. أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، ط 3، بيروت، 1401هـ.1981م.
19. أعلام مالقة ، تقديم وتخريج عبد الله المرابط الترغي، أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، دار الغرب الإسلامي ودار الأمان للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999م.
20. الأعلام، خير الدّين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 15، 2002م، ج1.
21. الأندلس الذاهبة، دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، ضياء باشا، تعريب: عبد الرحمن إرشيدات، مراجعة وتحقيق: صلاح إرشيدات، عمان، 1989م،ج2.

22. الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، عصمت عبد اللطيف دنش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
23. أنوار الربيع في أنواع البديع، علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: هادي شكر، دار النعمان، النجف، ط1، 1389هـ . 1969م.
24. أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، محمد عبده حتامله، عمان، الأردن، 1416هـ . 1996م.
25. الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، تح: عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، مصر.
26. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط 17، 1426هـ 2005م
27. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى الحلبي. مصر، 1384 هـ.
28. بلاغة الحجاج في سخرية الرحالين العرب من بلاد العم سام، عبد النبي ذاكر، علم الكتب الحديث ، إربد، الأردن،ط1، 2010م.
29. البلاغة المسيرة، فيصل حسين طحيمر، الأردن مكتبة الثقافة ط1، 1995م.
30. البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، محمد صلاح زكي أبو حميدة، دار المقداد للطباعة، غزة، 1428هـ-2007م.
31. بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية، عبد المولى أحمد عادل ، مكتبة الآداب، القاهرة ، مصر، ط1 ، 2009.
32. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري أبو العباس أحمد، تح: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، دار الثقافة، بيروت، 1406هـ . 1985م، ج3.
33. بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تح: محمد شامة، مكتبة وهبة، مصر، 1979م.

34. تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، ط2، 1969م.
35. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، ط 2، 1402هـ . 1981م.
36. تاريخ العالم، أوروسيوس الترجمة العربية القديمة، تقديم وتحقيق: عبد الرحمن البدوي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1982م.
37. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ . 1995 م ، ج 55.
38. تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، انسلم تورميدا الشهير بعبد الله الترجمان الأندلسي، تقديم وتحقيق وتعليق: محمود علي حماية، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1992م.
39. ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك، أحمد بن عمر بن أنس العذري، تح: عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م: 98.

40. تعريف عام بدين الإسلام، علي طنطاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 6، 1974.
41. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.
42. تفسير الطبري . جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر عبد الله محمد بن جرير الطبريّ، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، جيزة، ط 1، 1422هـ . 2001م
43. التفسير الكبير، محمد فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، د.ت، ط 2، ج8.
44. التكرار في شعر محمود درويش، فهد ناصر عاشور، دار الصفات، الأردن، ط1.
45. توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي، عبد الوهاب عبد السلام الطويلة ، دار القلم ، دمشق، ط1، 1425هـ . 2004م.

46. الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبيّ، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسسة الرسالة، لبنان، ط1، 2006م.

47. الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم ـ الخزرجي)، خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م.

48. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي ، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ ، 1992م.

49. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، المكتبة العصرية، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

50. الحبّ في الأندلس ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية، جودت مدلج، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.

51. الحجاج في المناظرة ، مقاربة حجاجية لمناظرة أبي حنيفة مع الملحدين، عبد العزيز لحويدق، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 1431هـ ـ 2010م.

52. حجة الوداع لابن حزم، ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، دمشق، 1966م

53. ابن حزم ومنهجه في مقارنة الأديان، محمود علي حماية، دار المعارف، ط 1، 1983، القاهرة.

54. حوار الأديان بين الواقع والحلم، الحوار الإسلامي المسيحي تاريخه، واقعه، معوقاته وآفاقه، مسعود حايفي، دار الأوائل، سورية، ط 1، 2012م.

55. الحوار الإسلامي المسيحي الفرص والتحديات، يوسف الحسن، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ط 1، 1997م.

56. الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ ـ التاريخ ـ الموضوعات ـ الأهداف، بسام داوود عجك، دار قتيبة، ط 1، 1998م.

57. الحوار الإسلامي المسيحي نحو مشروع للنضال المشترك، محمد مهدي شمس الدين، مؤسسة الإمام شمس الدين للحوار، 2004م

58. الحوار وآدابه في الإسلام، صالح عبد الله بن حميد، دار المنارة، ط 1، 1415 هـ . 1995م.

59. حياة محمد ﷺ، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، 1991.

60. خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن حجة الحموي، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، م1، 2004م.

61. الخطاب الشعري عند محمود درويش . دراسة أسلوبية . ، محمد صلاح زكي أبو حميدة، مطبعة مقداد، غزة، ط1، 1421هـ . 2000م.

62. خطاب المناظرة في الأدب الأندلسي من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري، محمد أبحير، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1436هـ . 2015م .

63. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، س.د جوايتاين ، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م.

64. دراسات في النقد الأدبي الحديث، محمد صلاح زكي أبو حميدة ، سلسلة الإبداعات الفلسطينية، 2006م.

65. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،1978م .

66. دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين)، محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1418هـ . 1998م.

67. دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1417هـ . 1997م،

68. دولة القوط الغربيين، إبراهيم علي طرخان، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1958م.

69. ديوان ابن الحداد الأندلسي، يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.

70. ديوان ابن سهل، ابن سهل الإسرائيلي، تح: محمد قوبعة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسيّة، تونس، 1985م .

71. ديوان التطيلي، أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1989م:

72. ديوان القيسي، عبد الكريم بن محمد القيسي البسطي، تح: جمعة شيخة، محمد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، تونس، 1988م.

73. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تح: إحسان عباس،دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 1399هـ . 1979م، 4ق1، م2.

74. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، تح: محمد بنشريفة، سلسلة المكتبة الأندلسية، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

75. رحلة أفوقاي الأندلسي . رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب . ، أحمد بن قاسم الحجري " أفوقاي"، حرّرها وقدم لها: محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2004م.

76. الرّد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، أبو حامد الغزالي، عبد العزيز عبد الحق الحلمي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأسيوية، القاهرة، 1393هـ-1973م.

77. الردّ على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، ابن حزن الأندلسي، تح: إحسان عباس، مكتبة دار العروبة، 1380هـ . 1960م.

78. الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، علي بن محمد بن خلف الأندلسي القيرواني القابسي ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط1، 1986م.

79. رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها، تح: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986

80. رسالة في اللاهوت والسياسة، اسبينوزا، تر: حسن حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م.

81. رسائل ابن حزم الأندلسي ، إحسان عباس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1983م.

82. ابن رشيق المُرسي . حياته وآثاره .، دراسة وتحقيق: محمد بنشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1429 هـ . 2008م.

83. اسبينوزا، فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر، ط3، 2008م.

84. السخرية في الأدب الجزائري الحديث 1925/ 1962م، محمد ناصر بوحجام ، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر 2004م.

85. السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين ، سعيد أحمد عبد العاطي غراب، دار العلم والإيمان، مصر، ط1.

86. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترميذي، حكم على أحاديثه وآثاره: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د.ت.

87. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1981م.

88. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 6، 1400هـ.

89. شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحي بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1392هـ، ج 2.

90. شرح مقامات الحريري، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا . بيروت ، 1992م، ج5.

91. شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من تبديل، الجويني، تح: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر، ط 3، 1407هـ-1987م.

92. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

93. الصراع العقائدي في الأندلس خلال ثمانية قرون بين المسلمين والنصارى . دراسة عقدية . ، خالد بن ناصر بن سعيد آل حسين العبدلي الغامدي، مكتبة الكوثر للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ.

94. الصورة الشعرية، دي لويس ، تر: أحمد نصيف الجنابي ومالك سيرى حسن إبراهيم، دار الرشيد، بغداد، 1982م.

95. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992م.

96. طبقات الأمم، أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912

97. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الجزري، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

98. فجر الأندلس، حسين مؤنس، دار العصر الحديث، دار المناهل، ط1، 2002م.

99. الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، تح: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ج1.

100. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت.

101. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1414هـ / 1993م.

102. في أصول الحوار ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 1998م ، ج 6 .

103. في البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1430 هـ . 2009 م.

104. قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، درسه وحققه: محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990م.

105. قراءة ثانية في شعر أمرئ القيس ، محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان، بيروت ، ط1، 1996م.

106. القرآن الكريم وبهامشه تفسير الإمامين الجليلين جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، د.ت، د.ط.

107. قصة الحضارة، ول وايريل ديورانت، تر: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، 1408هـ . 1988م (1 . 28).

108. قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العالم للملايين، بيروت، ط 7، 1983م.

109. الكافية في الجدل، للجويني، تحقيق وتعليق: فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1979م: ج 19.

110. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م، ج4.

111. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ضياء الدين ،تح: أحمد الحوفي . بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ج1.

112. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ . 2001م.

113. المسالك والممالك، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي ، (القسم الخاص بالأندلس وأوروبا)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، بيروت، دار الإرشاد، ط1، 1968م.

114. المستشرقون، نجيب العقيقي ، دار المعارف، مصر، ط4، 1964م، ج2.

115. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، 1401هـ . 1981م، ج11.

116. المُغرب في حلى المغرب،ابن سعيد المغربي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف.
117. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، القاهرة ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407هـ/ 1987م.
118. مقامع الصلبان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تح: عبد المجيد الشّرفي، نشرية مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسيةن د.ط، د.ت.
119. المقتبس من أنباء الأندلس، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، تح: محمود علي مكي، بيروت، 1973م.
120. مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2007م.
121. الملل والنحل ، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تح: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط2، 1413 هـ . 1992م.
122. المنّ بالإمامة وتاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، عبد الملك بن صاحب الصلاة، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م.
123. المناظرة الأولى: أول لقاء يجمع بين النصارى والمسلمين ، علي الجوهري، مكتبة التراث الإسلامي، ط 1، 1993م.
124. المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، حسين الصديق ، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية ، لونجمان، ط1، 2000م.
125. المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 2001م.
126. موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة، عبد الوهاب المسّيريّ، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1999م .
127. موسى بن ميمون حياته ومصنفاته، إسرائيل ولفنسون ، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط2، 1355هـ-1936م.

128. النبوات، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1420هـ. 2000م.

129. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشّار، دار المعارف، القاهرة، 1995م.

130. نظرية اللغة في النقد العربي ، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي ، مصر، 1980م.

131. نظم الحكم في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، أبو رميلة هشام، 1400هـ-1980م.

132. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان ، 1997م، ج 7.

133. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، إشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1989م.

134. اليهود في الأندلس، عبد المجيد محمد بحر، الهيئة العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1970م.

المعاجم:

135. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ط 1، 1419هـ . 1998م.

136. تاج العروس من جواهر القاموس، للسيّد مرتضى الحسينى الزّبيدي، دار التراث العربي، تح: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1965م، ج 14.

137. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح : أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 4، 1990م.

138. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، الهيئة المصرية للكتاب، 1398هـ . 1978م، ج: 02.

139. لسان العرب، لابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير . محمد أحمد حسب الله . هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر.

140. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير نجيب اللبدي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، ط1، 1985م.

141. المعجم المفصل في الآد اب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، مصر، ط2،1414هـ/ 1993، ج2.

142. المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م، ج 2.

143. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1325هـ . 2004م.

144. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ . 1979م، ج 5.

145. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1426 هـ. 2006 م.

الرسائل والأطاريح الجامعية.

146. أسلوب التهكم في عيون البصائر للبشير الإبراهيمي. دراسة تداولية.، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآداب واللغة العربية، إعداد عبد الحكيم خرشوش، إشراف صالح لحلوحي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015/ 2016.

147. الحوار في القرآن الكريم ، إعداد معن محمود عثمان ، إشراف: محمد حافظ الشريدة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005.

148. خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي (مقاربة لآليات بلاغة الإقناع) أطروحة دكتوراه، عبد اللطيف عادل، إشراف عبد الواحد بن ياسر، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 1425هـ/ 2004م.

149. المناظرة في الأندلس . دراسة في الأشكال والمضامين.، إعداد: آمنة بن منصور، إشراف: بومدين كروم، رسالة دكتوراة، جامعة تلمسان، 2012م.

150. اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، خالد يونس عبد العزيز الخالدي، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ بجامعة بغداد 1999م، إشراف: خليل إبراهيم الكبيسي، مطبعة ومكتبة دار الأرقم ، فلسطين، غزة، (منشورة على شبكة الإنترنيت بصيغة pdf).

151. اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، مسعود الكواتي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009م.

الدوريات والمجلات:

152. التحول اللغوي في الأندلس عوامل الانتشار والانحسار: محمد أحمد عمايرة مقال بمجلة الدراسات الإسلامية مجمع البحوث الإسلامية.

153. الجدل الديني من خلال كتاب " ناصر الدين على القوم الكافرين"، مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث . قسم الدراسات الدينية .، حسام الدين شاشية، مجلة إلكترونية.

154. الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح ، محمود علي مكي، أعمال الندوة ، أعمال ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، المغرب، ط 1، 2003م.

155. دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، حسن المودن ، ضمن ندوة الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1431،1هـ/ 2010م، ج1.

156. مجلة الإسلام وحوار الحضارات، من تاريخ الحوار الديني في الأندلس، محمود علي مكي، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1425هـ . 2004 م ، المجلد الثالث.

157. مجلة الدراسات الإسلامية مجمع البحوث الإسلامية . مجمع البحوث الإسلامية . الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد ، باكستان، م 26،العددان 1 و 2 ، 1412 هـ . 1991م.

158. مجلة العربي، الأندلس صفحات مشرقة، الطاهر أحمد مكي، ط 1، الكويت، 2004.

159. محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس ، إبراهيم القادري بوتشيش، أعمال ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، المغرب، ط 1، 2003م.

160. من تاريخ الحوار الديني في الأندلس، محمود علي مكي، سلسلة الأعمال المحكمة.

161. منهج النقد التاريخي عند ابن حزم، طاهر حامد، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ع6، 1408هـ-1988م.

المراجع الأجنبية:

162. AHISTORY OF THE JEWS IN GHRISTAIN,SPAIN, BEAR,YITZHAK., (PHILADELPHIA,1966)

163. THE HISTORY OF THE JEWS OF SPAIN AND PORTUGAL, LINDO,E.H., (NEW YORK, 1970)..

164. DUBNOV,SEMON,MARKOVICH, HISTORY OF THE JEWS FROM THE ROMANEMPIRE TO THE,EARLY MEDIEVAL PERIOD,5VOLUMES,(NEW YORK,1973).

المواقع الإلكترونية:

. العهد القديم والعهد الجديد: www.st-takla.org.

. المكتبة الشاملة. http://shamela.ws/

. المكتبة الوقفية.http://waqfeya.com /

. مكتبة المصطفى. https://www.al-mostafa.com/

. مكتبة المهتدين لمقارنة الأديان. http://www.al-maktabeh.com

. ويكيبيديا الموسوعة الحرة.https://ar.wikipedia.org

فهرس المحتويات :

مقدمة :..... أ

مدخل: 1

1/ تعريف الحوار: 1

2/ تعريف الجدال: 5

3/ تعريف المناظرة: 8

4/ تعريف الدّين: 9

5/ مفهوم حوار الأديان:. 11

أهداف حوار الأديان:..... 12

الفصل الأول: لمحة إلى تاريخ الحوار بين الأديان 15

نشأة حوار الأديان: 15

1/ حوار الأديان زمن الأمم السابقة 15

2/ نماذج من حوار الأديان زمن النبي ﷺ..... 17

3/ نماذج من حوار الأديان بعد زمن النبي ﷺ 25

4/ تاريخ العلاقة بين الديانات السماوية في الأندلس قبل الفتح الإسلامي.....31

5/ تاريخ العلاقة بين الديانات السماوية في الأندلس بعد الفتح الإسلامي.....45

الفصل الثاني:الحوار العقدي والحوار في قضايا الرسل 56

أ/ الحوارالعقدي.....56

ب/ الحوار في قضايا الكتب السماوية 93

1/ تعريف الكتب السماوية.....93

2/ شروط صحة الكتاب السماوي.....93

3/ الحوار في قضايا الكتب السماوية عند العلماء.....94

الفصل الثالث: الحوار في قضايا الأنبياء وحرية التعبير والمعتقد 116

تعريف النبوّة.....116

تعريف الرسالة السماوية.....116

1/ الحوار في قضايا الأنبياء.....118

2/ الحوار في قضايا التسامح وحرية التعبير والمعتقد..... 134

الفصل الرابع: الدراسة الفنية لأدب حوار الأديان في الأندلس.....162

1/ حجاجية الدليل.....163

أ/ الأدلة النقلية.....163

ب/ الأدلة العقلية.....169

2/ حجاجية الأسلوب.....182

3/ الحدّة في أدب حوار الأديان.....189

4/ التهكم والسخرية في أدب حوار الأديان.....193

5/ الدراسة البلاغية لأدب حوار الأديان.....201

6/ الأمثال.....207

الفصل الخامس: تحليل مضمون رسالة ابن حزم في ردّه على ابن النغريلة 210

1/ ترجمة ابن حزم الأندلسي.....211

2/ جهود ابن حزم في نقده لغير المسلمين (اليهود).....212

3/ المصادر التي استقى منها ابن حزم ردوده على اليهود 214

4/ منهجه في مناقشة اليهود ونقده لهم ولكتبهم.....215

5/ ترجمة ابن النغريلة..... 218

6/ سبب كتابة الرسالة التي ردّ فيها على ابن النغريلة..... 221

7/ ردّ ابن ابن حزم على ابن النغريلة.....222

8/ أهم سمات رسالة ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة..... 240

9/ الدراسة الفنية للرسالة 246

الخاتمة .....260.....

قائمة المصادر والمراجع .....266.....

فهرس المحتويات .....284.....

الملخص

يعالج هذا البحث أدب حوار الأديا ن في الأندلس ، والدّور الذّي لعبه كسلاح في معركة الوجود بين أتباع الديانات السماوية بالأندلس، متتبعا نشأته وتطوّره، مستقصيا بعضاً من الموضوعات التي خاض فيها كالحوار في مسائل العقيدة وقضايا الأنبياء والكتب السماوية وضمان حرّية التعبير للآخر؛ معتمدا على أهم المصادر الأندلسية التي حوت هذا الحوار؛ وعلى رأسها رسالة ابن حزم في الرّدّ على ابن النغريلة اليهودي، دون إغفال الجانب الفني لهذا الأدب.

الكلمات المفتاحية: الأدب، حوار الأديان، الأندلس، ابن حزم، ابن النغريلة.

Résumé:

Cette recherche vise le traitement du dialogue interreligieux en Andalousie, et le rôle qu'il y a joué dans l'existence, entre les adeptes des religions célestes. En outre, elle puise à la fois dans son apparition et son évolution en abordant les thématiques qu'il a débattues, telles que la question du dogme, les prophètes et les livres saints ainsi que la garantie de la liberté d'expression pour l'Autre. Tout cela en s'appuyant sur les principales sources andalouses qui ont inclus ce dialogue, notamment la « lettre d'Ibn Hazm » comme réplique au juif « Ibn al Nighrila ».Elle s'intéresse aussi au coté artistique de ce dialogue. .

Mots clés: Littérature, Le dialogue interreligieux, Andalousie, Ibn Hazm, Ibn al-Nighrila.

Abstract :

This research deals with the literature of interfaith dialogue in Andalusia and the significant role it played in in the battle of existence among the followers of the heavenly religions in Andalusia,following its birth and development, and tryingto explores some of the topics that has dealt with such as dialogue in issues of faith,prophets and holy books and guaranteeing the freedom of expression of others.In so doing,we relied upon many andalusian sources,mainly the "treatise of Ibn Hazm" in response to the jewish "Ibn al Nighrila" focusing on the artistic aspect of this literature.

Keywords: literature,interfaith religion ,Andalusia, Ibn Hazm, Ibn al Nighrila.